أسرار النظام اللغوي

عند

مصطفى صادق الرافعي

دكتور

حامد محمد أمين شعبان

١٩٧٩

الناشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وبعد :

كان يخيل الى مصطفى صادق الرافعى دائما أنه رسول لغوى بعث للدفاع عن القرآن ، ولغته ، وبيانه . وكان يؤمن أشد الايمان بتمدن العرب اللغوى ، ويزهو بمستواه فى ثقة واعتزاز • وقد وجدت أن ماكتبه فى تاريخ آداب العرب تحت عنوان « أسرار النظام اللغوى » لم يكن الا معبرا عن جهد كبير فى سبيل اثبات وتأكيد ما يؤمن به ، وابرازنسقه بنهج يسيطر على وجوهه.ويكشف ما يرمى اليه من سمو وجلال • ولكن هذا الجهد لم ينل من الباحثين ما يستحقه من البحث الجاد ، والدراسة الشاملة ، ولم يتعرض الذين كتبوا عن حياة الرافعى وتفكيره لبحثه فى أسرار النظام اللغوى على الرغم من تميزه وأهميته ، ولم يكشف أحد النظرية التى تمكنت من الهيمنة على تلك الاسرار ، ووجهتها الوجهة التى تريدها ، أو يتناول مابذله الرافعى فى تجلية ضروب نظامه ، وسيادة نظريته بالدراسة التى كنا نرجوها •

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الرافعى كان عالما فى العربية ، أمكنته اللغة من قيادها . وألقت اليه بأسرارها . وأن كتابه تاريخ آداب العرب من الكتب التى يعتمد عليها الدارسون . وأنه من الواجب أن تعطى أسرار النظام اللغوى كل مايستطاع حتى نعرف قدر الرجل ، وندرك أثره ، وننتصل بالحقائق اللغوية على هدى ورشـــاد • وحين قمت بدراسة أسرار النظام اللغوى عند الرافعى استخلصـــت الكثير مما ينبغى أن يعرفه الناس . وتبين لى ارتباط الاسرار بنظرية المناسبة، وقيام ضروب النظام اللغوى عليها بطريقة جعلت درسه مترابطا متميزا •

وأدركت أنه يجب أن يحيط الطلاب بهذه النظرية ، ويدرسوا آراء البحث اللغوى فيما ذكره الرافعى ، فذلك يتيح لهم أن يعلموا ما قدم من جهود فى مشكلة المعنى ، وأن يخرجوا بحصيلة مثمــرة من ثمار الدرس اللغوى •

« وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » •

د : حامد محمد أمين شعبان
كلية التربية ـــ جامعة القاهرة
فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٧٩ م

مصطفى صادق الرافعي

ولد مصطفى صادق الرافعي بن الشيخ عبد الرازق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي فى يناير عام ١٨٨٠ م فى بهتيم من قرى محافظة القليوبية فى منزل جده الشيخ الطوخي الذى كان يتاجر بين مصر والشام ، اذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى دار أبيها (١) ، وهذه الام سورية الاصل كأبيه الشـيخ عبد الرازق الرافعي الذى عمل بالقضاء الشرعي، وأخذ يتنقل من بلد الى بلد رئيسا للمحاكم الشرعية، حتى انتهى به المقام فى مدينة طنطا ، وفيها قضى بقية عمره ، وفيهـا أيضا عاش مصطفى صادق الرافعي كل حياته الفكـرية والادبية ، متخذا طنطا وطنا ومقاما لايعرف له وطنا غيرها (٢) •

وقد تلقى دروسه أول ما تلقى على يد والده ، وكانت حافلة بتعاليم الدين ، وحفظ شيء من القرآن الكريم ، ودراسة بعض أخبار السلف ، كما كانت مليئة بحصيلة وفيرة من الثقافة الخارجية ، وثمار العمل فى مجال القضاء الشرعي •

وتأثر مصطفى صـادق الرافعي بما تجلى فى والده من الورع والصلابة فى الدين ، والشدة فى الحق ، وأعجب بعزة نفسه ، واباء روحه ، وعظمة طموحه (٣) ، وقوة جهاده • وأدرك أن الاسرة الرافعية التى ينتمى اليهـا نالت حظـا عظيما من الشهرة بفضل أبنائها من الاعلام المشهورين فى شتى مجالات الادب ، وعلوم الدين ، والقضاء والسياسة ، وعرف أن ذلك يرجع الى حب العلم والتنشـئة عليه ، وتعشق الثقافة والتعويدعلى التعلق بها حتى سيطرت على كثير من أمور القضاء الشرعي الامر الذى لفت نظر عميد الاستعمار البريطاني فى مصر اللورد كرومر وربما أدخل الفزع فى قلبه (٤) •

---

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعي الطبعة الثانية ١٩٤٧ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ص ٢٧

(٢) نفسه ص ٢٥

(٣) نفسه ص ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠

(٤) د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا اسلاميا جامعة بيروت العربية ١٩٧٠ م ص ١٧ ومحمد سعيد العريان حياة الرافعي ص ٢٤

أما المدرسة فقد دخلها بعدما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين وهو يتشبث بالطاعة ، واحترام الكبير ، وتقديس الدين ، والاقتداء بالسلف (١) • ولكنه لم ينل من الشهادات الا الشهادة الأبتدائية (٢) •

وكان لمكتبة أبيه أثر كبير فيما حصله ، فقد أقبل على ما فيها من تراث انسانى يجد فيه كل انسان مشعلا يضىء له سبيل البحث والكشف والتجرد والابداع ، واستطاع أن يستوعب نوادر كتب الفقه والدين والعربية ، ويحيط بكل ما فيها ، ويؤثرها على ماسواها (٣) •

وعندما عين كاتبا بمحكمة طنطا الشرعية فى ابريل سنة ١٨٩٩ م لم ينقطع عن المطالعة والدرس يوما واحدا • ولكن الفترة الخصبة المنتجة من حياته كانت فى مدينة طنطا ، وفيها انتقل من المحكمة الشرعية الى المحكمة الاهلية بعد سنين ، وظل فى محكمة طنطا الاهلية الى يومه الاخير (٤) •

ونستبين، من حياته أن أسعد أوقاته هى الاوقات التى يثرى فيها معلوماته اللغوية « بحفظ القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية ، ومواقف الاعلام فى التاريخ الاسلامى ، وحفظ أكبر قدر من شعر القدامى والمحدثين ، وخطب العرب ومحاوراتهم ، ومنافراتهم فى الجاهلية ، ودررهم الخطابية فى الاسلام •

لقد كانت هذه الثقافة •• هى التى خلقت عند الرافعى نظرية المزج بين اللغة والدين ، فكل من يحاول الاعتداء على اللغة أو الغض من شأنها أو النيل من قدرها ، فانما هو يحارب الاسلام علنا أو استتارا ، وهى نظرية أثبتت الايام صحتها (٥) •• »

---

(١) محمد سعيد المريان : حياة الرافعى ص ٢٨
(٢) نفسه ص ٢٨ ، ٢٩
(٣) نفسه ص ٣٠ ، ٣١
(٤) نفسه ص ٣٤ ، ٣٥
(٥) د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعى كاتبا عربيا ومفكرا اسلاميا ص ٢٠

وكثير من مواقف الرافعي تدل على أنه كان خير حارس للغة ، وأقوى مدافع عن لسانها•فقد واجه الذين يناصبون العربية العداء بكل ما استطاع بعد أن تبين له أن هناك مؤامرة متعددة الاطراف متباينة الاساليب تنتهي الى هدف واحد هو اعلان الحرب على اللغة العربية ، والنيل من العقيدة ، والدعوة الى تحقير كل ما هو شرقي • وبدأ التآمر على اللغة فى شكل دعوة الى العامية أو تشويه اللغة العربية السليمة بالتخلص من الاعراب ، وبدا أن الاستعمار يؤازر ذلك ، ويود عزل سلطان القرآن الكريم عن قلوب الناس (١) •

وظهر بعض الكتاب يقول فى الحملة على اللغة العربية « لنا من العرب ألفاظهم ماننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية : وهى لغة بدوية لاتكاد تكفل الأداء اذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التى نعيش بين ظهرانيها الآن (٢) » •

وكان الرافعي يرد على صور التحامل بقوة ، ويواجه التآمر بحجج ساطعة ، ودفاع متين ،ويخوض المعارك القلمية الفكرية الضارية من أجل لغة القرآن والحضارة معلنا أن اللغة انما هى « مظهر من مظاهر التاريخ والتاريخ صفة الامة ، والامة تكاد تكون صفة لغتها لانها حاجتها الطبيعية التى لاتنفك عنها ، ولا قوام لها بغيرها ، فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الامة واتصال الامة بها وجدتها الصفة الثابتة التى لاتزول الا بزوال الجنسية ، وانسلاخ الامة من تاريخها واشتمالها على جلدة أمة أخرى (٣) ولايتخلى الاديب عن ابراز اعتزازه وفخره بالقبلة التى يتجهاليها ، ولاينسى الرسالة التى يؤمن بها ، والغرض الذى يجاهد من أجله • يقول فى وحى القلم (٤)

---

(١) نفسه ص ٣٢ ، ٤١

(٢) نفسه ص ٣٦ . والكاتب المذكور هو الكاتب سلامة موسى انظر رد الدكتور مصطفى الشكعة عليه فى نفس المرجع .

(٣) مصطفى صادق الرافعى تحت راية القرآن الطبعة الاولى سنة ١٩٢٦ المطبعة الرحمانية ص ٤٨

(٤) مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم تحقيق محمد سعيد العريان الطبعة الثالثة ١٩٥١ مطبعة الاستقامة جـ ٣ ص ٣٠٠ وحياة الرافعى ص ٢٢٩

« والقبلة التي أتجه اليها في الادب، انما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب الا مايبقيها حية ، ويزيد في حياتها ، وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب كلهاالا نواحيها العليا . ثم يخيل الى دائما أننى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه فأنا دائما في موقف الجيش (تحت السلاح) له مايعانيه وما يحاوله ويفى به وما يتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها » .

« والعقيدة واللغة عند الرافعي توأمان لايفترقان ، وهو يرى أن الاعتداء على واحدة منهما اعتداء على الاخرى . وهو في ربطه بينهما حتى في مجال السياسة يقول (١) : « والذى أراه أن نهضة الشرق العربى لاتعتبر قائمة على أساس وطيد الا اذا نهض بها الركنان الخالدان الدين الاسلامى واللغة العربية . وماعداهما فعسى ألا تكون له قيمة في حكم الزمن ألذى لايقطع بحكمه على شيء الا بشاهدين من المبدأ والنهاية » . (٢)

والحق أن ما قاله الرافعى كان دفقة من دفقات الروح المتوهجة، وتوقدا من توقدات الذهن المبدع ، واشراقة من اشراقات النفس الصافية التواقة الى الكمال الاسمى والخير المطلق .

وكتابه تاريخ آداب العرب قدم الكثير لخدمة اللغة العربية ، ويذكر من تحدثوا عن حياته واستقصوا من أخباره الكثير أنه في عام ١٩٠٩ م كتب الرافعى مقالا في الجريدة ينعى فيه على الجامعة المصرية التى أنشئت عام١٩٠٧ بعض مناهجها في تدريس الادب وتاريخه ، فكان أن أعلنت الجامعة عن تأليف كتاب في تاريخ الادب ، وحددت مدة سبعة أشهر كما جعلت جائزة الكتاب الفائز مائة جنيه ، ثم قامت بمد الاجل الى سنتين ورفع الجائزة الى مائتى جنيه . وكتب الرافعى يسخر من

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم الطبعة الثالثة ج ٣ ص ٢٠٠

(٢) د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعى ص ١٤٤ وانظر محمد سعيد العريان حياة الرافعى ص ١٤٨

الجامعة ، ومن المدة المحددة ، والجائزة المتواضعة ، وكان يطمع فى أن يؤلف الكتاب ، ويعهد اليه بتدريسه (١) .. وقد انقطـــع الرافعي لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، الى آخر سنة ١٩١٠ ، وفى سنة ١٩١١ طبع الكتاب على نفقته قبل الاجل الذى حددته الجامعة ، ولذلك لم يتقدم اليها به قبل طبعه ترفعا عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصر منه بالمحكوم فيه (٢) .

والظروف التى أحاطت بهذا الكتاب تدل على أهميته ، ويذكر محمد سعيد العريان أن « مقالات الرافعي فى « الجريدة » ، وكتابه « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما الســـبب فى تدريس الآداب العربية وتاريخها فى الجامعة المصرية وهما السبب كذلك فى وضع ما وضع من الكتب فى هذا العلم » (٣) .

ويبدو أن ما فى الكتاب من صفاء وبهاء واحاطة حسنة بكثير من أمور اللغة وغيرها قد جلب الرأى المحمود والثناء المستطاب ، ورفع صاحبه مكانا عليا ودفع كثيرا من الباحثين والادباء الى الاشادة به وتقدير منزلته (٤) .

« وفى السنة التالية أصدر الرافعي الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب وموضوعه اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، وهو الذى أصدره من بعد فى طبعته الثانية باسم اعجاز القرآن ، وباسمه الثانى يعرفه قراء العربية » (٥) .

أما الجزء الثالث فقد مات الرافعي وفى مكتبته أصوله ، وتم طبعه سنة ١٩٤٠ ومما يجدر ذكره أن الجزء الاول يحتوى على بابين أولهما

---

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعي ص ٦٥ — ٦٦ و د : كمال نشأت مصطفى صادق الرافعي : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر مصر ١٩٦٨ ص ٦٧ و د : مصطفى الشكعة مصطفى صادق الرافعي ص ١٩ — ٢٠ .

(٢) محمد سعيد العريان حياة الرافعي ص ٦٧

(٣) نفسه ص ٦٧

(٤) نفسه ص ٦٨ — ٦٩ و د :مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعي ص ٥٤

(٥) محمد سعيد العريان : حياة الرافعي ص ٦٩ — ٧٠

كما ذكر الرافعى فى تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك • وثانيهما فى تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلـــك على الشعر واللغة •

وبحثنا يتناول ماكتبه الرافعى فى الجزء الاول من تاريخ آداب العرب تحت عنوان أسرار النظام اللغوى ، وهو فى رأينا دراسة هامة تعد خير الدراسات التى كتبها الاديب الكبير فى تاريخ آداب العرب ان لم تكن أفضلها على الاطلاق • وسنجلى أسباب ذلك فى دراســـتنا للأسرار ، وما تحمله من نظرية فرضت سيطرتها بصورة تعبر عن الترابط والشمول ، وتدل على نهج قوى فى الدرس اللغوى يشير الى السمو ، والحضارة ، والتعمق ••

لقد كتب الرافعى مؤلفاته وزاد بيانها الادبى والفكرى بأسلوب بليغ ، حى نابض بالحياة ، لم يستصعب عليه أعمق المعانى ،ولم يشمس على قلمه أدق حركات الفكر وأعمق خلجات النفس الانسانية •

ولسنا فى حاجة الى تفصيل الحديث عن آثاره الادبية فقد تولى ذلك من قبل الاستاذ محمد سعيد العريان (١) • وحسبنا ما قدمناه من اشارات لابد منها تعين على معرفة أسباب اهتمامه باللغة وأسرارها •

وفاته :

توفى فى ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ، وكان فى السابعة والخمسين من عمره ، وقد دفن جوار أبويه فى مقبرة الرافعى بطنطا وترك وراءه عشرة من أولاده (٢) ولم ينل ما يستحقه من الوفاء وواجب الذكرى •

---

(١) نفسه ص ٣٤٩ — ٣٥٣ ومن اهمها : ديوان الرافعى فى ثلاثة اجزاء وديوان النظرات ، وملكة الانشاء ، وتاريخ آداب العرب ، واعجاز القرآن ، وحديث القمر ، والمساكين ، ورسائل الاحزان ، والسحاب الاحمر ، والمعركة تحت راية القرآن ، وعلى السفود ، واوراق الورد ، ووحى القلم ، واسرار الاعجاز ، وديوان أغانى الشعب .

(٢) د : كمال نشأت مصطفى صادق الرافعى ص ٢٤

الفصل الأول

الرافعى وأصل اللغة وكمالها

مقــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وبعد :

كان يخيل الى مصطفى صادق الرافعى دائما أنه رسول لغوى بعث للدفاع عن القرآن ، ولغته ، وبيانه . وكان يؤمن أشد الايمان بتمدن العرب اللغوى ، ويزهو بمستواه فى ثقة واعتزاز • وقد وجدت أن ماكتبه فى تاريخ آداب العرب تحت عنوان « أسرار النظام اللغوى » لم يكن الا معبرا عن جهد كبير فى سبيل اثبات وتأكيد ما يؤمن به ، وابرازنسقه بنهج يسيطر على وجوهه.ويكشف ما يرمى اليه من سمو وجلال • ولكن هذا الجهد لم ينل من الباحثين ما يستحقه من البحث الجاد ، والدارسة الشاملة ، ولم يتعرض الذين كتبوا عن حياة الرافعى وتفكيره لبحثه فى أسرار النظام اللغوى على الرغم من تميزه وأهميته ، ولم يكشف أحد النظرية التى تمكنت من الهيمنة على تلك الاسرار ، ووجهتها الوجهة التى تريدها ، أو يتناول مابذله الرافعى فى تجلية ضروب نظامه ، وسيادة نظريته بالدراسة التى كنا نرجوها •

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الرافعى كان عالما فى العربية ، أمكنته اللغة من قيادها . وألقت اليه بأسرارها . وأن كتابه تاريخ آداب العرب من الكتب التى يعتمد عليها الدارسون . وأنه من الواجب أن تعطى أسرار النظام اللغوى كل مايستطاع حتى نعرف قدر الرجل ، وندرك أثره ، وننتصل بالحقائق اللغوية على هدى ورشــاد • وحين قمت بدراسة أسرار النظام اللغوى عند الرافعى استخلصــت الكثير مما ينبغى أن يعرفه الناس . وتبين لى ارتباط الاسرار بنظرية المناسبة، وقيام ضروب النظام اللغوى عليها بطريقة جعلت درسه مترابطا متميزا •

لايمكننا تجلية نظرية الرافعى التى اعتمد عليها فى ابراز أسرار تمدن النظام اللغوى الا اذا قمنا بتوضيح رأى هذا الباحث فى أمرين لهما أثر كبير فيما حققه وهما :

١ ــ أصل اللغة

٢ ــ كمال اللغة

الرافعى وأصل اللغة

يعرف البحث فى أصل اللغة ونشأتها اشتداد الجدل بين نظريتين شغلتا المفكرين ، والنظرية الاولى ترى أن الله عز وجل هو الذى أوحى الى البشر باللغة ، والنظرية الثانية تذهب الى أن اللغة من اصطلاح الناس وتواضعهم • وقد فسر اصطلاح الناس على اللغة بأوجه كثيرة مختلفة (١) •

ويرى الرافعى أن القول بأن اللغة وحى وتوقيف من الله فى الوضع أو فى الموضوع ــ يذهب الى أن الانسان كان محاطا بالسكوت المطلق (٢) ويقرر أن هذا القول انما هو من باب التقوى التاريخية لا أكثر « لان الانسان خلق مستعدا منفردا ، ليصير بعد ذلك عالماجتمعا، وليجرى فى كماله المقسوم له على سنة الله التى لم تتبدل ، ولن تجد لها تبديلا ، وهذه السنة هى أن المتغير لا يوجد كاملا بل لابد له من نشأة يمر فى أدوارها حتى يتحقق معنى التغير فيه » (٣) •

وأصل هذا المذهب فى رأيه كان مبالغة فى تصور الاستعداد الانسانى ، لانه الهام لامرية فيه ؛ أما أهله فهم منقسمون ، فمنهم من يقول بأن الانسان ألهم اللغة نفسها ، ومنهم من يقول بأنه ألهم أصول المواضعة •

---

(١) د : محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى . دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م ص ٥٥

(٢) مصطفى صادق الرافعى تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٤٦ طبعة دار الاخبار بمصر ١٩١١

(٣) المصدر السابق ص ٤٨ ــ ٤٩

والحقيقة عند الرافعى أن الانسان ملهم بفطرته أصول الحياة ، وليست اللغة بأكثر من أن تكون بعض أدواتها التى تعين عليها ، وهى فى كل أمة على مقدار ما تبلغ من الحياة الاجتماعية قوة وضعفا ، واذا كان من أصول الحياة الاجتماع فمن أصول الاجتماع اللغة ، وهذه من أصولها المواضعة ، فاللغة بنت الاجتماع (١) • ويحاول الباحث أن يفسر الطريق الذى سلكته اللغة ، فيؤكد أن اللغة كلها حكاية للطبيعة ، ويقرر أنه ان كان ثم توقيف أو وحى فانه يكون فى هداية العقول الى أسرار هذه الحكاية (٢) •

وواضح أن هذا يختلف عن وجه نظرية التوقيف ، فالتوقيف أو الوحى الذى يقصده الرافعى بالنسبة الى الحكاية انما يقتضيه أنه لابد « فى استكناه منطق الطبيعة من الذهن الشفاف ، والبصيرة النفاذة ، والالهام الخفى الذى يشبه أن يكون قبسا من النور الالهى ، يضىء بين العقل والقلب ، فلا يقع شعاعه على جهة من الطبيعة الا كشف منها عن معانى الاسرار الآلهية » (٣) •

ويتناول الرافعى الاصوات الحيوانية ، والاصوات الطبيعية الاخرى ، ويذكر أن اقرب ما يصح فى الظن مما لا يبعد أن يكون الوجه المتقبل — أن الاصوات الحيوانية هى المثال المحتذى فى لغة الانسان لانها محيطة به تتقلب على سمعه كلما سمع ، خصوصا والانسان فى أول اجتماعه مضطر لمغالبة الحيوان (٤) •• وأوائل الالفاظ « التى نطق بها الانسان ، وادارها على معان متنوعة ، هى ألفاظ الاحساس ، وما يصرح به عن الوجدان على الصور البسيطة التى لا يزال اكثرها ميراثا فى الجنس كله على تباين اللغات ، وهى التى تشبه فى تركيبها مقاطع الصوت الحيوانى ، اذ يكثر فيها الحرف الهاوى الذى هو أخف الحروف ، بل هو الصوت الطبيعى فى الحياة ، وهو حرف اللين بأنواعه الالف ، والواو ، والياء •

---

(١) مصطفى صادق الرافعى — تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٤٦ — ٤٩

(٢) المصدر السابق ص ١٧٤ — ١٧٥ وانظر ص ١٨١

(٣) المصدر السابق ص ١٧٥

(٤) المصدر السابق ص ص ٤٩

وماعدا هذا الحرف فقلما يكون فيها الا أحرف الحلق ، كالعين ، والغين ، والهاء ، والخاء ، لانها قريبة من الحنجرة ، وذلك فى الانسان نحو آه ، وأخ ، وأمثالهما من المقاطع الصوتية التى لا يزال الانسان يعبر بها عن أنواع من الاحساس الى اليوم • ولما أدرك الانســان حقيقة هذا الاستعمال ، وتقلب فيه ، واصطلحت عليه الجماعات منه ، فتق له استعداده للالهام أن يتأمل فى الاصوات الطبيعية الاخرى من قصف الرعد ، وانقضاض الصواعق ، وخرير الماء ، وهزيز الريح ، وحفيف الشجر ، واصطكاك الاجسام ، وما اليها من أصوات هذه اللغة الجامدة ، وهى ربما تبلغ المائة عدا ، فقلدها ، واهتدى بهــا الى مخارج حروف أخرى غير التى تتهيأ فى الاصوات الحيوانية ، فداربها لسانه ، وابتدأ يجمع بينها على طريق المحاكاة ، دالا بالصوت على محدثه • • • وهذه الحالة كانت بدء اختراع اللغة ، أى حين كانت حاجات الاجتماع قليلة ، لا تتجاوز الاشارة الى أمهات المعانى الطبيعية بالمقاطع الثنائية ، كأنهمال المطر ، وانفلاق الحجر ، وانكسار الشجر ، وأمثالها ، فلما بدأ الاجتماع يرتقى بنسبة أحوال الانسان يومئذ بدأ الاختراع الحقيقى فى اللغة ، وأمثل ما يظن فى ذلك أن الانسان جعــل يقلب المقاطع الثنائية التى عرفها على كل الوجوه التى تحدثها آلات الصوت ، فلما استتم صورها ارتجل المقاطع الثلاثية ، فدارت بهــا الحروف دورة جديدة ، وفشت ألفاظ أخرى غير التى عهدها ، وكان ذلك ابتداء تسلسل اللغة ، فتواضعوا على اعتبار المقطع الثنائى أصلا فى مدلوله ، كقط مثلا حكاية صوت القطع ، ثم جعلوا كل صورة تتحصل من زيادة حرف عليه فرعا من هذه الدلالة ثم استفاضوا فى الاستعمال على هذا التركيب بالقلب ، والابدال ، وبذلك اهتدى الانسان الى سر الوضع • • » (١)

واهتمام الرافعى بالالفاظ الطبيعية الاولى التى كانت من حاجة الانسان أول عهده بالتعبير كالقطع والكسر والهدم والشق والخرق • • دليل على أن الرجل قد اطمأن الى كون اللغة حكاية للطبيعة ، فهذه الالفاظ عنده هى المعانى الوحشية فى لغة الانسان ، ثم لما انقاد الوضع

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ — ٥١

بهذه الطريقة لاهل اللغة جعلوها من سنتهم : وقلبوا عليها الالفاظ الاخرى مما ليس بسبيل من تلك المعانى (١) .

وهو يدعم مذهبه بكل ما استطاع : ففى ضوء الطريقة التى فسر بها كيفية اهتداء الانسان الى سر الوضع . واستنادا الى ما حققه علماء طبقات الارض وغيرهم (٢) يذكر أن للغة ثلاثة عصور : هى عصر التوحش ، وهو الذى خـرجت فيه الاصوات الوجـدانية مصحوبة بالاشارات أولا ، ثم استقلت هذه أولا ؛ والعصر الحجرى وهو الذى ابتدأ فيه الانسان ينحت من المقاطع الحيوانية والطبيعية لغته الاولى. والعصر البرنزى الذى يدخل فيه شىء من الصناعة ، وهو العصر الذى اهتدى فيه الانسان الى الزيادة على المقاطع الثنائية ، وصنعة الالفاظ على هذا الوجه ، ثم انقادت له اللغة وتماسكت ، وذلك عصرها الحديدى الذى ابتدأ مع التاريخ (٣) .

ويعد الرافعى التغير حقيقة الاصطلاح والمواضعة ، ويرى أن الانسان « لما ارتجل المقاطع الثلاثية دل بها على معان محصورة فى حدود نظامه الاجتماعى ؛ ثم ضرب فى الكلام بمقدار ما يجد من أمره ، وما يتنبه اليه من حقائق الموجودات ، التى تكاشفه بنفسها ، وما يقتضيه التبسط فى مناحى المجتمعات شيئا فشيئا ، وذلك على طريقة تكرار الالفاظ ، وتنويعها للمعانى المختلفة بدلالة القرينة » (٤) .

وعنده أن اللغة فى طورها الصناعى الذى يحققه الارتقـــاء ، والوصول الى أعلى سلم الاجتماع الطبيعى — تجرى عليها أحكام الاشتقاق ، والنحت ، والقلب ، والابدال ، ويفعل الزمن فعله فيها كما يفعل فى تكوين الجماعات ؛ وبذلك تتنوع وتنشأ منها اللغـات الكثـيرة (٥) .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٠
(٢) المصدر نفسه ص ٥١ — ٥٢
(٣) المصدر نفسه ص ٥٢
(٤) المصدر نفسه ص ٥٤
(٥) المصدر نفسه ص ٥٥

واللغة لدى هذا الباحث بنت الاجتماع ، تلقى لدلالة خاصة يعينها الاصطلاح العرفى بين المتكلم والسامع ، وهذا الاصطلاح عمل اجتماعى محض (١) •

أما اختلاف اللغات فهو عمل صناعى تكيفه حالة الاجتماع كما تكيف سائر الاحوال من العادات وأمثالها ، ولهذا كانت حقيقة معنى اللغة أنها مجموع العادات الخاصة بطائفة من طوائف الاجتماع (٢) •

موقف الرافعى ورأى البحث اللغوى

وماقاله الرافعى يستحق التحقيق ، لانه أساس نظريته فى أسرار النظام اللغوى ، ولابد ان نضعه أمام بحوث علم اللغة ، لنحاول الوصول الى ما نرجوه ••

ويبدو أنه وجد فى نظرية المحاكاة أو التقليد الصوتى من الوجاهة والمناسبة ما جعله يطمئن اليها ويؤكدها فى عدد من المواضع (٣) •

وفى رأيى أنه تأثر بما ذكره ابن جنى فى حديثه عن تلك النظرية معزوا لبعضهم • يقول فى الخصائص (٤) : « وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوى الريح ، وحنين الرعد وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك • ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد • وهذا عندى وجه صالح ، ومذهب متقبل » •

وابن جنى يقرر أنه يجوز فى القول على اللغة أن تكون مواضعة ، كما يجوز أن تكون الهاما ، فالامران جائزان فى رأى هذا العالم ، لانه

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٥

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ — ٥٦

(٣) المصدر نفسه ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨١

(٤) جـ ١ ص ٤٦ — ٤٧

يقول (١) : « قد تقدم فى أول الكتاب القول على اللغة أتواضع هى أم الهام ، وحكينا وجوزنا فيها الامرين » • وهذا يدل على أنه قرر الوقف ، وعدم الجزم بأحد الامرين اخيرا ، والفرق كبير بين ما انتهى اليه ، وما قرره الرافعى ، وان ذكرنا أنه تأثر بقول صاحب الخصائص الذى نقلناه ، والذى بين أن اللغة فى مذهب بعضهم تقليد للاصوات •

ولقد سبق المرحوم جورجى زيدان الرافعى فى الاهتمام الكبير بنظرية المحاكاة والفلسفة اللغوية ، فكتابه الفلسفة اللغوية صدر فى بيروت سنة ١٨٨٦م وفيه شرح لمذهب المحاكاة يعبر عن الايمان الشديد بها ، فهو يقرر أن « لغتنا مؤلفة أصلا من اصول محصورة عدا أحادية المقطع معظمها مأخوذ عن محاكاة الاصوات الخارجية ، وبعضها عن الاصوات الطبيعية التى ينطق بها الانسان غريزيا » (٢) • ويرى أن الالفاظ المتقاربة لفظا ومعنى هى تنوعات لفظ واحد •• والتنوعات قد حصلت بموجب ناموسين عظيمى الاعتبار هما القلب والابدال (٣) • أما الالفاظ المانعة الدالة على معنى فى نفسها فيرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية احادية المقطع تحاكى أصواتا طبيعية (٤) • والتقليد هو أساس اللغة ، وأصل نشأتها ومدار ارتقائها (٥) • والكلام فى تاريخ اللغة يقسم الى دورين (١) الدور التقليدى (٢) الدور النطقى (٦) •

ويحاول زيدان بكل ما استطاع أن يدعم نظرية المحاكاة فيقول : (٧) « وقد يعسر التسليم بنشوء اللغة عن الاصوات الطبيعية وحدها لانها لاتكاد تذكر بالنسبة الى ألفاظ اللغة واشتقاقاتها وأنواع تعبيرها مما يعد بمئات الالوف على حين أن الاصوات الطبيعية لاتكاد تزيد على المائة والجواب أن ذلك طبيعى •• يتناول سائر الاجسام الحية وما يتعلق بها فكلها تنمو وترتقى وتتنوع وتتكاثر جريا على ناموس

---

(١) الخصائص ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) جورجى زيدان : الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية — الطبعة الثانية مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٤م ص ١٩

(٣) نفسه ص ٢٠

(٤) نفسه ص ٥٤

(٥) نفسه ص ٧٨

(٦) نفسه ص ٧٨ وانظر التفصيل ص ٧٨ — ٨٥ وما بعدها

(٧) نفسه ص ٨٤

الارتقاء العام •• » ويؤكد هذا الباحث أن اللغة الطبيعية تنوعت تبعا لاحتياجات الانسان بوسائل النمو المختلفة (١) ويشير الى أحوال اللغات ، منتهيا الى أن جملة القول « أن من الامور الراجحة قياسا ، والجلية استقراء أن لغتنا مؤلفة أصلا من أصول قليلة أحادية المقطع ثنائية الاحرف فى الاغلب ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الاصوات الخارجية وبعضها عن المقاطع الطبيعية التى ينطق بها الانسان غريزيا ، وأنه من هذه الاصول القليلة قد نشأت وارتقت بارتقاء أفكار المتكلمين بها ، وتعددت ألفاظها بتعدد احتياجاتهم » (٢) •

وفى كلام الرافعى ما يدل على أنه استفاد مما ذكره جورجى زيدان بعض الامور مثل التنوع بالنحت والابدال والقلب تبعا لاحتياجات الانسان (٣) والامثلة التى ذكرت عن أهل استراليا وغيرهم (٤) والدلالة الحسية والدلالة المعنوية (٥) • ولا نستبعد أن يكون الرجلان قد اطلعا على ما كان متداولا بين علماء الغرب فى زمنهما عن طبيعة اللغة ووظيفتها ، واستفادا الكثير مما كتبه المستشرقون عن اللغة العربية ؛ وان كان لبعض علمائنا القدماء فضل كبير فى ابراز النظريات (٦) بصورة تدل على السبق وسعة الافق وأيا ما كان الامر فان بعض الباحثين يرى أنه يمكن الاعتماد على نظرية المحاكاة فى فهم الطريقة التى يمكن أن يكون الانسان قد اتبعها فى مبدأ الامر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، وهى التى يصح أن تعتبرها ادنى نظريات البحث فى نشأة اللغة الى الصحة ، وأقربها الى المنطق السليم ، وسنة النشوء والارتقاء فى نشأة اللغات (٧) •

---

(١) نفسه ص ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤

(٢) نفسه ص ٩٧ — ٩٨

(٣) انظر الفلسفة اللغوية ص ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤ وتاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٥١ ، ٥٥

(٤) انظر الفلسفة اللغوية ص ٨٥ وتاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٥٢ — ٥٤

(٥) انظر الفلسفة اللغوية ص ٧٥ وتاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٥٤

(٦) انظر الخصائص لابن جنى جـ ٢ ص ١٣٣ وما بعدها وص ١٤٥ وما بعدها و ص ١٥٧ وما بعدها .

(٧) د. على عبد الواحد وافى : علم اللغة — الطبعة الثانية — نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٤م ص ٧٨

ولا ريب عندي في أن ما أتت به هذه النظرية من المناسبة بين الالفاظ والمعاني — قد استحوذ على الرافعي • ومن المعروف أن نظرية المحاكاة انما هي فرض في كيفية نشأة اللغة في رأي اصحاب الاصطلاح ، ولكن الرافعي جعلها تهيمن على الدرس اللغوي ، ومدها الى جوانبه بمستوى انفرد به ، ومنهج عبر عن تعمقه ، واجتهاده في تجلية أسرار اللغة •

ومن غير شك أنه لاحظ أنه من العسير ان تكون المشابهة تامة في المحاكاة وأن جعل اللغة تخضع للمستويات التي وجدها وارتضاها — يدعم نظرية المناسبة ، ويدفعها الى ابراز صور التمدن •

ويمكننا أن تدرك أنه لم يقبل ما ذهب اليه بعضهم من أنه يبدو سخيفا أن يكون الترتيب التاريخي لنشأة الكلمات هو أن تبدأ عن طريق الحيوان الادنى أو غيره • •

ثم يأتي بعده الانسان فيضع لغته عن طريق تقليده (١) له ، لانه ذهب الى أنه لا يبعد أن يكون الوجه المتقبل أن الاصوات الحيوانية هي المثال المحتذى في لغة الانسان • • ولعله قد فطن الى أن تقليد الانسان للحيوان لا يضيره في شيء ، فلا يستطيع أحد ان ينكر صورة التقليد في قصة ابني آدم • قال تعالى : « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه كيف يوارى سوأة أخيهفأصبح من النادمين (٢) » •

وأمر التقليد للطير في محاولة الانسان التطور والرقي بالطيران واضح لا يحتاج الى بيان •

وموقف الرافعي يدل على أنه لم يقبل الاعتراض على نظرية المحاكاة بأن اطلاق الاصوات التي لا معنى لها الخاصة ببعض المخلوقات على المخلوقات ، او حركة أصواتها ، أو نتيجة الصوت — يجعل الصوت

---

(١) د • ابراهيم انيس دلالة الالفاظ نشر مكتبة الانجلو — الطبعة الثانية ١٩٦٣ م • ص ٢١ — ٢٢

(٢) المائدة الآية ٣١

الذى لا معنى له فى نشأته ، له معنى حقيقى فى فم المقلد ، وفى عقل من يسمعه • • ولعله تأمل فى لغة الاطفال الصغار ، وتبين له أن لهم طريقة فى خلق كلمات لم تسمع قط من قبل ، وادرك ربطهم بعض المعانى بمجموعة من الاصوات التى لا معنى لها فى الاصل ، ثم انتقل بالاصوات المبهمة بفضل الميزة التى حبا الله بها الانسان دون سائر الحيوانات ، فأصبحت تلك الاصوات دالة على معنى ، هو مصدر الصوت أو ما يتصل به • • يقول الاديب الباحث (١) « منذ خلق الانسان خلقت الاصوات وهى مادة اللغة ، ولكن الطفولة الفردية تدلنا على أن الطفل يبتدىء من أبسط درجات النطق الطبيعى الذى هو محض أصوات مصبوغة بصبغة من الشعور تكون هى حقيقة الدلالة المعنوية فيها فيكون كأنما يلهم المنطق بهذه الاصوات التى هى لغة روحه ثم يدرك معانى تلك الدلالة ، ويميز بين وجوهها المختلفة،ثم ينتهى الى الفهم فيقلدمن حوله فى طريقة البيان عنها بالالفاظ متوسعا فى ذلك على حسب ما يتسع له من معانى الحياة الى أن تنقاد له اللغة التى يحكيها ، ولولا التقليد الذى فطر عليه ما بلغ من ذلك شيئا » •

ويرى بعض الباحثين انه يجب ان يكون فى الحسبان مراعاة عدم وضوح الصوت المحكى ، وأن ما يدرك يختلف فيعبر كل واحد بمقطع أو صوت يحكى ما أدرك فيكون الاختلاف • • والاسماع لا يمكن أن تتفق تمام الاتفاق ، وكذا أدوات الحكى ليست عند الناس سواء ، أما الاجواء المختلفة فلها دخل كبير فى وضوح الصوت أو عدم وضوحه ، والحاكى قد يكون بلسانه بعض عجز كالسمع تماما ، وأسماع الحاكين فى القديم تختلف عن اسماعنا • وكل هذه المباينات تقتضى المباينة فى المسموع ، ومن هنا قد تأتى بعض اسباب اختلاف اللغات فى المسمى الواحد • ولا يجب أن نهمل أن الالفاظ دخلها أنواع من التغيير تعاقبت عليها فى صورها ومعانيها ، وصارت علامات للاشياء أو الصفات من غير مراعاة المناسبة الصوتية (٢) •

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٤٦

(٢) عبد الله العزازى : فقه اللغة ــ نشر الجامعة الاسلامية ــ ليبيا ص ٣١ ــ ٣٢

وعندما نتناول نظرية المناسبة ، والآراء التى تعرضت لها سندرك أن الرافعي أسرف فى جعل اللغة كلها حكاية للطبيعة ؛ وان كان له فى ذلك اتساع مبنى على القياس ، وامتداد يستفيد من مستويات المحاكاة ويجعلها ضروبا من القدرة ، وألوانا من التطور ، ووجوها من الفقه فى الدرس اللغوى تفسرها وتقودها • وجهده فى تفسير مذهبه ومساندته بكل ما استطاع قرب تصور نشأة اللغة ؛ وجعل نظرية المحاكاة أدنى الى طابع اللغويات بصورة تشهد بفضله وبراعته فى هذا المجال • يقول الرجل (١) « وأقرب ما يصح فى الظن مما لايبعد أن يكون الوجه المتقبل ، وان كان الظن لايغنى من الحق شيئا أن الاصوات الحيوية هى المثال المحتذى فى لغة الانسان » ••

والحق أنه وان لم يقدم دليلا يقينيا ؛ فانه لم يلجأ الى الغموض والابهام الذى وجدناه فى بعض النظريات الاخرى (٢) ولم يسلك مسلك غيره فى الاسراف فى الافتراضات (٣) . ولم يعبأ بالمشكلات والاختلافات التى دعت بعض العلماء الى الانصراف عن البحث فى نشأة اللغة (٤) بل أراد أن يوجه الناس الى ما حققه اجتهاده . وأن يرشدهم الى رفض منطق الاستسلام وان اعترف بأن الفائدة التى تحققت كانت ظنية •• انه بدأ بحثه فى أصل اللغات بتأكيد أن اللغة بنت الاجتماع ؛ ثم ذكر أنه اذا كان أصول الحياة الاجتماع فمن أصول الاجتماع اللغة ؛ والذى يذهب اليه العلم حديثا « هو أن اللغة ظاهرة اجتماعية كسائر الظواهر الاجتماعية ؛ ومعنى هذا أنها من صنع المجتمع الانسانى ، ولايعرف مجتمع انسانى منذ أقدم عصر سجله التاريخ بلا لغة ناضجة التكوين » (٥) •

وهذا يؤيد ما قاله صاحب تاريخ آداب العرب فى أمر اللغة والاجتماع ، وكرره ، ليوجهنا الى أنه هو الذى يعول عليه فى هذا الشأن •

---

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٤٩

(٢) انظر دلالة الالفاظ : د. ابراهيم انيس ص ٢٥ وعلم اللغة : د. على عبد الواحد وافى ص ٧٤ — ٧٧

(٣) انظر عبد الله العزازى : فقه اللغة ص ٢٨ — ٢٩

(٤) انظر السيوطى : المزهر ج ١ ص ٢٦

(٥) د. محمود السعران — علم اللغة مقدمة للقارىء العر[illegible] ص ٥٥

ولامرية فى أن ما صنعه فى الاستفادة من بحوث علماء طبقات الارض ، وما سجله المؤرخون ، وما فعله فى دراساته لعناصر وظواهر من لغات الشعوب المنحطة فى بعض القارات ، وحرصه على مراعاة ملاحظات من أحصوا الاصول الطبيعية الثابتة للمعانى المتفرعة (١) — برهان على أنه بذل الكثير لينفع الدارسين •

واذا ذكروا أنهم يطمئنون الى الطريقة الاستنباطية التى تقوم على الملاحظة والتجارب ، وتأخذ بالاسس العلمية الواضحة ، وتهتم بهذه الامور :

١ — دراسة مراحل نمو اللغة عند الاطفال •
٢ — دراسة اللغة فى الامم البدائية •
٣ — دراسة تاريخية للتطور اللغوى (٢) •

— فنحن نذكر ان نسق الرافعى قدم اشارات هامة ، وبحثه أعطى توجيهات لها قيمتها •• وعند الموازنة نجد بعض الجوانب التى ترفع منزلته وتشهد بأنه لم يكن يغفل عن أهمية دراسة اللغة فى الامم ابدائية ، وعن ضرورة الانتباه الى التطور اللغوى ، ولن ننسى له قوله: « اللغة تابعة لاحوال الاجتماع فى البسط والقبض ، وما يتقلب عليه ، ويحدث فيه بحيث لاتخرج عن أن تكون مرآة تظهره كما هو فى نفسه مهما تنوعت أشكاله ، واختلفت أزياؤه » (٣) ، فما قاله لايختلف عما أثبته البحث الحديث وهو أن اللغة « أداة اجتماعية يوجدها المجتمع للرمز الى عناصر معيشته وطرق سلوكه ، ولذا يحدد طرق هذه اللغة واستعمالاتها ويضعها موضع الظاهرة الاجتماعية فيصدق عليها مايصدق على كل ظاهرة اجتماعية أخرى من الخضوع لظروف التعارف وللتصويب والتخطئة بحسب هذا التعارف » (٤) •

---

(١) مصطفى صادق الرافعى — تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٥١ — ٥٥

(٢) د. ابراهيم انيس — دلالة الالفاظ ص ٢٧ — ٣٥

(٣) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٥٣

(٤) د. تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها : الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٧٩ ص ٢٨

٢ ــ الرافعي وكمال اللغة

تدعونا نظرية الرافعي التى توجه درسه اللغوى الى الحديث عن كمال اللغة عنده ، فمسألة الكمال تفسر كثيرا من الوجوه ، وتسود الدرس •

ومن الحق أن نقول ان الاديب اسرف فى تعظيم اللغة ، وبلغ فى ذلك مستوى لم يبلغه الذين عرفوا بالمبالغة فى ذلك (١)

ويبدو أن ما وجده فى عصره من بعض مظاهر الاستهانة والسخرية ثم ما لاحظه من محاولة فرض ما ليس من العربية فى شىء ، تمهيدا لاشاعة الزيغ ، وبث الانحراف ــ قد دفعه الى الافراط فى صورة التعظيم التى لم يصل اليها أحد ممن عاصروه أو جاءوا بعده ، ولا غرابة فى ذلك ، فانه كان يشعر بأنه رسول لغوى ، يريد ان « ينفخ فى هذه اللغة روحا من روحه ، يردها الى مكانتها ويرد عنها ، فلا يجترىء عليها مجترىء ، ولاينال منها نائل ، ولا يتندر بها ساخر ، الا أنبرى له يبدد أوهامه ، ويكشف عن دخيلته » (٢) •

ومن الواضح ان اسرافه جعلها قريبة من الاعجاز ، عجيبة ، وجعله عندما تحدث عن العمل الهام الذى كان له شأنه الكبير فى تهذيب اللغة ــ العمل الذى تم على يد قريش ــ يهمل أمر الحقائق اللغوية الموضوعية ، وما يحتمه الدرس من الدقة والتحديد • • ان الحقائق المذكورة تتطلب تفسير الاوضاع الخاصة وتجلية الشواهد ، وبيان الاختلاف ، وكشف التغيير كشفا علميا ينفع الدرس ، ويفيد البحث ، ولكن منهج الاسراف يجعل تهذيب قريش من باب الاحداث الكونية ، والخوارق الطبيعية ، ويشيد بأدواره المدهشة • • دون ان يوضح القوانين ، أو يحقق جملة التهذيب وقضاياه •

---

(١) انظر ابن فارس : الصاحبى طبعة ١٩١٠ م المكتبة السلفية ص ١٢ ــ ١٦ ، ٢٣ وابن جنى الخصائص جـ ١ ص ٤٧ ود : ابراهيم السامرائى : فقه اللغة المقارن : دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨ ص ١٧٤

(٢) محمد سعيد العريان : حياة الرافعى ص ٧١

وهذا يدفع الدارسين الى الدهشة والحيرة ، ويؤدى الى اشياء من الادعاء والتزيد ، والتمسك بأشياء واهية لا يعول عليها فى علم اللغة • وليس من النهج الدقيق — النهج الكامل الصحة — أن تؤكد المبالغة أن لقريش الفضل فى تحقيق كل معانى الحياة اللغوية فى تعاقب كالسلم المدرجة تنتهى الدرجة الى درجة ، على نمط متساوق من الرقى ، ان لم يكن عجيبا فى تاريخ أمة متحضرة ، فهو عجيب على الخصوص فى تاريخ العرب • • والرجل لا يؤمن بأن خصائص لهجة قريش ليست هى الغالبة على غيرها ، وينسى دور تميم وغيرها (١) •

ويسوق كلامه فى ابهام وغموض ، ولا يبين وجه هذا التعاقب أو سر النمط المتساوق ، ويحرص على التشبث بالافراط فى نسق المثالية الشامل • • فها هو ذا يقول (٢) « وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات ، مختلفة الاقيسة المنطقية المودعة فى غرائزها ، فكان قريش يسمعون لغاتهم ، ويأخذون ما استحسنوه منها ، فيديرون به ألسنتهم ، ويجرون على قياسه ، ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه ، ولكن نوع الحضارة الذى اكتسبوه من تاريخهم ألان طباعهم وكسر من صلابتهم ، فاتفقت فى ذلك حياتهم اللغوية ، وحياتهم الاجتماعية • • فلما اجتمع لهم هذا الامر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها ، وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ، وقويت سلائقهم ، وحتى صاروا فى آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها ابانة عما فى النفس • • » •

وبعد الحديث عن رحلاتهم وسماعهم وتدبرهم وصنيعهم بألفاظ الامم • • يقول : (٣) « وعلى ذلك صاروا بطبيعة أرضهم فى وسط العرب كأنهم مجمع لغوى يحوط اللغة ، ويقوم عليها ، ويشد أزرها ، ويرفع من شأنها ، ويزيد فى ثروتها ، وبالجملة يحقق فيها كل معانى الحياة اللغوية ولايسع المتأمل فى الادوار التى تعاقبت على قريش فى تهذيبها

---

(١) انظر د • عبده الراجحى : اللهجات العربية فى القراءات القرآنية دار المعارف ١٩٦٨ ص ٤٩

(٢) الرافعى تاريخ آداب العرب ص ٨٢ — ٨٣

(٣) نفس المصدر ص ٨٣ — ٨٤

اللغة الا ان يستسلم للدهشة ، ويحار من أمر هذا التعاقب ، فانه كالسلم المدرجة تنتهى الدرجة منها الى درجة ، على نمط متساوق من الرقى ، ان لم يكن عجيبا فى تاريخ أمة متحضرة فهو عجيب على الخصوص فى تاريخ العرب ، ولا سيما اذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة ، وأنها لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة الى مائة وخمسين على الاكثر فلابد من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعى ظهرت نتيجتها بعد ذلك فى نزول القرآن الكريم بلغة قريش » •

وعندما تحدث ابن فارس فى كتابه الصاحبى فى باب القول فى أفصح العرب (١) ؛ ذكر أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وبين فضلها وعملها فى التهذيب ، وخلوها من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ ، ولكنه لم يذهب الى الخوارق والادوار المدهشة،وهو الذى يقول ان لغة العرب توقيف ، ويتعصب فى تأكيد ذلك كل التعصب ، ويقرر أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها ، وسائر اللغات قاصرة عن اللسان العربى ، وواقعة دونه • ثم يذكر ان المتكلم بغير العربية اذا أعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده ، فان ذلك يعد أحسن مراتب البيان ، وأن من الغلط أن تبين سائر اللغات ابانة اللغة العربية ، ويدعى أن سائر الامم لاتملك براعة الكلام ، ولاتعرف الايماء اللطيف ، والاشارة الدالة كالعرب ، ويذهب الى أن هذه الامم لا يمكن أن تعبر عن الاقوال • • لان ذلك يعرفه العرب وحدهم (٢) •

وهذا تفكير ينأى عن قوانين اللغات ، ويرى أنها ليست من باب الاجتماع اللغوى ؛ فهى الاعلى والارفع ، و لايمكن ان تضاهى أو تقابل أو يعارض بها كلام •

والبون شاسع بين الرجلين ، لان مسألة الخوارق والاحداث الكونية تحسم الامر ؛ وتدل على أن صاحب تاريخ آداب العرب ، أسرف كثيرا • • انه آثر الاستسلام للدهشة والحيرة ، ومستويات المنهج العلمى لا ترضى عن ذلك ، ولا تحب أن يكون الدرس اللغوى

---

(١) ص ٢٣

(٢) ابن فارس — الصاحبى — ص ١٢ — ١٦

دعوى الى تقديس العجيب ، والخضوع لما يفرضه من غموض وخفاء •• ويشير بعض من ترجموا له الى انه كان ولوعا بأن يضيف الى كل شيء شيئا من عنده ، وتلك كانت طبيعته (١) •• وأرى أن مجال الحقائق اللغوية تكره الشطط والنأى عن الحق ، والتسليم بالخوارق والحوادث الكونية فى أمر اللغة •

واللغة من النظم الآدمية التجمعية ، ليست صناعة أفراد بعينهم ومعنى هذا انها لا تقوم على ما ذكره من الخوارق ، وانما شأنها شأن الظواهر الاجتماعية ، تلك التى تحقق فيها خصائص مطردة لا تتخلف ، وطبائع مشتركة لاتشذ عنها أى واحدة من تلك الظواهر الجماعية ، والنظم الاجتماعية •

واللغة من النظم الآدمية التجمعية ، ليست صناعة أفراد بعينهم ولا عمل جيل بذاته ، ولا يستطيع قوم مجتمعون أن يقدموا من امرها شيئا أو يؤخروه • • فلا هم يتدخلون تدخلا اراديا فى وجودها ، ولا هم يسهمون فى تنظيمها ، ولا هم يختطون طريقها •• ولن يغيروا ابدا من واقع تحتمه القوانين الاجتماعية الثابتة المطردة • (٢)

« ان سنن الحياة وفيها حياة اللغة — حقائق لا طفرة فيها ، ولا خوارق •• وليس يصح حكم على شيء فيها الا بعد بحث ، وبحث يتعرف القوانين ، ويتبين النواميس • • وقد عرف الكثير من حياة الكائنات الاخرى » (٣) •

ان دعوة الاستسلام هذه لا يمكن قبولها ، فالامر أمر دراسة التطور ، تطور اللاغى نفسه ، وتطور اللغة ، ودراسة أثر البيئة الطبيعية المادية التى تعيش فيها اللغة ، ودراسة الظروف النفسية العاطفية والعقلية لمتكلمى اللغة ، ومعرفة أنماط الحياة التى يحياها متكلمو اللغة ، وادراك اثر التوارث ، وفعل الصراع ، وما تثبته المقارنات

---

(١) محمد سعيد العريان — حياة الرافعى ص ١٣٠

(٢) أمين الخولى — مشكلات حياتنا اللغوية ص ٤٣ — ٤٤ وانظر اللغة والمجتمع لعلى عبد الواحد وافى ص ٩١ طبعة الحلبى

(٣) نفس المرجع ص ٦٠

والمقابلات اللغوية (١) ، ثم استخدام أرقى ما وصل اليه التحقيق ..

وكيف يطلب الاستسلام ، وهو يكتفى بأن لغة قريش ارتفعت عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها . . وأنهم اجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ ، واسهلها ، واحسنها ، وابينها ، مما لا يعطى الصورة الدقيقة لفهم التهذيب ومداه ، فهناك حقائق متفرقة فى انحاء شتى لا يصح البحث الا بارتيادها كلها ، والاكتفاء بجانب منها . . لا يفى بحق البحث ولا تكون نتائجه كاملة الصحة .

واللغة عند الرافعى عجيبة « يزيد فى العجب منها أنها لغة تلك العقول الفطرية ، والفطرة وان كانت دائما تختص بمسحة آلهية ، الا أنها أصل الكمال فى النفس لا نفس الكمال » (٢) .

ويدفعه الاسراف الى اعطاء اللغة اعتبارات لا ريب فى بعدها عن النسق المفروض فى تناولها ودراستها ، ان هذه الاعتبارات تفيض بالمستوى الاسمى ، والقضاء بأنها العامل الاجتماعى الاوحد فى نهضة العرب الاسلامية ، والحكم بأنها هى سبب انتظام امر العرب ، فهو يقرر أن اللغة وصلت مستوى انتهى الى الكمال ،وامتازت بالاحكام على سنن فيها المعنى الالهى ، الذى لا دليل عليه الا شعور النفس ، والنفس هى البقية السماوية فى الانسان . ويذكر أن تلك السنن « خرجت بها اللغة كأنها عقل حتى تتلامح فى جهات الحكمة خطراته ، وتتراسل من أعين الوحى نظراته ، بل كأنها معنى آلهى مبتكر ، ألقى فى هذه الطبيعة ، فيتحول به وجه العالم الى جهة الله ، فمازال يتكشف من أطرافه شيئا فشيئا حتى ظهر ابتداعه فى القرآن الكريم ، فاتضح عن روعة تملك على الانسان مذاهب حسه ، وتنساب فى قلبه ، لتتصل بالروح الآلهى من نفسه (٣) .

ويؤكد الكاتب أن العرب قوم رحل ، وقد اختلطوا بأمم كثيرة فلابد أن يكون هذا الاختلاط بينا فى تكوين لغتهم ، وتلك سنة عامة فى

---

(١) نفس المرجع ص ٦١ — ٦٢
(٢) مصطفى صادق الرافعى — تاريخ آداب العرب ص ١٧٤
(٣) الرافعى — تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢١٣

اللغات (١) تضع بعض هذا الى جوار بعض ، فتجد البعد شاسعا بين الاتجاهين • وهو يشير بذلك الى انفراد العربية بما يعزلها عن لغات الدنيا ، ويرفعها عن سنن الكون اللغوية ، ونواميس الحياة اللسانية — فالامر عنده أمر الانفراد الحيوى ، والخوارق الطبيعية ••

ويزداد الغلو والشطط عندما يرى أنه تبعت الحياة اللغة ، ولم تتبع اللغة الحياة ، وكل فضل فى الرقى والاستقامة يرجع اليها وحدها • ثم يصل الامر الى الاعجاز فيقول (٢) : « •• وهذه اللغة يوشك أن يكون أمرها معجزا على ما رأيت ، بحيث لا يغلو فى رأينا من يقول انها بسبيل من الاوضاع الالهية فى التوفيق والالهام ، لان أثر ذلك قد ظهر فى القرآن » ، كما يقول (٣) : « •• ويندر أن تجد ذلك كله — طرق الوضع — فى لغة من اللغات على مقدار ما تجده فى العربية ، فلا جرم كانت حرية بأن تكون مناط الاعجاز ، لانها الخلقة اللغـوية الكاملة » •

ومن الغريب انه يعترف بأن كثيرا من اسرار الوضع لم يكتشف ، وأنها تحتاج الى من يتتبع ألفاظها ، ويتدبر وجوه اشتقاقها ، ويتفقد مواقع كلام العرب ، ورتب صيغها واوزانها على ما تقتضيه اغراضها ، بحيث يستقر كل مثال منها فى نصابه ، ويرد الى حيزه ، لينتهى الامر بعلم يكشف عن كثير من أسرار الوضع (٤) • ويبدو أن نظرته العاطفية التى ترى فى اللغة مالا يراه غيره ، من جلال الاعتبارات الدينية ، وسمو المعانى الالهية — لم تقدر ما يقتضيه قوله بأن التوقيف فى اللغـة انما هو من باب التقوى التاريخية لا اكثر • • وقوله بأن اللغة بنت الاجتماع ، والعرب قوم رحل قد اختلطوا بأمم كثيرة ، فلابد أن يكون هذا الاختلاط بينا فى تكوين لغتهم ، وتلك سنة عامة فى اللغات ، فتلك الآراء تخالف ما ذكره من أمر الاعجاز • • وما جاء به نتيجة الغلو والاسراف ، ولو راعى الرافعى ما ذكره بالنسبة للتوقيف ، وما قرره من أن اللغة بنت الاجتماع — لما اندفع الى مسألة الاعجاز والخـوارق

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٩
(٢) المصدر ذاته ص ١٧٤
(٣) المصدر ذاته ص ١٦٧ — ١٦٨
(٤) المصدر ذاته ١٧٤

والاحداث ، ومن شأن الباحث أن يلتزم بمستوى ما قاله ، ويحرص على عدم الخروج على النسق الذى ارتضاه بشىء له تأثيره فى جلب التناقض أو احداث التباين والتردد والاختلاف .

« واللغوى الحديث لا يحاول تفضيل لغة على أخرى ، بل يعجب بكل لغة ، ولا ينظر الى ما اتصفت به الا على أنه خصائص لهذه اللغة عليه أن يدرسها ، وأن يبحث عن سرها » (١) وأعتقد أن نظرية المناسبة التى تسيطر على درسه فى اسرار تمدن النظام اللغوى هى التى جعلته يتمسك بأن العربية فريدة ، ترفعها هذه النظرية عن السنن اللغوية ، ونواميس الحياة اللسانية ، حيث رأى فيها أمورا قادته الى تمجيد خوارقها ، وميزاتها ، وطرازها العجيب لديه ، فهى شىء آخر فى كمالها وفضلها . ولعله قرأ ما قاله ابن فارس وابن جنى وغيرهما من الذين يسرفون فى تعظيم هذه اللغة ، ووجد أنه لا يفى بحق العربية فى التعظيم على الرغم مما وصل اليه فى اغداق نعوت الجلال والحكمة ، وقد أشرنا الى موقف من مواقف ابن فارس فى تعظيمها ، ونأتى هنا ببعض مما قاله ابن جنى لان الرافعى تأثر به ، وعول عليه فى كثير مما جاء به فى اسرار النظام اللغوى .

يقول هذا العالم فى باب فى أن العرب قد أرادت من العلل والاغراض ما نسبناه اليها ، وحملناه عليها (٢) : « . . لان الله سبحانه انما هداهم لذلك ووقفهم عليه ، لان فى طباعهم قبولا له ، وانطواء على صحة الوضع فيه ، لانهم مع ما قدمناه من ذكر كونهم عليه فى أول الكتاب من لطف الحس وصفائه ، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه ، لم يؤتوا هذه اللغة الشريفة المنقادة الكريمة ، الا ونفوسهم قابلة لها ، محسة لقوة الصنعة فيها ، معترفة بقدر النعمة عليهم بما وهب لهم منها .. » ويقول فى نفس الباب (٣) : « هذا كله ، وما أكنى عنه من مثله — تحاميا للاطالة به — ان كانت هذه اللغة شيئا خوطبوا به واخذوا باستعماله . وان كانت شيئا اصطلحوا عليه ، وترافدوا

(١) د : ابراهيم انيس دلالة الالفاظ ص ٢١١ وانظر : د : تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٩٣

(٢) ابن جنى الخصائص جـ ١ ص ٢٣٨ — ٢٣٩

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٤ — ٢٤٥

بخواطرهم ومواد حكمهم على عمله وترتيبه ، وقسمة انحائه ، وتقديمهم اصوله ، واتباعهم اياها فروعه — وكذا ينبغى أن يعتقد ذلك منهم ، لما نذكره آنفا — فهو مفخر لهم ، ومعلم من معالم السداد ، دل على فضيلتهم » •

وانظر الى تلك النعوت التى تومىء الى منزلة اللغة لدى ابن جنى فى قوله (١) « واعلم فيما بعد أننى على تقادم الوقت ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغول على فكرى • وذلك اننى اذا تأملت حال هـذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحـكمة والدقة ، والارهاف ، والرقة وما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » •

ولا جدال فى انك ستدرك أن الرافعى جاوز كل المستويات عندما توازن بينه وبين أبرز الذين اعتصموا بكمال اللغة ، وفضلوها فى زهو كبير بميزاتها لقد اتجه أبو حاتم الرازى فى كتاب الزينة أيضا الى رفع لغة العرب الى أعلى منزلة فعقد فصلا فى (فضل لغة العرب) ذهب فيه الى أن العربية أفصح اللغات وأكملها ، وأتمها ، وأعذبها ، وأبينها • • الخ • وسعى الى تأكيد فكرة التفوق والسمو ، وجعلها من نصيب العرب وحدهم ، فقد جاء فى هذا الفصل : « وقال قوم بفضل اللغة اليونانية والهندية ، لان كتب الفلاسفة والاطباء وأصحاب النجوم والهندسة والحساب بها ، وهذا قول منبوذ عند أهل الملل » (٢) •

والرافعى لم يقف عند هذا الحد الذى بلغه أبو حاتم ، بل تشبث بأعلى ضروب المبالغة ، وأراد أن ينفرد بمستوى يشير اليه وحده فى قدر التفضيل والتعظيم والكمال •

وفات الرافعى وغيره أنه لا معنى لهذا التفضيل المسرف ، وأنه لم يجىء نص فى تفضيل لغة على لغة ، وقد قال تعالى : « وما أرسلنا من

---

(١) المصدر ذاته ص ٤٧

(٢) ابو حاتم : الزينة ج ١ ص ٦٠ — ٦٣

رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » • وقال تعالى : « فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » ، فاخبر عز وجل أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب الا ليفهم ذلك قومه صلى الله عليه وسلم ، لا لغير ذلك ، وعلى أساس لغوى علمى صحيح قضى على ما قاله جالينوس ، وهو أن لغة اليونانيين أفضل اللغات لان سائر اللغات انما هى تشبه اما نباح الكلاب واما نقيق الضفادع — بأنه غلط وجهل شديد ، لان كل سامع لغة ليست لغته ، ولا يفهمها ، فهى عنده فى النصاب الذى ذكر جالينوس ولا فرق (١) •

ويمكن مواجهة كل من يلوذ بالتفضيل المسرف ، وابطال ما يستند اليه • يقول ابن حزم (٢) : « وحروف الهجاء واحدة بلا تفاضل بينها ، ولا قبح ، ولا حسن فى بعضها دون بعض ، وهى تلك بأعيانها فى كل لغة ، فبطلب هذه الدعاوى الزائفة الهجينة ، وبالله التوفيق • وقد أدى هذا الوسواس العامى اليهود الى أن استجازوا الكذب ، والحلف على الباطل بغير العبرانية وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الاعمال لايفهمون الا العبرانية فلا يكتبون عليهم غيرها ، وفى هذا من السخف ما ترى •• وعالم الخفيات وما فى الضمائر عالم بكل لسان ومعانيه •• عز وجل » أما من يقولون أن العربية أفضل اللغات لانه نزل بها كلام الله تعالى فان هذا العالم يقول لهم انه لامعنى لذلك (٣) ، « لان الله عز وجل قد أخبرنا انه لم يرسل رسولا الا بلسان قومه • وقال تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » ، وقال تعالى : « وانه لفى زبر الاولين » ، فبكل لغة قد نزل كلام الله ووحيه ، وقد أنزل التوراة ، والانجيل ، والزبور . وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية ، وأنزل الصحف على ابراهيم عليه السلام بالسريانية ، فتساوت اللغات فى هذا تساويا واحدا •• وأما لغة أهل الجنة ، وأهل النار فلا علم عندنا الا ما جاء النص والاجماع فى ذلك » (٤) •

---

(١) ابن حزم الاحكام فى اصول الاحكام طبعة الخانجى ج ١ ص ٣٣

(٢) المصدر السابق ص ٥٣

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤

وما قاله ابن حزم يؤيده الدرس اللغوى الحديث يقول سابير (١) « لا معنى لان نقول أن هناك لغة — مهما تكن — أكثر فصاحة أو أكثر ارتباطا من لغة اخرى قد تكون أكثر تعقيدا أو اكثر صعوبة » •

وقد أشرنا من قبل الى أن اللغوى الحديث لايحاول تفضيل لغة على أخرى ويذكر بعض الباحثين فى اللغة أنه من المسائل التى نحاها علم اللغة الحديث فى التفضيل (٢) • والواقع أن الاسراف الذى وجدناه كان له أثر كبير فى بعض وجوه أسرار النظام اللغوى ولذا عنينا به • وما نريد أن نؤكده أنه لاينبغى أن يغيب عنا أن اللغــات تتفاوت فى أنماط نشأتها وتطورها ، ولكل لغة أسلوب خاص فى تأليف الالفاظ والتراكيب ، والمألوف فى لغة ما قد يكون مستهجنا فى غيرها ، يدل على ذلك أن طائفة من الاصوات تجتمع وتتناسق فى ألفاظ بعض اللغات على حين تأبى التجمع والتناسق فى ألفاظ لغات أخرى وبعض علمائنا قد أدرك الفروق الدقيقة بين اللغات المختلفة ووجه الانظار الى ما يعد من كلام العرب ، وما يرى أنه ليس من كلامهم وهذه نظرة لها اهميتها فى مسألة التفضيل ترفض ما يقوله الغلو ، أو ما يقرره الاسراف (٣) •

---

(١) Sapir (Edward) : Culture, Language and Personality Califorina 1960 P. 6

(٢) د• محمود السعران : علم اللغة : مقدمة للقــارىء العربى ص ٣٧٩

(٣) ابن دريد : الجمهرة المقدمة ص ٦

الفصل الثاني

نظـــرية المناسبة
وأسرار النظام اللغوى

نظـرية المناسبة

أدرك الرافعي بعد البحث والتأمل أن اسرار النظام اللغوى تقوم على نظرية المناسبة ، وتبين له ان هذه النظرية هى سبب التمدن ، وأنها تسيطر فى رأيه على اضرب النظام سيطرة واضحة ، وتفسر ما بين الالفاظ والمعانى من صلات أو علاقات .

ولا ريب فى أنه آمن بها ايمانا شديدا ، بعد أن اسـتكشف فى الكلمات أمورا سحرية ، وتخيل فى منطوقها رموزا وعلامات لونها أدبه ، وقد روحى الاصوات تقديرا يومىء الى اعتزاز كبير بالالفاظ وسعادة بما يستشف فى ثناياها من معان . وبحثه فى اسرار النظـام اللغوى برهان على أنه يرعى الالفاظ رعاية كاملة غير مكتف بالمدلولات بل ينقب عما وراء المدلولات موغلا أحيانا فى عالم من الخيال فيه من دقائق المعانى وألوانها ، وفيه ما وراء المعـانى مما قد توحى به الاخيلة . .

ومن الانصاف أن نشهد بأن هذا الاديب العالم عنى بفـكرة المناسبة عناية انفرد بمستواها الذى لم يبلغه احد قبله أو بعده ، وذلك لانه على الرغم من الجهد الكبير الذى بذل فى دراسة الصلة بين اللفظ والدلالة فى شتى العصور فان احدا لم يستطع أن يكون نظرية شاملة للمناسبة بين الالفاظ والدلالات ، ويحدد كل أوجه المناسبة ، وينظر اليها تلك النظرة التى تجعلها مهيمنة على أنواع النظام اللغوى ، بما تملكه من وسائل فطن لها الرافعى .

وأستطيع أن أقول فى ثقة ان هذا الرجل هو الذى مد وجهها ، وجعل لها السيادة ، واستخدمها فى عمق وشمول لتكشف أسرار النظام اللغوى ، والفرق واضح بين جهده وجهد من سبقوه ، ومستواه فى الاعتماد عليها يؤكد أنه صاحب الفضل فى ابراز شأنها فى تحقيق الترابط ، وتجلية العامل الهام الذى يعطى البحث اللغوى القدرة على التحكم فى الدرس ، وجمع الأوجه المختلفة تحت رباط واحد ، ونظرية

واحدة • وليس معنى ذلك اننا نوافقه فى كل ما قاله أو انتهى اليه ، فاننا سنخالفه حين يسرف أو يتعسف ؛ ونبين ما وقع فه عندما يتعثر أو يخطىء ونذكر رأى علم اللغة فيما يقرره • وأبواب الدراسة اللغوية التى تناولها تؤكد تمسكه بالنظرية ، وترشدنا الى أنه لم يقف أمامها كما وقف الآخرون الذين انتهوا الى ما انتهى اليه السابقون ؛ ورددوا ما قالوه دون ان يزيدوا شيئا أو يحققوا أمرا ، ودون ان يجملوا درس المناسبة كفيلا بالدلالة على التمدن وامتياز العربية فى باب المناسبة •

ولن نقدر ما بذله الرافعى من جهد . ولن نعرف ما صنعه ليمدها ويفرض رباطها الا اذا عرفنا أهم ما قامت به الدراسات التى تناولت فكرة المناسبة • ويجب ان نعلم أن البحث اللغوى عرف اهتمام فلاسفة اليونان والرومان ؛ وعلماء العربية القدماء بالبحث عن العلاقة بين الاصوات ومدلولاتها ، كما عرف عناية المحدثين بالبحث عن الصلة بين الالفاظ ومعانيها • ويدل على اهتمام فلاسفة اليونان والرومان بما ذكرناه أن أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق•م) « فى محاورته المسماة كراتيلوس يناقش أصل الكلمات . ويناقش مسألة هامة ظلت تشغل اللغويين والمفكرين أزمنة طوالا هى مسألة العلاقة بين « الاشياء » والكلمات التى تسميها : أهى علاقة طبيعية وضرورية ؛ ام أنها لا تعدو أن تكون ثمرة اصطلاح الجماعات » (١) •

ولقد ظهر أصحاب القياس وأصحاب التشذيذ . أما اصحاب القياس فكانوا يعتقدون أن اللغة فى اساسها طبيعية ؛ وهى لذلك منتظمة ، أى مطردة القواعد ومنطقية • • وأما اصحاب التشذيذ فكانوا ينكرون هذه الامور ؛ ويشيرون الى الشواذ الملحوظة فى التركيب اللغوى • وعند القياسيين أنه من الممكن تتبع أصل الكلمات ومعناها بالنظر فى أشكالها ؛ وسموا البحث فى هذا الاشتقاق •• ويرى بلومفيلد أن نظرية الاشتقاق دعت اليونانيين وتلامذتهم الرومان الى الحدس والتخمين •• (٢)

---

(١) د . محمود السعران — علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٤٩

(٢) نفس المصدر هامش ص (٣٤٩ — ٣٥٠)

واستمرار الجدل والنقاش أدى الى الانتهاء الى مذهبين :
مذهب الذين لم تتخلص عقولهم من سحر الكلمة ، وهم يحسبون أنها ذات قوى كامنة فيها ، ويعتزون بها ويحرصون على الكشف عن الاسرار والخبايا •• وهذا المذهب يقرر وجود رابطة طبيعية تدركها العقول ، وتتقبلها الافهام بين الاصوات والمدلولات •

أما المذهب الثانى فهو مذهب الذين ينكرون الصلة الطبيعية أو الصلة الذاتية ، ويقدرون أثر اختلاف الازمنة والامكنة ، ويكرهون التعسف والتكلف ، ولا يحبون اللجوء الى الامانى ، وانما يلتزمون بالواقع ، ويرون ان الصلة بين الاصوات والمدلولات ليست بالصلة العقلية المنطقية التى تتطلبها فكرة المناسبة حسب نسقها •

وهذا المذهب يرى أن الامر لا يعدو أن يكون اصطلاحا عرفيا جرى الناس عليه فى كلامهم ، فلا علاقة بين الاصوات والمدلولات الا ما سمح به العرف والاصطلاح (١) ، وواضح أنه يجرد الظواهر اللغوية من كل غموض ولا يرى فيها أمورا سحرية • •

ولم يقم المذهبان بعملية الملاحظة الدقيقة الشاملة ، او الاستقراء للحقائق وعرض الادلة الكافية ، وان لجأ بعض الذين نادوا بالمذهب الاول — حين حاول غموض الصلة بين الالفاظ ومدلولاتها أن يهدد مذهبهم — الى افتراض ان تلك الصلة الطبيعية كانت واضحة ، سهلة التفسير فى بدء نشأتها ، ثم تطورت الالفاظ ، ولم يعد من اليسير أن نتبين بوضوح تلك الصلة ، أو نجد لها تعليلا وتفسيرا (٢) •

ولجأ آخرون الى القيام بعقد الصلة أيا كانت تلك الصلة ، ولاذ مسلكهم بالتعسف والتكلف ، ولجأ غيرهم الى اتهام العقول والافهام بالقصور أما افلاطون وسقراط فقد أدرك كل منهما أن الصلة بين الاصوات ومدلولاتها غامضة « لا تكاد تتضح فى اللغة كما عرفت فى عهدهما ، وكما شاعت على الالسنة فى أيامهما ، ولكنهما مع هذا يتمنيان

---

(١) د • ابراهيم أنيس — من اسرار اللغة ص ١٢٦
(٢) نفس المصدر ص ١٢٦ ودلالة الالفاظ للمؤلف نفسه ص ٦٣

أن تخلق تلك اللغة التى فيها تتوثق العلاقة بين الاصوات والمدلولات وأن تصبح تلك العلاقة طبيعية بحيث نلحظ فى الاصوات امورا رمزية وثيقة الصلة بالمدلولات » (١) ٠

ويبدو ان سقراط كان يميل الى المذهب الاول ، ويرى فيه مثالية تربط بين الالفاظ ومدلولاتها ربطا طبيعيا ذاتيا ، كتلك الالفاظ المشتقة من أصوات الطبيعة ٠ (٢) أما ارسطو فكان يرى أن الصلة عرفية (٣) وأما علماؤنا المتقدمون فقد جرى بينهم نقاش وجدل حول مسألة الصلة بين الالفاظ والدلالات وذلك بمناسبة البحث فى أصل اللغة هل هى تواضع واصطلاح أم توقيف ووحى ٠ ومن المعروف أنهم اختلفوا فى كيفية دلالة الألفاظ على معانيها ، ونوع العلاقة بين اللفظ ومدلوله ، وعلة اقترانهما ، فهل تدل الالفاظ على المعانى بذواتها أو بوضع الله اياها أو بوضع الناس ؟

واذا نظرنا الى الآراء المختلفة التى تناولت مسألة الصلة بين اللفظ والدلالة فاننا نجد من يغالى غلوا شديدا فى توثيق الصلة وجعلها ذاتية موجبة بمعنى أنها لا تتخلف ، ولابد من وجودها ، وهو عباد بن سليمان الصيمرى من المعتزلة ، ومن اثر فيهم من اللغويين من اتباعه ، وقد ذهب هذا الرجل الى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، قال : « والا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحا من غير مرجح » (٤) ٠

أما من أثر فيهم من اللغويين من أتباعه ، فقد تكلف بعضهم فى اظهار هذه المناسبة ، وخرج على طبيعة العربية نفسها ، وجعل العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله لا يقتصر فيها على العربية ، بل تشمل سائر اللغات ، ويدل على ذلك ما ذكره السيوطى حيث يقول : (٥)«وكان بعض من يرى رأيه يقول : انه يعرف مناسبة الالفاظ لمعانيها ، فسئل ما مسمى « أذغاغ » وهو بالفارسية الحجر ، فقال : أجد فيه يبسا شديدا وأراه الحجر » ٠

---

(١) د ٠ ابراهيم انيس — من اسرار اللغة ص ١٢٦
(٢) د ٠ ابراهيم انيس — دلالة الالفاظ ص ٦٣
(٣) نفس المصدر ص ٥٦
(٤) السيوطى — المزهر ج ١ ص ٤٧
(٥) المصدر نفسه والصفحة ذاتها

ولعل ما قاله بعض من يرى رأى عباد كان كذلك بطريق الصدفة لاننا لا نعلم شيئا عن مستوى الاجادة للغة الفارسية ، ولعل استشعار ما فى اللفظ من يبس شديد ، عرف القائل المسمى من الاسم ؛ والمدلول من الصوت (١) ٠

والسيوطى يرى أن هناك علاقة بين موقف عباد ومذهب الاعتزال ففكرة المعتزلة أن المشرع يجب عليه ان يراعى الاصلح ، وأن علة الحرمة فى الاحكام الشرعية ذاتية ، فاذا ظهر لنا الفساد والضرر فى شىء ، حكمنا بالحرمة ، ولو لم يرد نص بذلك ٠ يقول السيوطى (٢) بعد أن ذكر الفرق بين مذهب أهل اللغة والعربية ، ومذهب عباد : « وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الاصلح فى أفعال الله تعالى وجوبا ، وأهل السنة لا يقولون بذلك مع قولهم أنه تعالى يفعل الاصلح فضلا منه ومنالا وجوبا ولو شاء لم يفعله » ٠

ويرى بعض الباحثين أن عبادا من العلماء الافاضل ، وأنه فى رأيه لا يمكن أن يقول بذلك ؛ بل لابد أن يكون من القائلين بالتوقيف أو الاصطلاح ، وهو الاقرب ، الا ان الواضع عليه أن يراعى المناسبة بين الدال والمدلول (٣) ٠

ولم يقدم الباحث دليلا الا أن عبادا من العلماء الافاضل فى رأيه ، ومسألة أنه من العلماء الافاضل لاتصلح حجة أو برهانا ؛ فهنــاك معايير ومناهج يجب مراعاتها ، ولا يستبعد ما قاله عباد ومن يرى رأيه ، وكان يكفى الباحث التأمل فى كلام السيوطى ؛ فقد ذكر أن أهل اللغة والعربية قد كادوا « يطبقون على ثبوت المناسبة بين الالفاظ والمعانى ، لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد أن عبادا يراها ذاتية موجبة ، بخلافهم ٠ وهذا كما تقول المعتزلة ٠ ٠ الخ » ويلاحظ أن هذا الكلام يشير الى مذهبين ، وينبه على موقف الاعتزال ٠ ٠ ولعــل الباحث قد تأثر بانكار الجمهور ما قاله عباد وأراد أن يدافع عنه ، وهو يعلم نزعته الاعتزالية ، وحقه فى الرأى والاجتهاد والاستقلال ٠

(١) د ــ صبحى الصالح ــ دراسات فى فقه اللغة ــ الطبعة الثالثة ــ ١٩٦٨ بيروت ص ١٥٠
(٢) المزهر ج ١ ص ٤٧ ــ ٤٨
(٣) عبد الله العزازى ــ فقه اللغة ــ ص ٢٣

والجماعة كما ينص ابن جنى تلقت مذهب المناسبة بالقبول له والاعتراف بصحته ، ونبه عليه علماء اللغة القدامى كالخليل وسيبويه (١) .

وليس مرد الخلاف فى الحقيقة الى وجود هذه المناسبة الطبيعية وعدم وجودها بل الى ما يراه من أن هذه المناسبة ذاتية موجبة .

وقضاء السيوطى بأن أهل اللغة والعربية قد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة لا يعنى اتحاد المستوى أو اتفاق المنهج والدرس والحكم . . لان علماء اللغة كان منهم من نبه عليها فى اعتدال ، ونأى عن التعسف والتكلف والاسراف ، مثل الخليل بن أحمد وسيبويه يقول صاحب الخصائص (٢) فى امساس الالفاظ اشباه المعانى : « اعلم أن هذا موضع شريف لطيف . وقد نبه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له ، والاعتراف بصحته .

قال الخليل كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا صر وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا صرصر .   ؟

وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان ، انها تأتى للاضطراب والحركة ، نحو النقزان ، والغليان ، والغثيان . فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الافعال . »

وفى كتاب العين للخليل بن أحمد أمثلة أخرى ذكر بعضها فى تناوله أبنية المضاعف مما يؤكد اهتمامه بالمناسبة وفطنته لوجهها . (٣)

وفى الكتاب لسيبويه عناية بتعليل أمثلة المناسبة ، وبعد عن الشطط فى درسها (٤) .

وكان من هؤلاء العلماء من اتسع فى باب المناسبة ، واجتهد فى الربط بين الالفاظ ومدلولاتها ربطا قويا يكاد يشبه الصلة الطبيعية

---

(١) الخصائص جـ ٢ ١٥٢
(٢) ابن جنى : الخصائص جـ ٢ ص ١٥٢
(٣) الخليل بن احمد : كتاب العين ص ٦٣ — ٦٤ تحقيق د : عبد الله درويش مكتبة العانى بغداد ١٩٦٧
(٤) سيبويه : الكتاب جـ ٢ ص ٢١٨

أو الذاتية مبينا أنه وجد اشياء كثيرة على سمت ما أتى به الخليل وسيبويه ومنهاج ما مثلاه (١) ، وهو يفعل ذلك فى جو يقرر أن اللغة شريفة كريمة لطيفة ، فيها من الحكمة والدقة ، والارهاف والرقة — ما يملك عليه جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر • وهو ابن جنى الذى شغف بنظرية المناسبة ، وعقد لها فصولا أربعة (٢) فى الخصائص سندرسها فى نظام الالفاظ بالمعانى ، لاعتماد الرافعى على ما قاله فيها ، واتيانه بكل ما جاء به • •

وجماع الامر أنه يرى أن هذه المناسبة محققة ، وان لم تظهر فمرجع ذلك الى أن المتأمل لم ينعم نظره حتى تظهر له صورتها ، أو أن هناك آمورا فى اصول اللغة لم تصل الينا فخفيت علينا هذه المناسبة (٣) أو أن الاول وصل اليه علم لم يصل الى الآخر •

وهو فى هذا يعبر عن شىء من الغلو والبعد ، فكثير من الالفاظ الموضوعة للمعنويات لا تتضح فيها المناسبة ، وكذا اسماء الاجناس ونحوها قد تخفى فيها المناسبة ، لان الشىء قد يسمى بما لا صلة له بـه •

وسنقول الكثير حين نناقش ما قاله الرافعى ، ونكشف المآخذ ، ونبين رأى الباحثين وعلم اللغة ليتضح الحق والصواب •

ويبدو أن العلماء الذين جاءوا بعد ابن جنى شغلهم ما ذكره ، كما شغلهم ما ذكره عباد من قبل ، ورأوا انه لا يكفى ما قاله الجمهور فى انكار مقالته ، وهو أنه لو ثبت ما قاله لاهتدى كل انسان الى كل لغة ، ولما صح وضع اللفظ للضدين (٤) — ولذلك نجد اهتمامهم بتحقيق الامر ، والرد على هذين الرجلين اللذين لا يخلو مذهبهما من الغلو المفرط كما اشرنا ، وان بدا الفرق بينهما • ومن هؤلاء العلماء الرازى (٦٠٦ هـ) فقد رد القول بذاتية دلالة الالفاظ على مدلولاتها المنسوب

---

(١) ابن جنى — الخصائص جـ ٢ ص ١٥٣

(٢) انظر ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ١١٣ — ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٥ — ١٥٢ وما بعدها

(٣) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٦٤

(٤) السيوطى — المزهر جـ ١ ص ٤٧

لعباد بن سليمان اذ انها تتغير باختلاف الازمنة والامكنة والذاتيات لاتكون كذلك ، ذلك أن دلالة الالفاظ على نفسها ليست مستمدة الى الوضع اصلا لوجودها فى الالفاظ المهملة ايضا بلا تفاوت نحو جسق مركب من ثلاثة أحرف (٢) ويقرر الآمدى (٦٣١هـ) أن « دلالات الاسماء على المعانى ليست لذواتها ولا الاسم واجب للمعنى ، بدليل انتفاء الاسم قبل التسمية ؛ وجواز ابدال اسم البياض بالسواد فى ابداء الوضع ، وكما فى أسماء الاعلام الموضوعة لارباب الحرف والصناعات لادواتهم » (٣) •

ومن قبل ذكر عبد القاهر الجرجانى (٤٨١هـ) « أن واضع اللغة لو كان قال ربض مكان ضرب لما كان فى ذا لكما يؤدى الى فساد » (٤)

أما ابن السيد البطليوسى (ت ٥٢١هـ) مؤلف كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، فانه رأى مدى ما وصل اليه ابن جنى فى درس المناسبة ، وكان رأيه فى الاقتضاب أن العر بربما حاكت المعنى باللفظ فى بعض المواضع ،ولكن هذا قياس غير مطرد ، والتشاغل بما تشاغل به ابن جنى عناء لا فائدة منه (٥) •

ولسنا مع البطليوسى فى زعمه عدم الفائدة ، وانما نبغض منطق الشحط ، والمبالغة فى القول لفرض أمر بعيد •

والمحدثون من الباحثين اختلفت مذاهبهم ، فمنهم من يرى أن هناك رابطة تدركها العقول وتتقبلها الافهام بين الاصوات والمدلولات ومنهم من يرى أن الكلمة حين وضعت أولا وفى نشأتها كانت أصواتها وثيقة الصلة بمدلولها ، ثم انحرفت عن هذا مع توالى الايام ، واصبحنا لاندرك تلك الصلة • ومنهم من يرى أن الامر لا يعدو أن يكون

---

(١) الجيزاوى : تحقيقات شريفة وتدقيقات منيفة ص ٩٣
(٢) الرازى : مفاتيح الغيب ج ١ ص ١٢ وما بعدها
(٣) الآمدى : الاحكام فى اصول الاحكام ج ١ ص ٤٨
(٤) عبد القاهر : دلائل الاعجاز ص ٤٠
(٥) ابن السيد البطليوسى : الاقتضاب فى شرح ادب الكتاب ص ١٥٧ — ١٥٨

اصطلاحا عرفيا جرى عليه الناس فى كلامهم ، وأنه لا علاقة بين الاصوات والمدلولات الا بمقدار ما سمح به العرف والاصطلاح ، ومنهم من اتخذ طريقا يرى فيه الاعتدال ، ويعتبره ثمرة التحقيق والموازنة •

ويستند المذهب الاول فى اثبات الارتباط بين الاصوات والمدلولات ، وتأييد نظرية المناسبة — الى أمور هامة فى رأيه ، وهى ما يأتى :

١ — أن الكلم « وضعت فى أول أمرها على هجاء واحد ، متحرك فساكن ، محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم فئمت — أى زيد فيها حرف أو أكثر فى الصدر ، أو القلب ، أو الطرف ، فتصرف المتكلمون بها تصرفا يختلف باختلاف البلاد والقبائل ، والبيئات ، والاهوية •

فكان لكل زيادة ، أو حذف ، أو قلب ، أو ابدال ، أو صيغة ، معناة ، أو غاية ، أو فكرة دون اختها ، ثم جاء الاستعمال فأقرها مع الزمن على ما أوحته اليهم الطبيعة أو ساقهم اليهم الاستقراء ، والتتبع الدقيق ، وفى كل ذلك من الاسرار والغوامض الآخذة بالالباب ، ما تجلت بعد ذلك تجليا بديعا ، استقرت على سنن وأصول وأحكام لن تتزعزع » (١)

٢ — لايستطيع أحد من اللغويين أن ينكر أن هناك نوعا من الكلمات جاءت فيه أصوات الكلمة نتيجة تقليد مباشر لاصوات طبيعية صادرة عن الانسان أو الحيوان أو الاشياء •• وهذا النوع هو الذى يطلق عليه المحدثون كلمة Onomatopoeia

وفى العربية من هذا النوع اسماء الاصوات مثل القهقهة ، والغمغمة والضوضاء ، والنحنحة ، والتأوه ، والغطيط ، والشخير •

وهذا للانسان ، وللحيوان رغاء الناقة وبغامها ، وهدير الجمل ، وصهيل الفرس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ،

---

(١) انستاس مارى الكرملى : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ص ١

وزئير الاسد ، وعواء الذئب ، ونباح الكلب ، ومواء الهرة ، وغير ذلك . وللاشياء خرير الماء ، وهزيم الرعد ، وصرير القلم ، وغير ذلك (١) ونحن لا نحتاج الى كبير عناء حتى نلمح العلاقة الطبيعية بين الالفاظ الموضوعة لمحاكاة الاصوات التي تصدر عن الحيوانات وغيرها ، ومراعاة اللين أو القوة ، والخفة أو الشدة ، والهمس أو الجهر في التعبير عن المعاني برهان واضح على المحاكاة الانسانية لاصوات الظاهرات المعبر عنها . (٢)

٣ — أنه تنشأ كلمات للتعبير عن مصدر الصوت الطبيعي مشتقة من هذا الصوت ، وذلك كما فعلت بعض الامم الاوروبية في تسمية طائر معين يظهر في الربيع ، ويصيح « كوكو » . فنشأت في اللغة هذه الكلمة وأطلقت على الطائر نفسه ، لا على صوته فقط . وهذا أمر طبيعي ، اذ من العسير الفصل بين الصوت ومصدره ، ويشبه هـذا تلك الاسماء التي قد تنشأ نتيجة السخرية بشعب من الشعوب ، او المداعبة أو الاستهزاء . (٣)

٤ — توجد اصوات تنشأ عن حركات الانسان قد توحي بنوع من الكلمات وثيق الاتصال بين اللفظ ومدلوله .. ومن هذا النوع القطع والقطم والقضم والخضم وغير ذلك (٤) .

٥ — هناك كلمات تعبر عن الحالة النفسية ، يستمسك بها اصحاب علم النفس ، ويرون فيها الصلة بين الاصوات والمدلولات واضحة جلية ، ففي الكره والنفور والسخرية مثلا نجد كلمـات مثل البغض

---

(١) د . ابراهيم أنيس : من اسرار اللغة ص ١٣٠ ودلالة الالفاظ ص ٦٨ — ٦٩ .

(٢) د . صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ١٥٢ .

(٣) د — ابراهيم أنيس : من اسرار اللغة ص ١٣٢ وانظر دلالة الالفاظ ص ٦٩

(٤) من اسرار اللغة ص ١٣٢ وانظر : د . صبحي الصـــالح — دراسات في فقه اللغة ص ١٥٢ .

والغضب والنفور والفتور والشنآن والشنف وغيرها (١) •• والرافعي يهتم بهذا الجانب اهتماما بارزا في نظام المعاني بالالفاظ ، ويجعل له نسقا يوحي بايمانه الشديد به •

٦ — الامثلة الكثيرة التي تؤكد أن طول الكلمة أو قصرها في الاصوات قد يوحي في اللغة بمعنى خاص • ومن ذلك قولهم : « زيادة المبنى يتبعها زيادة المعنى » • واشارتهم الى أن تضعيف عين الفعل قد يعبر عن المبالغة مثل ذبح وذبح ، وكذا ما جاء على مثال جرو جرجر وغير ذلك يفيد المبالغة أيضا ، وما ذكر من أن زيادة الراء وتكريرها في القمطرير : الشديد — للتأكيد ، وما قيل في العقنباة : الداهية من أنه مما زيدت فيه الزوائد تهويلا وتفخيما ، والامثلة على هذا الضرب كثيرة كما ذكرنا • (٢)

٧ — قيام الحركات بالرمز في بعض اللغات لمعان خاصة ، ففي العربية نجد الكسرة فيها رمزا للمؤنث ، والتصغير بالياء التي هي أخت الكسرة (٣)

٨ — بعض الدراسات التي جاءت بعد استيعاب مؤلفات السابقين، وقضت بأن أهل اللغة والعربية قد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة الطبيعية بين الالفاظ والمعاني • (٤)

٩ — ماكشفه الذين اهتموا بالاشتقاق من صلات بين الاصوات والمدلولات ، وأظهروا دلالة الحرف السحرية وقيمته التعبيرية الموحية مقتنعين بوجود التناسب بين اللفظ ومدلوله في حالتي البساطة والتركيب ، موجهين الى أنه عند انعام النظر وملاطفته ، يمكن الوصول الى المناسبة ، ويتم اكتشاف التقارب ، وعند التأمل يحقق مايرجوه الدارس (٥) •

---

(١) د . ابراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ١٣٢ ودلالة الالفاظ ص ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٣ وانظر ابن جني الخصائص جـ ٣ ص ٢٦٤ وما بعدها . وابن فارس : المقاييس جـ ٥ ص ١١٧ و جـ ٤ ص ٣٧٢ وجـ ١ ص ٣٣٢ .

(٣) د — ابراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ١٣٣ .

(٤) السيوطي : المزهر جـ ١ ص ٤٧ .

(٥) د صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ٢٠٤ — ٢٠٩ .

ويذكر الدكتور ابراهيم أنيس أن الدارسين فى الجامعات الاوربية ظلوا ينتصرون لفكرة الصلة العقلية بين الاصوات والمدلولات حتى أواسط القرن التاسع عشر (١) •

والمذهب الثانى من مذاهب المحدثين يرى نفس ما رآه بعض فلاسفة اليونان والرومان وهو أن الكلمات بدأت واضحة الصلة بين أصواتها ودلالاتها ثم تطورت تلك الاصوات أو تلك الدلالات ، وأصبحت الصلة غامضة علينا ، ولم يدع هذا المذهب أن المناسبة الطبيعية تطرد فى كل كلمات اللغة (٢) • ولاريب أن أصحاب هذا المذهب ومنهم همبلت العالم اللغوى المشهور المتوفى سنة ١٨٣٥ — ينتصرون للمناسبة ، ولكنهم أدركوا بعد التأمل والنظر أنه من الخير أن يعترفوا بعدم الاطراد وأن ينبهوا على ماوجدوه من غموض (٣) • واذا كان جسبرسن قد حقق ماقاله بعضهم ودافع عنه فانه كان حريصا على التحذير من المغالاة فى باب المناسبة بين الالفاظ ودلالاتها ، لان هذه الظاهرة اللغوية فى رأيه لاتكاد تطرد فى لغة من اللغات ، وأن بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مر الايام فى حين أن كلمات أخرى تكتسبها وتصبح فيها واضحة (٤) وعلى الرغم من دعوته الى الحذر فانه يقرر فى النهاية : « أن كلمات اللغات تزداد مع الايام ايحاء للدلالات ، وتكتسب الالفاظ بمرور الزمن قدرا أكبر من تلك الرمزية • ويتنبأ من أجل هذا بتلك النبوءة المتفائلة التى كان يحلم بها فلاسفة اليونان من أن يأتى اليوم الذى تصبح فيه الصلة بين الالفاظ ودلالاتها أكثر وضوحا وأوثق ربطا مما عرف أجدادنا القدماء (٥) أما المذهب الثالث فانه يرى أن اللغة أصوات انسانية لاتكاد تخضع لنظام عقلى منطقى فى تكونها وصدروها وذلك للاسباب الآتية :

١ — أن اللغة أصوات انسانية ، وهناك قدر مشترك من الاصوات بين معظم اللغات ، كما يوجد منها ما يختص بلغة من اللغات أو فصيلة

---

(١) د — ابراهيم انيس : من أسرار اللغة ص ١٢٨ •
(٢) د • ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ٦٨ •
(٣) نفس المصدر والصفحة •
(٤) المصدر ذاته ص ٦٨ •
(٥) نفس المصدر ص ٧٠ •

من الفصائل اللغوية ، ومع أن هذا القدر المشترك بين لغات البشر كبير فانه لايكاد يدرك أى صلة عقلية بينه وبين التفكير الانسانى العام ، ولايكاد يعرف الاساس العقلى الذى أدى الى اشتراك الميم والفاء والكاف ، وغير ذلك من أصوات لغوية فى كلام معظم الناس مهما اختلفت بيئاتهم ، وتعددت لغاتهم ، أو تباينت أجناسهم (١) •

٢ ـ هناك أصوات غرزية يبدأ بها الطفل مناغاته كالميم والباء ، فسرها اللغويون على أنها مرتبطة بعملية الرضاعة ، ولاحظوا تبعا لهذا اشتراك كلمات قديمة بعيدة فى القدم بين جميع اللغات ، أساسها الميم أو الباء وتعبر عن الابوة والامومة • وحتى تلك الاصوات لايكاد يدرك منها ، لماذا اتخذت معظم الكلمات من الباء صوتا أساسيا للتعبير عن معنى الابوة ، ومن الميم أساسا للتعبير عن معنى الامومة ؟ ولم لم تكن المسألة معكوسة ؟ (٢) •

٣ ـ لايمكن تجاهل الظروف الاجتماعية الخاصة التى بررت اختصاص الابوة بصوت والامومة بآخر ، ان استقرار تلك الكلمات فى اللغات البشرية جعل الناس يستمسكون بها بعد ذلك ، جيلا بعد جيل ولذلك أصبحوا يأبون على الطفل مناغاته الآن بصوت الميم وهو ينظر الى أبيه ، أو الباء وهو ينظر الى أمه ، لان الكبار هم الذين فسروا منذ القدم مناغاة الطفل « حسب ما تصادف حينئذ من ظروف اجتماعية خاصة ، واستقر أمرهم على اعتبار المناغاة بالباء تعبر عن الابوة فى حين أن المناغاة بالميم تعبر عن الامومة » (٣) •

٤ ـ ان القيمة اللغوية مسببة عما ألف الناس أن يعطوها من دلالة ، والاصطلاح أو الاعتباط هو الاساس « وعلى هذا فان مايقال عن الصلة الوثيقة بين اللفظ والمعنى : وأن الاول هو حكاية يتأدى فيها ذلك المعنى غير مقبول على الدوام ، لان حكاية الصوت حد واسع

---

(١) د : ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٢٤ •
(٢) نفس المصدر والصفحة
(٣) نفس المصدر والصفحة .

المعنى ، لم يقيده ضابط يصدق فى جميع الاحوال ومن يتأمل معنى القطع يجده يؤدى بحروف كثيرة عديدة لاسبيل الى أن نأتى على حصرها وضبطها . « ومعنى هذا أن حكاية الصوت لاتؤدى بحروف معينة ، وأن المعنى على هذا لم يوضع توقيفا أو اصطلاحا ، ومن أجل هذا فاللفظة التى تعرب عن « الوحدة » فى العربية وهى « واحد » أو أحد أو أول . وكذلك اللفظة التى تدل على فكرة « الازدواج » وهى « اثنان » ، وغير ذلك من أسماء العدد .. لاتملك أية صلة بفكرة الوحدة أو فكرة الازدواج ، وما المعنى الذى تسوق اليه الاشىء اصطلاحى ألفه الناس منذ كانوا ، وعلى هذا فالاستعمال حدمهم ، وضابط جامع لايستطيع اللغوى أن يتخطاه ، ويضرب فى الاوهام التى لاتسعفه ، ولايفيد منها .. » (١)

٥ — من العبث أن ننظر فى البحث عن الصلة بين الاصوات والمدلولات ، لان آلافا من السنين قد مرت على الكلام الانسانى ، ومن العبث افتراض أن الانسان الاول قد راعى فى الاهتداء الى الكلمات صلة وثيقة بين الاصوات والمدلولات ؛ فهذه المسألة مرتبطة بنشأة الكلام الانسانى الذى تباينت فيه النظريات واضطربت فيه الآراء ، ولم يبلغ أحد فيه مبلغ اليقين أو القطع (٢) .

٦ — من الملاحظ أن الاصوات والمعانى قد تتغير باختلاف الازمنة والامكنة وتخضع للتطور وأن أبناء اللغة الواحدة يتغير تفسيرهم للاصوات الطبيعية بتغير الاجيال والازمان والظروف الاجتماعية . وما توحيه الاصوات الطبيعية للافراد فى العصر الواحد والبيئة الواحدة قد يختلف من فرد الى فرد فاذا طولب هذا بوضع كلمة لصوت طبيعى سمعه ، فقد يختلف ما يأتى به عما يكون فى ذهن أخيه . « أما ماتوحيه الاصوات الطبيعية فى أذهان الشعوب فلا نزاع فى أنه يختلف من شعب الى شعب . » (٣) .

---

(١) د : ابراهيم السامرائى : فقه اللغة المقارن ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٢) د : ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٢٧ ومحمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٣) د :ابراهيم انيس من اسرار اللغة ص ١٣١ وانظر ص ١٢٩ وانظر عبد السلام هارون معجم مقاييس اللغة مقال بمجلة اللغة العربية ج ١٥ سنة ١٩٦٢ م ص ١٠٢ .

وهذا يدل على أن فكرة الصلة بين الاصوات والمدلولات ليست بالامر الانسانى العالمى ليمكن أن ترتبط بالعقل البشرى العام أو يمكن أن نرى فيها صلة من صلات المنطق الانسانى العام (١) •

٧ — أن الالفاظ « لاتعدو فى حقيقتها أن تكون بمثابة الرموز على الدلالات كل لفظ يصلح أن يتخذ للتعبير عن أى معنى من المعانى ، فما يسمى « بالشجرة » يمكن أن يسمى بأى لفظ آخر متى اصطلح الناس عليه ، وتواضعوا على استعماله ، فليس فى لفظ الشجرة مايوحى بفروعها وجذورها وأوراقها وخضرتها • وقد كان من الممكن أن يعبر عن هذه المعانى برموز أخرى غير صوتية كالاشارة ونحوها •• » (٢) •

ويؤكد بعض العلماء أن الالفاظ لاتراد لانفسها ، وانما تراد لتجعل أدلة على المعانى ، وليس هناك فساد لو قيل لفظ مكان آخر عند الوضع وليس الاسم واجبا للمعنى بدليل انتفاء الاسم قبل التسمية ••(٣) ويشير بعضهم الى ضرورة مراعاة ما تخلعه الذات على الموضوع، وما تصنع الآراء التى تكشف النفس (٤) •

٨ — أن الصلة المكتسبة بمرور الايام،وكثرة التداول والاستعمال كان لها أثرها فى جعل الالفاظ أرقى من مجرد رموز ، والاعتزاز بالالفاظ وتقدير فضلها فى الحياة أدى الى اعطائها فوق مالها فى الحقيقة والواقع ، والنظرات الادبية قد تمنح الالفاظ اعتبارات ودلائل لاوجود لها •

٩ — أن الكلمة الواحدة فى اللغة الواحدة قد تعبر عن عدة معان ، وهو ما يسمى بالمشترك اللفظى ، وهذا لايتفق مع مذهب الصلة بين الالفاظ والمدلولات ، وكلمة العين مثلا تدل بوضوح على معارضة منهج الربط بين الاصوات والمدلولات •• (٥)

---

(١) د • ابراهيم انيس : من أسرار اللغة ص ١٣١ .
(٢) د • ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ٧٢ .
(٣) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز ص ٤٠١ والآمدى . الاحكام فى أصول الاحكام ج ١ ص ٤٨ .
(٤) ميخائيل نعيمة : الغربال ص ١٥ .
(٥) انظر المزهر للسيوطى ج ١ ص ٣٧٢ — ٣٧٥ .

١٠ — أن الترادف وهو أن يدل لفظان مختلفان فأكثر على معنى واحد باعتبار واحد (١) • يعد دليلا قويا على معارضة فكرة الصلة •

١١ — على الرغم من جهود من حاولوا تعليل نشأة أصول الالفاظ الاولى بمحاكاة الاصوات الطبيعية فانهم لم يقدموا برهانا ساطعا أو دليلا قاطعا ، فلم تصدق المحاكاة عند بعض الباحثين (٢) الا فى القليل النادر من ألفاظ كل لغة • واذا قيل أن قط وما يتفرع منها من ألفـاظ والقص والكسر والانين والحفيف والقلقلة والصليل وأضرابها — تحكى بأصوات حروفها أصوات الاحداث التى تدل عليها فى اللغة العربية • • فكم عدد الالفاظ التى تقع هذا الموقع وتتصف بهذه الخاصة فى اللغة العربية • • • ؟

لا شك أنها قليلة محدودة • أما الالفاظ التى بين جرسها ومعناها تناسب وتوافق فربما كانت أكثر عددا « ولكنها لا يحتج بها فى الباب ولا يمكن أن يعلل أصل وضعها بالتعليل الصوتى لمجرد هذا التناسب وذلك مثل شق ودق وقرع وكبكب وسال ونفخ وزحف • •

على أن فى هذا التناسب شيئا كثيرا من العادة والائتلاف عند أهل كل لغة فى الربط بين بعض المعانى وبعض الاصوات • ولو صحت هذه النظرية لما تعددت اللغات ولتماثلت أو تشابهت على الاقل • فان أصوات الطبيعة واحدة ، مع أن تلاقى اللغات فى ألفاظ واحدة وتشابه الالفاظ الدالة على معان واحدة لا يقع الا فى القليل النادر •

واذا وقع فلابد غالبا من بعض الاختلاف (٣) •

ويبدو أن النهضة اللغوية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين جعلت الغلبة لهذا المذهب الذى يعارض الربط بين الاصوات والمدلولات بعد أن دعم موقفه بأدلة قوية ، وأثبت بعض أنصـاره أن

(١) انظر المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٤٠٢ •
(٢) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٨٧ — ١٨٨ •
(٣) نفس المصـدر •

المقارنة بين مئات الكلمات فى الفصيلة الهندية الاوربية فيها البرهان على فساد فكرة من ينادى بأن اللغة اتخذت للتعبير عن الاشياء طريق الاصوات التى توحى الى الآذان بنفسها أو بمقارنتها بغيرها أثرا مماثلا لذلك الذى توحيه تلك الاشياء الى العقول • (١)

والمذهب الرابع الذى يمثل الاعتدال،ويعد ثمرة من ثمار التحقيق والموازنة يرى أن فى اللغة معانى تتطلب اصواتا خاصة ،وهناك مدلولات تسارع اللغة للتعبير عنها بألفاظ معينة (٢) ، وعنده أن المناسبة ظاهرة فى حكاية الاصوات ، مع مراعاة أن المضاهاة الصوتية قلما تكمل أو تدنو من الكمال للاختلاف فى أدوات السمع ، وملاحظة أن المحكى أصوات ساذجة لا رباط لها ، ولا عصام يحصرها • وقد تظهر المناسبة فى الصورة أو الصفة وقد تخفى ، فلا ينبغى الغلو والتطرف والزعم بأنها محققة دائما ، وان لم تظهر فمرجع الامر الى عدم انعام النظـر أو وجود اشياء فى أصول اللغة لم تصل الينا فخفيت علينا هذه المناسبة

والحق عنده أن الشىء قد يسمى بما صلة له به ، وأنه لا توجد مناسبة فى مثل العقل والحلم وفى مثل القط للحيوان الخاص وكذلك الثعلب • وغير ذلك ، مما يؤكد ضرر الاسراف فى القول بها فى كل شىء ويومىء الى أن بعض الادباء قد خالف الاسس اللغوية العملية ، وأراد أن يفرض الصلة العقلية وان كان السبيل هو التعسف والشطط •

الرافعى ونظرية المناسبة :

أشرنا الى ايمان الرافعى بالمناسبة والواقع أنه يجعل اللغة كلها حكاية للطبيعة ليؤكد هذا الايمان ، ويجعل للمناسبة الفضل فى كشف الاسرار ، وابراز التمدن ، والسيطرة على الدرس اللغوى • ولا ريب فى أن الرجل يعتمد عليها كل الاعتماد ، ويقرر أنه لابد من مراعاتها فى الوضع والنمو ، وان اختلف الوجه قوة وضعفا •

---

(١) د : ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٢٨ — ١٢٩ •
(٢) نفس المصدر ص ١٢٨ •

يقول الرافعي (١) في المجاز : « وهذا هو الوضع الاخير في اللغة ، ولذ تجد مراعاة المناسبة فيه على أضعف وجوهها ، فكأنهم في الوضع الاول راعوا المناسبة الثابتة التي لا زيادة فيها • ثم توسعوا في هذه المناسبة بنوع من التصرف في الوضع الثاني : وهو الاشتقاق ثم بلغوا آخر حدودها (المناسبة) في المجاز • وهذا مما يؤكد أن اللغة كلها حكاية للطبيعة ، فان كان ثم توقيف أو وحي فيكون في هداية العقول الى أسرار هذه الحكاية » •

وهكذا نجد المناسبة تراعى في طرق الوضع : وهى ثلاثة أنواع : مناسبة ثابتة لا زيادة فيها : ومناسبة توسعوا فيها بنوع من التصرف ومناسبة تمثل آخر الحدود أو تأتي على أضعف وجوهها •

واذا كانت المناسبة على هذا المستوى الشامل ، فان اللغة تعد عنده حكاية للطبيعة ، ويوجهنا الرافعي الى أنه «لابد في استكناه منطق الطبيعة من الذهن الشفاف ، والبصيرة النفاذة : والالهام الخفي الذى يشبه قبسا من النور الآلهي يضيء بين العقل والقلب فلا يقع شعاعه على جهة من الطبيعة الا كشف منها عن معاني الاسرار الآلهية » (٢)

وهذا التوجيه فيه الايمان الشديد بحكاية الطبيعة وما تفرضه من المناسبة والارشاد الى الامور التي تكشف المناسبة ، وتظهر اسرار الحكاية •

وقد لجأ الرافعي الى الغلو في وصف الالهام : وكأنه يحتم وجود المناسبة ويؤكد أنها تحتاج أحيانا الى قدرة بالغة تشبه قبسا من النور الآلهي •

ان تلك القدرة الفائقة هي التي تتولى الكشف : وتحقق الصلة بين الالفاظ والمدلولات : وتعظم الاسرار الآلهية التي جعلت حكاية الطبيعة أو أوجه المناسبة تسيطر على أمر اللغة : وتدعو الى اجلال مكانتها •

---

(١) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ •

(٢) المصدر السابق ص ١٧٥ .

والرافعي يؤمن بأن لغات العــرب • وان اختلفت فى اللحــن والاستعمال الا أنها تتفق فى المعنى الذى من أجله صار العرب جميعــا يخشعون للفصاحة من أى قبيل جاءتهم • وهذا المعنى هو مناسبة التركيب فى أحرف الكلمة الواحدة ثم ملاءمتها للكلمة التى بازائها ، ثم اتساق الكلام كله على هذا الوجه (١) • وهو يؤمن ايضا بأن اللغة « لا تشب عن أطوار اهلها متى كانت من غرائزهم ، وانما تكون على مقدارهم ضعفا وقوة لانها صورتهم المتكلمة ، وهم صورتها المفكرة ، فهى ألفاظ معانيهم ، وهم فى الحقيقة معانى ألفاظها • ولذلك لا تزيد عليهم ولا ينقصون عنها ، مادام رسمهم لم يتغير وما دامت عادتهم لم تنتقل (٢) » ومن قبل وجهنا ابن جنى عند رؤية شىء لا ينقاد لنا فيما رسمه ، ولا يتابعنا على ما أورده الى السبب الذى لم يمكننا من كشف المناسبة أو الصلة أو اساس الالفاظ أشباه المعانى ، ولكنه لم يبلغ مبلغ الرافعى فى حديثه عن البصيرة النفاذة والالهام الخفى الذى يشبه أن يكون قبسا من النور الآلهى ؛ ان هذا اللغوى الكبير يؤمن بأن المناسبة مما ثبت الله أطنابه ، وأحصف بالحكمة أسبابه ، وهى مراعاة ، وان لم نستطع كشفها وتجلية وجهها • يقول فى الخصائص (٣) : « فان أنت رأيت شيئا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه ولا يتــابعك على ما أوردناه ، فأحد أمرين : أما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه ، أو لان لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا كما قال سيبويه ، أو لان الاول وصل اليه علم لم يصــل الى الآخر • فان قلت فهلا اجزت أيضا ان يكون ما أوردته فى هذا الموضع شيئا اتفق ، وأمرا وقع فى صورة المقصود من غير أن يعتقد ، وما الفرق ؟

قيل فى هذا حكم بابطال ما دلت الدلالة عليه من حكمة العرب التى تشهد بها العقول ، وتتناصر اليها أغراض ذوى التحصيل • فما ورد على وجه يقبله القياس ، وتقتاد اليه دواعى النظر والانصاف حمل عليها ، ونسبت الصنعة فيه اليها •وما تجاوز ذلك فخفى لم توءس النفس منه ،

---

(١) مصطفى صادق الرافعى اعجاز القرآن والبلاغة النبــوية الطبعة الثانية ١٩٢٦ المطبعة الرحمانية ص ٥٤ — ٥٥ •

(٢) نفســه ص ٦٨ •

(٣) ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥ •

ووكل الى مصادقة النظر فيه ، وكان الاحرى به أن يتهم الانسان نظره ولا يخف الى ادعاء النقض فيما قد ثبت الله أطنابه ، وأحصف بالحكمة أسبابه . ولو لم يتنبه على ذلك الا بما جاء عنهم من تسمية الاشياء بأصواتها ، كالخازباز لصوته ، والبط لصوته ، والخاقباق لصوت الفرج عند الجماع . والواق للصرد لصوته ، وغاق للغراب لصوته .. ونحو منه قولهم حاحيت ، وعاعيت ، وهاهيت ، اذا قلت : حاء ، وعاء ، وهاء . وقولهم بسملت وهيللت ، وحولقت ، كل ذلك وأشباهه انما يرجع فى اشتقاقه الى الاصوات ، والامر أوسع » .

ويبدو أن الرافعى وان اتجه الى المبالغة والغلو قد تأثر فى مسألة الوضع بالسابقين الذين يرون أن اللغة سواء أكانت الهاما آلهيا أم كانت اصطلاحا بشريا — لابد فيها من وضع يجعل لفظ كذا بازاء كذا ، بوضع واضع قدر الحاجة اللغوية ، ووضع الكلمات الوافية بها ،كما لحظ الاعتبارات الحيوية المختلفة التى سيحوج اليها الاستعمال فى المستقبل البعيد ، وأعطى الكلمات أحوالها التى تلائم هذا الاستعمال وتيسر أمره .

وأرى أن تعويله على الوضع الذى يفيد التعيين — تعيين اللفظ بازاء المعنى ، يدعم نظرية المناسبة ، فالوضع عمل عقلى صناعى ، وان كان التحقيق يثبت ان عملية الوضع هذه تقوم على أساس مناقض لطبيعة أن اللغة اجتماعية ، وليست اجتهادا عقليا ، أو عملا لفرد أو أفراد (١) .

وفى عرض الرافعى طرق الوضع يهتم بأمر المناسبة اهتماما واضحا فيقول فى الارتجال (٢) : « هو وضع اللفظ ابتداء فى أول أمر اللغة بتقليد الطبيعة كما مر فى موضعه .. » ثم يقرر بعد ذلك أن الارتجال تراعى فيه النسبة بين اللفظ الموضوع والمعنى الموضوع له ، كمحاكاة الاصوات والحركات الطبيعية ونحوها ..

---

(١) أمين الخولى : مشكلات حياتنا اللغوية ص ٤٤ .
(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٦٨ .

أما الاشتقاق فانه يقول (١) : « كل ما وضع من اللغة ارتجالا فانما وضع لمناسبة بين الدال والمدلول على وجه من الوجوه ، ولولا تحقيق هذه المناسبة فى الوضع الاول ماتنبهوا اليه فى الوضع الثانى لان بعض الاشياء يدعو الى بعض ، والارتقاء سنة لابد فيها من اطراد النسبة ، وعلى هذا أمكنهم أن يجعلوا كل مقطع من المقاطع الثنائية أصلا فى الدلالة ثم يفرعون عنه بالاشتقاق معانيه الجزئية المختلفة التى ترجع فى أصل الدلالة اليه ، فكأن المعانى سلاسل مرتبة تنحصر كل طائفة منها تحت جنس معلوم على ما قرروه فى مذهب النشوء والارتقاء .

ولا يزال هذا التسلسل متحققا فى اللغات السامية الباقية الى اليوم وهو أظهر فى العربية منه فى اخواتها حتى ذهب بعض العلماء الذين استقروا تراكيب اللغة الى أن هذا الاصل مستصحب فى كل تركيب ، بحيث لا يخلو مما يرجعه اليه ولو تأويلا من طرق المجاز الا ما تخلف عن سلسلته لامر طارىء على أصل الوضع . كأن يكون مبدلا من لفظ آخر أو مقلوبا عنه أو داخلا فى تركيب المادة من لغة اخرى لان العلماء الذين دونوا هذه اللغة جمعوها من لغات كثيرة بعد أن تداخلت هـذه اللغات بعضها فى بعض . . فخفى بهذا التداخل كثير من وجـوه الوضع الاشتقاقى ، وأضاع النقل كثيرا من ألفاظ اللغة ، مما انثلمت به سلسلة أوضاعها ، فأصبحت بحيث لا يمكن يدل فيها على تحقق التسلسل الا باعتبار الاغلب الاعم » . .

ويذكر الرافعى ما نقل عن بعض المعتزلة أنه ذهب الى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع عن أن يضع . . ثم يقول (٢) : « و أما خواص اهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الالفاظ والمعانى . . »

ويتحدث الرافعى بعد ذلك عن الاشتقاق ثم يقول : « وقد قلنا فى تحقيق المناسبة بين الالفاظ والمعانى ، وأن أكثر أهل اللغة والعربية مطبقون على ثبوتها لانها فى الحقيقة ليست الا توسعا فى المناسبة الاولى

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٩ — ١٧٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧١ .

التى هيأت للواضع أن يضع بالتقليد والمحاكاة ونحن ذاكرون طرفا مما يثبت تلك المناسبة ٠٠ »

ويأتى الرافعي بأمثلة ذكرها البيضاوى فى التفسير ، وهى ألفاظ تتفق فى حرفين وتختلف فى الثالث وترتبط ببعض المعانى ، ويعدها الاديب الباحث مما يثبت المناسبة مثل : « قال البيضاوى فى تفسير قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) (١) أنفق الشىء وأنفده اخوان ولو استقريت الالفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالا على الذهاب والخروج » ٠ وهذا بناء على ما عليه أهل اللغة من أن المشاركة فى أكثر الحروف اشتقاق يدور عليه معنى المادةفيتحد أصل معناها ، ويتغاير من بعض الوجوه ٠

والمراد بالاخوة توافقهما فى الاشتقاق ، وهو هنا الاشتقاق الاكبر أما أنواع النمو فى اللغة فهى لديه تحدد فى جملتها اجزاء اللغة ، وتصف تاريخ اتساعهم فيها ، وهى من هذه الجهـــة تعتبر تماما على الذى تقدم وتفصيلا له (٢) ٠ وهو يؤكد فى بعض هذه الانواع أن اللغة نطق عن الطبيعة ٠ ففى الابدال يقول (٣) : « وقد أسلفنا فى الكلام على أصل الوضع أن الدورة الجديدة التى دارت بها الحروف بعد وضع المقاطع الثنائية كانت بالقلب والابدال ٠ والدليل على ذلك أن اكثر ما يجرى فيه الابدال من اللغة انما هو الالفاظ الطبيعية الاولى التى كانت من حاجة الانسان أول عهده بالتعبير كالقطع والكسر والهدم والشق والخرقة والفرقة والتبديد وهى المعانى الوحشية فى لغة الانســان ٠ ثم لما انقاد الوضع بهذه الطريقة لاهل اللغة جعلوها من سنتهم ، وقلبوا عليها الالفاظ الاخرى مما ليس بسبيل من تلك المعانى ٠ والغريب أن فعـل القطع يكاد يكون الاصل فى اكثر هذه اللغة فقلما تناولت مادة الا رأيت أثره المعنوى فيها ، ولو تأويلا ، من طريق المجاز ، وهذا يؤكد أن اللغة نطق عن الطبيعة » ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ — ١٧٢ وراجع حاشية الشهاب الخفاجى المسماة بعناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى الجزء الاول طبع بولاق ١٢٨٣ هـ ص ٢٢٩ وانظر ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ٠

(٢) مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٨٠

(٣) المصدر السابق ص ١٨٠ — ١٨١

وواضح أن الرجل يشير الى ما صنعه الاتساع ، ويجعل انواع النمو تماما على الذى تقدم وتفصيلا له ؛ ليدل على أن المناسبة تراعى فى هذه الانواع بوجه من الوجوه التى تحققها ، وعند بيان الامثلة نجده يزيد الامر تجلية وتأكيدا ويقضى بمستوى المناسبة . يقول الرافعى (١): « فكل أولئك انما يقع فيه الابدال لتجزئة المعانى فترى الالفاظ متقاربة ترجع الى مقطع واحد ، وهى بعد متباينة فى الدلالة ، وكذلك ترى معانى كل طائفة منها ترجع الى جنس واحد ثم تتباين متقاربة . وبهذا يتحقق الارتباط المتسلسل الذى هو برهان التاريخ على النشء اللغوى .

وقد تجد للمعنى الواحد ألفاظا متعددة فى اللغة ، ثم تجد كل لفظ قد صار أصلا فى الدلالة ، وتفرعت عنه ألفاظ اخرى على طريق الابدال ، ثم يدل بكل لفظ على جزء من أجزاء المعنى . كما تجد من ألفاظ القطع مثلا قط ، وقص ، وجذ ، وغيرها . فان هذه الالفاظ وضعت فى الاصل حكاية لانواع من أصوات القطع اما حقيقية أو متوهمة . فقد تسمع أنت صوت الشىء المقطوع كأنه « قط » ولكن غيرك يتوهمه كأنه « قت » .

وقد يكون لبعض الاشياء المقطوعة أصوات اخرى تحكى (جذ) أو (كس) أو (قص) ، وغيرها . فترى لفظ قط قد صار اصلا وتفرع عنه قطع وقطف وقطب وقطم وقطل ، ونحوها . وترى لفظ (قص) قد تفرع عنه قصم وقصل وقصب وقصر وقصف . ومن لفظ (جذ) جذب وجذر وجذف وجذم . وهكذا . وكلها معان متقاربة تتقلب معها الالفاظ المتفرعة عن مقطع واحد . وهذا هو أكبر أنواع النمو فى اللغة ، لانه أصل نشأتها » .

هذا موقف الاديب الباحث ؛ وقد أشرنا فى المذهب الثالث من مذاهب المحدثين الى رأى بعضهم فى فعل القطع ، واتخاذه حجة فى معارضة فكرة الصلة أو المناسبة .

---

(١) المصدر ذاته ص ١٨١ — ١٨٢

والذى يهمنا الآن انما هو تجلية اسرار النظام اللغوى ، وبيان أنها تقوم على نظرية المناسبة عند الرافعى ، وتعتمد على منهجه فى الاتساع ، والشمول ، وايمانه بالرباط الذى يجمع ضروب النظام اللغوى ويخضعها لنسقه وسيطرته • ولابد لنا من الاشارة الى تمدن العرب اللغوى ، لندرك علاقة الاسرار به •

تمدن العرب اللغوى :

يرى الرافعى أن تمدن العرب اللغوى ، حقيقة لا ريب فيها ، لان هناك كمالا فى وضع اللغة واحكامها على سنن فيها المعنى الالهى ، وفيها الروعة التى تملك على الانسان مذاهب حسه ، وتنساب فى قلبه ، وفيها ما صنعه العقل الحى الذى عول على الحكمة ، والنظرات السامية حتى ظهر سر ابتداعه ولا يمكن انكار هذا التمدن عنده لان اللغة صورة الاجتماع والعرب : « فى تمدن جاهليتهم الفصحى لا يوازنون أمة من أمم التاريخ ، بل هم لولا ما سبق فى علم الله من أمر سيكون فيهم ، وقدر واقع بهم ، وشأن فى الغيب مخبوء لهم ، لما عدموا فى الاعتبار الاجتماعى ان يعدوا موجودات انسانية مهملة كأنهم بقايا منسية من التاريخ • وقد تقرر عند الحكماء أن غنى اللغة بألفاظها ، واتساع وجوه التصرف فيها دليل بين على مدنية اهلها وسعة متفيئهم من ظل الاجتماع فلا يبقى الا أن يكون للعرب تمدن لغوى خصوا به من أصل الفطرة •• » (١)

ومما يؤكد هذا التمدن أن الاحوال الظاهرة للجماعة انما هى مرآة التغيرات الباطنة فى الافراد ، والاجتماع فى معناه ليس الا مجموع آثار العقول وتاريخ التغيرات النفسية • ان وجه المناسبة يسود فلسفة التمدن ، وألوانها تثبت لدى الرافعى أن العرب لا ترى حقيقة لهم ولا يشاهد مظهر الا فى اللغة • وحقيقة التمدن تدل على أن تلك اللغة بحر الحياة : « الذى انصبت فيه جميع العناصر ، وانبعث بها

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢١٤

هذا التيار العقلى الذى يدفع بعضه بعضا ، وكأنها هى التى تهذب من نفوسهم وتزنها ، وتعدلها وتخلصها برقة أوضاعها وسمو تراكيبها ، حتى ينشأ ناشئهم فى نفسه على ما يرى من أوضاع الكمال » (١) •

والنظام النفسى عامل هام فى اثبات التمدن ، بل هو الاساس الذى يمنح اللغة منزلتها ، وشروط التمدن الاجتماعى وهى الحرية والنظام والنمو هى أخص مميزات اللغة العربية ، « فهى حرة فى أوضاعها بما يطابق الحرية الشخصية والسياسية • منتظمة فى أجزائها بما يماثل نظام القوانين والشرائع • • نامية فى مجموعها بما فيها من ثروة الاوضاع •• » (٢) •

والرافعى يغلو فى الامر حين يقول (٣) : « فالعرب اذن قوم معنويون • كان تمدنهم معنويا ، ولو جردتهم من مزايا لغتهم ، وألقيت فى أفواههم أصول اى لغة من لغات العالم لخرجوا بها جنسا مغمورا فى الاجناس ، ولكانت حريتهم عبثا ، ونظام قبائلهم فسادا ، ولصاروا فى الجملة الى حال الشعوب التى لا يدور بها الزمان • • »

وسبق أن ذكرنا رأى البحث اللغوى فى التفضيل ، وأومأنا الى اسراف هذا الاديب الباحث فى تعظيم اللغة اسرافا لم يبلغه احد ، ولكننا نلاحظ أن هذا الكلام فاق كل حد فى المبالغة ، وبدا فريدا فى مسلكه الذى يتجاهل نسق الاعتدال ، ولا يراعى أمر الحقائق اللغوية التى تحتمها الموازنة المنصفة • • ومهما يكن من شىء فانه يقرر أن من وجوه التمدن العناية بتأليف الحروف ، والاعتصام بعذوبة المنطق ، ومراعاة النسب اللفظى ، واحكام الكلام ، وتوخى روعة الاسلوب ، وفخامة التركيب ، ويقضى بأن هذا مما خص به العرب دون سائر الامم ، ويحرص على ذكر وجه الاستغلال المعنوى الذى يقوم على مراعاة السنن الطبيعية الثابتة ، لانهم يفرعون من المعانى فروعا كثيرة بالمجاز

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٥
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٦ — ٢١٧
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٧

والاستعارة ثم يجرون عليها الالفاظ التى تناسبها • وهو حريص كل الحرص على تأكيد نظرية المناسبة التى تجعل الالفاظ تنزل على حكم العرب فى التأليف من العذوبة والمناسبة (١) •

ويرى الاديب اللغوى أن من وجوه التمدن أيضا الحركات التى تخصص المعانى وتعين الاغراض ، ويحكم بأنها من أخص مميزات السمو العقلى ؛ ويذكر أنواعا من الحركات منها الحركات الاعرابية ، التى يقرر أنها فى التمييز بين المعانى لا نظير لها ، فلا يوجد ذلك فى غير لغة العرب • ومنها حركات التصريف وغيرها مما يشير الى الفروق (٢) •

ومن وجوه التمدن التى تستنفد عجب المفكر فى رأيه تصرف العرب فى حروف المعانى ؛ ودلالتهم بالحرف الواحد فى الكلمة على المعانى المختلفة كمعانى الهمزة والباء وغيرهما مما يتصرف به مناحى الكلام أما ما يزيد العجب فهو أن لا يكون بين المعنيين أو المعانى الكثيرة وجوه من الشبه بحيث يتأول فى رد معانيها الاصول بعضها الى بعض (٣) •

ويعتبر الرافعى النظام فى هذه اللغة هو الصلة بين طريقى التمدن اللغوى اللذين هما الحرية والنمو (٤) ؛ ويحتفل بأسرار النظام ، فيجعل لها دراسة خاصة ، وشرحا يعبر عن ادراكه أهميتها ، وفطنته لما تمثله من الجلال فى الدرس ، والتكامل فى النسق ، والسيطرة فى اللغة •

وارحق أنها تستحق هذه العناية التى تبرز فى تاريخ آداب العرب ومنهجها المترابط برهان على أن الرجل له منزلته فى البحث اللغوى ، وله آراؤه التى تحاول الوصول الى نسق شامل يعتبر وجها جديدا فى البحث ، ودراسة متعمقة فى أسرار اللغة ؛ ووجوه التمدن الهامة •

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٧ — ٢١٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٩ — ٢٢٠

(٣) المصدر نفسه ٢٢٠

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٢ . وعبارة الرافعى هو الصلة بين طرقى التمدن اللغوى اللذين هما الحرية والنمو . ولعل المقصود «طرق» التمدن لانه ذكر أن شروط التمدن الحرية والنظام والنمو .

أسرار النظام اللغوى :

يرى الرافعى أنه توجد ثلاثة ضروب تكشف أسرار النظام اللغوى وهــى :

١ ـــ نظام الالفاظ بالمعانى

٢ ـــ نظام المعانى بالالفاظ

٣ـــ النظام المطلق ، وهو نظام القرينة أو الحس النفسى •

وأرى أن الضروب الثلاثة تقوم عنده على نظرية المناسبة ، وهذا يحقق العامل الذى يعطى النسق ترابطا ، ويوجه الدرس اللغوى الى منهج شامل له هيمنته على أضرب النظام ، واخضاعها لما تفرضه وجـــوه المناسبة ، وقد ذهبنا الى ذلك لان الرافعى يحدد ما يقصده بالنظـــام اللغوى فيقول (١) : « لا نريد بمعنى النظام هذه الاحكام الظاهرة فى اللغة كالاعراب ، والتصريف ، والقواعد اللسانية • من نحو عدم الجمع بين ساكنين ، أو متحركين متضادين ؛ فهذا كله ليس الا أسبابا للنظام الذى نشرحه فى هذا الفصل ، وهو يشبه النظام النفسى ، من حيث تعلقه بالحكمة التى تضبط عواطف النفس وخطراتها » وهكذا يشير الى أن نظامه يقوم على مراعاة المناسبة ، لانه يشبه النظام النفسى من حيث تعلقه بالحكمة ، ولانه يعمل على ضبط عــواطف النفس وخطراتها ، وليس أحكاما ظاهرة فى اللغة كالاعراب ، والتصريف ، والقواعد اللسانية •

والرجل يود أن ينبه على أن غرضه تحقيق مستوى يأتى بالترابط ويدلنا على أن منهجه هو منهج الشمول الذى يجد فى النظام النفسى غايته ، ويجد فى الحكمة السر الذى يضع فى هذه الضروب ما عرفه من اتقان أو ما اكتشفه من خصائص • ولا ريب فى أنه يرمى الى أن يصبغ اللغة وبعض ظواهرها بصبغة عقلية ، ويقصد أن يحملنا على التسليم بأن للحالة النفسية أثرا فى معظم ما نراه فى الانظمة الثلاثة المتقدمـــة •

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢٣

ومن الملاحظ أن من الاحكام الظاهرة التى ذكر أنه لا يريدها التصريف ولكننا نجد أنه يذكر الاشتقاق بعد ذلك ، وبين الاشتقاق والتصريف تشابك وتلازم وترابط • قال ابن جنى فى كتابه المنصف (١) : « وهذا القبيل من العلم اعنى التصريف يحتاج اليه جميع أهل العربية لانه ميزان العربية ، وبه تعرف الاصول من كلام العرب من الزوائد الداخلة عليه ، ولا يوصل الى معرفة الاشتقاق الا به » • وقال ايضا(٢) : « وينبغى أن يعلم ان بين التصريف والاشتقاق نسبا قريبا ، واتصالا شديدا » •

ومن المعروف أن أحدهما طريق الى معرفة الآخر

وموقفه من الاعـــراب هو نفس موقفه من التصريفه • وابن السيد البطليوسى يقول فى كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب(٣) : « ولعمرى ان العرب ربما حاكت المعنى باللفظ الذى هو عبارة عنه فى بعض المواضع ، ويوجد ذلك تارة فى صفة الكلمة وتارة فى اعرابها » ويبدو أن الرافعى يرى أن الاعراب والحركات وموقــــع الكلمة بين الكلمات الاخرى لايدخل فى رأيه فى تحديد المعنى والمفهوم حســب المستوى الذى يقصده ـ وانما هذه الامور تحدد صلة الكلمة بالالفاظ المجاورة لها أو على الاصح تحدد صلة معناها بمعانيها ككونها فاعلا بالنسبة للفعل أو خبرا بالنسبة للمبتدأ ، وهذا يدخل فى بحث تركيب الكلام •

ويبدو أنه لايريد أن يأتى بما هو مبســـــوط فى كتب التصريف وكتب النحو من تلك الاحكام الظاهرة ــ لان غرضه هو كشف أسرار المناسبة ، وهذه الاحكام فى رأيه ليست الا أســـــبابا للنظام ، وهى ظاهرة ، يعرفها الناس ، وانما الذى يشبه النظام هو الذى يتجه اليه البحث والاهتمام •

---

(١) ج ١ ص ٢ ، ٣ ــ الطبعة الاولى تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله امين نشر الحلبى سنة ١٩٥٤ م

(٢) نفس المصـــدر

(٣) ص ١٥٧

وأعتقد أن نظام القرينة الذى سيذكره يحتاج الى الاعـــراب والتصريف ، وبعض ماجاء به فى نظام الالفاظ بالمعانى يعــود الى التصريف ، ويرتبط بأحكامه •• وأياما كان الامر فان قواعد النحـــو والتصريف تعين على ادراك الفروق والاسرار التى تكون بين استعمالات اللغة واستخداماتها • واذا كانت الدراسات اللغوية كلها تركز اهتمامها على المعنى فانه يأخذ فى الاصوات « صورة القيم الخلافية بين الصوت والصوت ، وفى التشكيل صورة هذه القيم بين الحرف والحرف ، وبين المقطع والمقطع ، وبين النبر والنبر ، وبين النغمة والنغمة • وأما فى الصرف فيبدو فى صورتها بين الصيغة والصيغة ، وفى النحو بين الباب والباب » (١) •

ولاينبغى أن يغيب عنا أن اللغة منظمة عرفية للرمز الى نشاط المجتمع « وهذه المنظمة تشــتمل على عدد من الانظمــة يتألف كل واحد منها من مجموعة من المعانى تقف بازائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو المبانى المعبرة عن هذه المعانى ، ثم من طائفة من العلاقات التى تربط ربطا ايجابيا ، والفروق « القيم الخلافية » التى تربط سلبيا •• » (٢) •

واللغة منظمة كبرى مكونة من أنظمة هى النظام الصــــوتى ، والنظام الصرفى والنظام النحوى ، وهذه الانظمة تترابط فى مسرح الاستعمال اللغوى فلا يمكن الفصل بينها الا صناعة ولاغراض التحليل فقط (٣) •

---

(١) د : تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٣٢ — ٢٣٣
(٢) د : تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٤
(٣) نفسه ص ٣٧ — ٣٨ ، وانظر ص ٣٤ — ٣٧

الفصل الثالث

نظام الالفاظ بالمعانى

نظام الالفاظ بالمعانى

أشرنا الى أن نظرية المناسبة تتجلى فى ثلاثة أضرب تبرز التمدن اللغوى ، وتحمل أسرار النظام ..

وأول هذه الاضرب هو نظام الالفاظ بالمعانى . وهذا النظام يعنى أن تكون الالفاظ وفق المعانى ، أو بعبارة أخرى يقصد مناسبة الالفاظ لمعانيها . والمراد به عند الرافعى مساوقة الصيغ اللفظية للمعانى الموضوعة لها (١) .

وقد جعل هذا الباحث تلك المساوقة تقوم على أمور يرجع أكثرها الى الاشتقاق ، لان الاصل فى الاشتقاق عنده هو المناسبة فى المعنى والمادة . ولكن كيف تتحقق المناسبة المذكورة ؟

انه يقرر أنهم جعلوا كل مقطع من المقاطع الثنائية أصلا فى الدلالة ، ثم فرغوا منه بالاشتقاق معانيه الجزئية المختلفة التى ترجع فى أصل الدلالة ، اليه . فكأن المعانى فى رأيه « سلاسل مرتبة تنحصر كل طائفة منها تحت جنس معلوم على ما قرروه فى مذهب النشوء والارتقاء . ولا يزال هذا التسلسل متحققا فى اللغات السامية الباقية الى اليوم ، وهو أظهر فى العربية منه فى أخواتها ، حتى ذهب بعض العلماء الذين استقروا تراكيب اللغة الى أن هذا الاصل مستصحب فى كل تركيب ، بحيث لايخلو مما يرجعه اليه ، ولو تأويلا من طريق المجاز ، الا ما تخلف عن سلسلته لامر طارىء على أصل الوضع كأن يكون مبدلا من لفظ آخر أو مقلوبا عنه أو داخلا فى تركيب المادة من لغة أخرى » (٢) .

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢٣

(٢) المصدر السابق ص ١٦٩ — ١٧٠ وانظر حاشية الشهاب الخفاجى المسماة بعناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى ص ٢٥٩ و ص ٢٥٢ ، ٢٥٣

وواضح أن كلامه يؤكد نظرية المناسبة ، فهو يجعل كل مقطع من المقاطع الثنائية أصلا فى الدلالة ، ويجعل الاشتقاق يتولى عملية تفريع المعانى الجزئية المختلفة عنه .

والاديب الباحث يرى رأى عدد من فقهاء اللغة قديما وحديثا . وهو أن الالفاظ العربية ترجع فى منشأها التاريخى القديم الى أصول ثنائية زيدت حرفا ثالثا فى مراحل تطورها التاريخى .

وقد جاء هذا الحرف منوعا للمعنى العام الذى تدل عليه تلك الاصول الثنائية .

ومثال ذلك قط ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم . فالاصل فيه على رأى القائلين بالثنائية هو قط ، والحروف الثالثة الاخرى وهى (ط ، ع ، ف ، ل ، م) منوعة لمعنى القطع ، ومخصصة لـه . (١)

ولامرية فى أن هذا العالم يجد فى النظرية الثنائية ما يتفق مع مذهبه ، فأكثر الذين يقولون بالاصل الثنائى للالفاظ العربية ، يقولون : ان هذه الاصول الثنائية نشأت عن حكاية الاصوات الطبيعية المقارنة للفعل أو الحدث الذى تدل عليه تلك الاصول .

ولا حاجة الى اعادة موقفه من حكاية الطبيعة ، والمهم أن ايمانه بالثنائية برز بصورة تدل على أنه من أشد أنصارها .

أما تشبثه بالاتيان بكثير من الامثلة التى تتفق كلمات كل مجموعة منها فى حرفين ، وتختلف فى الثالث — فلا يعبر فى الحقيقة الا عن اطمئنانه وسعادته بما تحقق لغرضه (٢) . فهذه الامثلة تثبت المناسبة ، بفضل الحرفين المتفقين ، أما التطور الذى قد يومىء اليه الحرف الثالث فلم يكن له تأثير فى معارضة المناسبة أو فى نقض الاصل المعنوى المشترك عنده وبعض المفسرين والمحققين عبرت آراؤهم عن

---

(١) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٩٣

(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢

تأكيد هذا النهج الاشتقاقى فى الاعتماد على اتفاق حرفين ، مما ساند سعيه (١) •

ولعل ايمانه قد زاد بتلك النظرية الثنائية عندما وجد فى بعض المعاجم اللغوية اهتماما بأمور منها فى المنهج والتطبيق • ومعجم الجمهرة وكتاب المقاييس يدعمان عد المضعف الثلاثى من باب الثنائى ، وذلك واضح ، وحين رأى قيام العلماء بصياغة بعض الاسماء والافعال من حكايات الاصوات ، ثم رأى بعضهم يدافع عنها ، ويؤازر القول بها بكل ما يستطاع (٢) • ولا ارتاب فى أنه مأخوذ بما فى الالفاظ من دلالة سحرية ، مؤمن بقيمة الحرف التعبيرية الخاصة ، وهو يعتقد أن كل حرف معبر عن غرض ، وأن الكلمة العربية مركبة من مادة صوتية يمكن حل أجزائها الى مجموعة من الاحرف الدوال المعبرة • فكل حرف منها يستقل ببيان معنى خاص ، ما دام يستقل باحداث صوت معين •

وكل حرف له ظل واشعاع اذ كان لكل حرف صدى وايقاع • واثبات القيمة التعبيرية للصوت البسيط وهو حرف واحد فى كلمة كاثبات هذه القيمة نفسها للصوت المركب ، وهو ثنائى لا أكثر أو ثنائى الحق به حرف أو أكثر أو ثلاثى مجرد ومزيد ، أو رباعى منحوت أو خماسى أو سداسى على طريقة العرب مشتق أو مقيس •

ولا شك فى أنه يؤمن بالتناسب بين اللفظ ومدلوله فى حالتى البساطة والتركيب ، وطورى النشأة والتوليد ـــ بعد هذا الايمان بالمناسبة واشارته الواضحة الى ذلك (٣) • ولكن البحث اللغوى يثبت أن الخوض فى باب الاصل الثنائى صعب يحتاج الى مزيد من النظر الدقيق ، وتقدير ما يقتضيه بعد العهد ، ومراعاة مرور الكلمة

(١) المصدر السابق وانظر الشهاب الخفاجى حاشيته على تفسير البيضاوى ص ٢٥٢ ـــ ٢٥٣

(٢) د : صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ١٥٣ وما بعدها

(٣) الرافعى تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٧٠ ـــ ١٧٤ ، ٢٢٠ . وراجع ايضا ص ٤٩ وما بعدها .

بمراحل طويلة أكسبتها أشياء جديدة فغيرت معانيها ، كما يحتاج الى معجم تاريخى تؤرخ فيه الكلمــات وفق استعمالها خلال العصــور المختلفــة (١) ٠

ولا يكفى اثبات الثنائية فى قسم كبير من المواد العربية ، بل لابد من استقراء واحصاء ودراسة شاملة حتى نقضى بالحق فى هذه المسألة ٠ ولسنا مع الرافعى فى غلوه وقوله بعد ذكر أمثلة اشتركت فى حرفين واختلفت فى الثالث : « ولو استقريت تراكيب اللغة كلها لوجدت مواد كل تركيب ترجع الى أصل واحد ، ولو تأويلا من طريق المجاز الا ما تخلف عن سلسلته لامر طارىء ٠٠ » (٢) ٠

انه يذكر بعد ذلك أن الرواه أغفلــوا كل ما يتعلــق بالجهات التاريخية فى اللغة ، وهذا هو السبب فى انثلام سلاسل الاشتقاق ، وضياع كثير من تلك الانساب ٠٠ ولا أدرى كيف نحصل من كلمة على صورة صادقة صحيحة للاستقراء أو التطــور والحيــاة التى تحياها المفردات بعد ما صرح به من اغفال الرواة ٠٠ وضــياع الحقائق ؟!

وقبل ذلك لم يكشف الرافعى دليلا أو يحدد شيئا عن هؤلاء الذين استقروا تراكيب اللغة كلها : بل ترك الامر غامضا ، واكتفى بقوله : « ذهب بعض العلماء ٠٠ » (٣) ٠

والــذى نعلمه أن الاب مرمرجى الدومنكى قد حاول اثبــات الثنائية باللجوء الى اللغات السامية ، وعالج مواد عربية معينــة ، واستطاع أن يثبت الثنائية فى قسم منها ، ولكنه لم يكن موفقا فى القسم الباقى (٤) ٠

---

(١) د : ابراهيم السامرائى : فقه اللغة المقارن ص ١٩١
(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٧٣
(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٧٠
(٤) د : ابراهيم السامرائى : فقه اللغة المقارن ص ١٩١ وانظر د : صبحى الصالح دراسات فى فقه اللغة ص ١٥٣ وما بعدها .

ولا يكفى لاثبات النظرية الثنائية أن نسوق عشرات أو مئات تتضح فيها هذه الظاهرة فى كلمات لغتنا على حدة أو فى كلمات اللغات السامية ، ولا ينبغى أن نهمل رأى الذين خلصوا الى أن الثنائية لم تكن سوى مرحلة تاريخية ، وأن العربية لم تعد على شىء سوى الثلاثى ، ولابد من معرفة الفرق بين القيمة الذاتية والقيمة المكتسبة ، وأثر ذلك فى قضية المناسبة (١) •

ويبدو أن فى الامر ما يعبر عن ايثار العاطفة ، والغلو فى دعوى « كل التراكيب •• » •

وابن جنى فى كتابه الخصائص يحرص على التنبيه على أنه لايدعى للاشتقاق الاصغر أنه فى جميـــع اللغة ، كمـــا لايدعى أن الاشتقاق الكبير مستمر فى اللغة (٢) •

والعمل الذى قام به ابن فارس فى مقاييس اللغة فيه الـــرد القوى على الزعم بأن تراكيب اللغة كلها عند الاستقراء تثبت أن مواد كل تركيب ترجع الى أصل واحد • فهذا العمل أرجع مواد بعض التراكيب الى أكثر من أصل ، ووصل الامر أحيانا الى ارجاع مواد التركيب الى ستة أصول (٣) •

ولو نظر الرافعى الى ما صـــنعه ابن فارس لمـــا ذهب الى الحكم بأن مواد كل تركيب ترجع الى أصل واحد ، ولو تأويلا •• لو استقرينا تراكيب اللغة كلها ، ففى الحكـــم تعميم وشـــمول لم يؤيده عمل منهجى يملك البرهان القاطع •

ان الاديب الباحث يود أن يعطى العربية شيئا تدفع اليـــه العاطفة والمبالغة ، وينكر اسرافه البحث والتحقيق ، فلا يكفى لاثبات

---

(١) د : صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ١٦٦ — ١٦٩
(٢) ابن جنى الخصائص ٢/١٣٨
(٣) ابن فارس : مقاييس اللغة جـ ٣ ص ٢٩٤ — الصاد والفاء والـــراء وارجاع بعض المواد الى اكثر من أصل • واضح لايحتاج الى تنبيه او اشارة فى هذا المعجم •

نظريته ما أتى به من أمثلة فى لغة عدد موادها لا ألفاظها يزيد على ثمانين ألفا ..

ولم يهتم الرافعى بالفصل بين أنواع الاشتقاق مما أدى الى الغموض واللبس . ومن المعروف أن دراسته من الدراسات التى توجب الوضوح وتحتم النأى عن الخلط والاضطراب حتى يتبين الامر .

وهو يتحدث تارة عما يعرف بالاشتقاق الاصغر ، وتارة يشير الى الاشتقاق الكبير ، وتارة يجعل حكمه شاملا مما يوحى بالتساوى.. اننا نراه يحتفل بذكر المقاطع الثنائية ، وكونها أصلا فى الدلالة ثم يتوجه الى ذكر المناسبة الطبيعية ، ورأى بعض المعتزله فيها .

وقد عرضنا ذلك من قبل . ثم ينتقل الى حديث يجمع عند تأمله ودراسته بين أنواع الاشتقاق دون تفرقة واضحة . فيقول : « وأول من ابتدع القول بأن المعانى سلائل مرتبة ، وأن الالفاظ المختلفة ترد فى الاشتقاق الى قدر مشترك هو فيلسوف العربية أبو الفتح بن جنى .. وكان شيخه أبو على الفارسى يأنس بهذا الرأى قليلا . أما علماء العربية فقد قالوا ان ذلك ليس معتمدا فى اللغة ، لان الحروف قليلة ، وأنواع المعانى المتفاهمة لاتكاد تتناهى . ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين التراكيب المتحدة المادة معنى مشترك بينها هو جنس لانواع موضوعاتها .. » (١) .

والسلائل المرتبة تشمل الاشتقاقين الاصغر والاكبر ، أما الالفاظ المختلفة فهى تعنى الاشتقاق الكبير لانه يقوم على المادة دون الهيئة وهو عند الدارسين عبارة عن ارتباط مطلق غير مقيد بترتيب بين مجموعات ثلاثية صوتية ترجع تقاليبها الستة وما يتصرف من كل منها الى مدلول واحد مهما يتغاير ترتيبها الصوتى (٢) .

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ١٧٠ — ١٧١
(٢) د : صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ١٨٦

وابن جنى قد أولع بهذا النوع من الاشتقاق وسماه بالاشتقاق الاكبر ، وقلنا ان السلائل المرتبة كذلك لانه ذكرها فى تناوله المقاطع الثنائية واعتبارها أصلا ثم أشار اليها بعد ذكر المجموعات الثلاثية التى اتفقت فى حرفين (١) •

والحكم الذى يقضى بعدم الاعتماد فى اللغة نسبه الى علماء العربية وصاحبه الذى قاله فى المزهر هو السيوطى ، ولم ينسبه هذا العالم الى غيره (٢) •

ومما يجدر ذكره أنه قرر أن ابن جنى ابتدع القول بأن المعانى سلائل مرتبة • وليس ذلك من الصواب فى شىء ، فقد سبقت ابن جنى بحوث فى الاصول والاشتقاق ، قام بها الخليل بن أحمد والاصمعى وقطرب وأبو الحسن والاخفش وأبو نصر الباهلى ، والمفضل بن سلمة والمبرد وابن دريد والزجاج وابن السراج وغيرهم (٣) •

وقد نسبت أقوال فى الاشتقاق تفيد أن المعانى سلائل مرتبة الى ابن عباس وغيره من الصحابة (٤) •

وامكان الرجعة بالفروع المختلفة مهما تتعدد صيغها الى أصل واحد يوحى بالرابط المشترك بينها ، أمر فى العربية ذو بال يؤكد احتفاظ هذه اللغة بأنسابها مثلما يحتفظ العرب بأنسابهم « فالالفاظ العربية كالعرب أنفسهم تتجمع فى قبائل وأسر معروفة الانساب وتحمل هذه الالفاظ دوما دليل معناها وأصلها وميسم نسبها • وذلك فى الحروف الثلاثة الاصيلة التى تدور مع ما يتولد عنها ويشتق منها من ألفاظ » (٥) •

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ١٦٩ — ١٧٣
(٢) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ٣٤٧
(٣) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ٣٥١
(٤) رسالة تبيين المناسبات بين الاسماء والمسميات . مخطوطة بدار الكتب برقم ١٩١ لغة تيمور ص ٥ ، ٨ ، ١١ ، ١٤ ، ١٥ وغيرها .
(٥) محمد المبارك : فقه اللغة مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠ ص ٥٤

ولو قرأ الرافعى كتاب الاشتقاق لابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ لرأى ما قدمه هذا الرجل فى المعانى التى تعد سلائل مرتبة ، ولايقن أن ابن جنى ثم بيتدع القول بأن المعانى سلائل مرتبة اذ حاول فى كتاب الاشتقاق أن يرد أسماء قبائل العــرب وعمائرها وأفخاذها وبطونها ، وأسماء سادتها وثنياتها وشعرائها وفرسانها وحكامها ، الى أصول لغوية اشتقت منها هذه الاسماء ويقول ابن دريد فى مقدمة الاشتقاق (١) : « ولم نتعد ذلك الى اشتقاق أسماء صنوف النامى من نبات الارض نجمها وشجرها وأعشــابها ، ولا الى الجماد من صخرها ومدرها وحزنها وسهلها •• » •

والاديب الباحث يعلن بعد ذلك أن درسه فى الاشتقاق يقصد جهة التاريخ منه وكونه سببا من أسباب نمو اللغة ، وطريقة من طرق نشأتها ، أما الكلام على علمه وأقسامه وحدوده ، فهو مبسوط فى كتب الصرف والكتب الاخرى المجردة (٢) ؛ ونحن نعتقد أن اهمال التمييز بين الاقسام لم يكن عملا مناسبا فى مجال المناسبة التى أقام درسه عليهــا ••

والذى نستبينه أن المناسبة اذا كانت قد تحققت عند الرافعى اعتمادا على اشتراك التراكيب فى حرفين فحسب ، مع الاختلاف فى الحرف الثالث فانها بلا ريب تبرز فى الاشــتقاق الصــغير أى بين التراكيب المتحدة المــادة ، ففى هذه التراكيب معنى مشترك هو جنس لانواع موضوعاتها • وكذلك تبرز المناسبة فى الاشتقاق الكبير الذى ذكرنا معناه حيث ترد الالفاظ المختلفة الى قدر مشترك •

ومما يتشبث به الرافعى أن خفاء كثــير من وجــوه الوضــع الاشتقاقى وعدم تحقيق التسلسل أو عدم تحقيق المعنى المشترك — يرجع الى مداخلة اللغات ، وتفريط النقلة ، ونحو ذلك مما لاينتظم

---

(١) ابن دريد : الاشــتقاق : المقدمة ص ٤ تحقيق عبد الســلام هارون وانظر مقدمة مقاييس اللغة — مقدمة التحقيق ص ٢٣ للاستاذ عبد السلام هــارون

(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٧١

به أمر التاريخ اللفظى فى هذه اللغة (١) وما تخلف عنده عن سلسلته انما تخلف لامر طارىء على أصل الوضع (٢) .

ولا ينسى أن ينبهنا على ضرب آخر يحقق المناسبة . فيقول (٣) : « وكذلك ترى فى أكثر صيغ الامثلة من الفعل والاسم على السواء ، فان القياس ثابت فيها ثبوتا بينا كصيغتى فاعل وتفاعل وكوزن فعلة فى الاسماء . وغير ذلك مما نبهوا على اطراد القياس فيه ، وأحصوا شواذه » .

ثم يعقب على هذا بقوله : « وهو خارج عن غرضنا فى هـذا الكتاب » . أما الشىء الذى نسيه فهو عدم ذكر كلام ابن جنى فى تحقيق رأيه فى الفصول التالية (٤) ، لاننا لانجد له شيئا فى الاشتقاق الاكبر القائم على التقليب والتقديم والتأخير ، وانما نجد له بعض أشياء فى غيره .

ويؤكد هذا الاديب الباحث أخيرا بعد ما قدمه فى باب الاشتقاق ــ ايمانه بنظرية المناسبة ، ويدعو الى الكشف عن أسرار الوضع ، وهتك أستار الحكمة المستكنة فى دقائق هذه اللغة العجيبة .

وهو يثق فى أن الدراسة والتدبر والتفقد ، وترتيب الصـيغ والاوزان على ما تقتضيه الاغراض ، بحيث يستقر كل مثال من اللغة فى نصابه ، ويرد الى حيزه ــ كفيل باثبات ما يرمى اليه من سيادة المناسبة ، وبروز الكمال ، والمستوى الذى يوشـك أن يصـل الى الاعجـاز (٥) .

ولا معدى عن أن نقول ان استعماله الادبى للكلمة وثق بـين الاصوات والمدلولات عنده حتى ذهب الى أن هناك صلة عقلية بين الاصوات والمدلولات فى ألفاظ معينة .

---

(١) نفس المصدر والصـفحة
(٢) نفس المصدر ص ١٧٠ — ١٧١
(٣) نفس المصدر ص ١٧٣
(٤) انظر نفس المصدر ص ١٧١ وراجع نظام الالفاظ بالمعانى ص ٢٢٣ وما بعدها
(٥) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ١٧٤

الامور التى تحقق مساوقة الصيغ اللفظية للمعانى :

ذكرنا أن الامور التى تحقق المناسبة أو المساوقة يرجع أكثرها الى باب الاشتقاق ، والذى يهمنا هنا أن نفصل تلك الامور ، بعد أن بينا موقف الرافعى فى هذا الباب ومما يجدر ذكره أن الاديب الباحث عندما تحدث عن المساوقة ذكر ابن جنى ، واهتم بمباحثه ، وأشاد بكتابه الخصائص ، ومنزلته فى الدرس واتقانه فى البحث وتفوقه فى تناول الاشتقاق وايضاح المناسبة على العلماء قبله (١) ..

ولعله يريد أن يفسر سر اعتماده عليه ، وسبب الاطمئنان الى بحوثه . والامور التى تحقق المساوقة أو المناسبة فى نظام الالفاظ بالمعانى هى ما يأتى :

١ — اقتراب الاصول الثلاثية التى فيها الفاء والعين متفقتان واللام مختلفة وقد استشهد الرافعى بأمثلة على ذلك اعتمادا على البيضاوى ، مثل المفلح . « بالحاء والجيم الفائز بالمطلوب كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر وهذا التركيب وما يشاركه فى الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلى يدل على الشق والفتح » ..

ومن هذه الامثلة أن تراكيب الهمزة مع الباء تدل على النفور والبعد والانفصال كاب للسير وابت اليوم اشتد حره فقطع الناس وفصلهم عن أعمالهم وأبد الوحش نفر . وأبر النخل قطع شيئا منه . وأبز الظبى وثب وانطلق . وأبق العبد فر . وأبل توحش وانفصل عن الناس وأبه عن الشى بعد عنه وتنزه . وأبى الضيم نفر منه وهكذا ..» (٢) .

ولم يأت الرافعى بأمثلة ابن جنى التى ذكرت فى هذا النوع مثل رخو ورخود (٣) .

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢٣
(٢) المصدر السابق ص ١٧١ — ١٧٢
(٣) ابن جنى : الخصائص ج ٢ ص ١٤٥

٢ ـ الاشتقاق الكبير الذى سماه ابن جنى الاشتقاق الاكبر وجعله فى باب تصاقب الالفاظ لتصاقب المعانى من التقديم والتأخير على ما يقتضيه تقليب الاصـــول ..

وسبق أن ذكرنا أن الرافعى جعل ابن جنى هو أول من ابتدع القول بأن المعانى سلائل مرتبة ، وأن الالفاظ المختلفة ترد فى الاشتقاق الى قدر مشترك .. وعبارة الرافعى فى باب الاشتقاق وفى نظـام الالفاظ بالمعانى تجعل هذا الاشـــتقاق من الامـور التى تحقـق المساوقة ، وتفيد المناسبة . يقول هذا الباحث فى النظام الاول (١) « والمراد به مساوقة الصيغ اللفظية للمعانى الموضوعة لها وقد ألمنا بأشياء منه فى باب الاشتقاق وذكرنا ثمت أن لابن جنى صـاحب الخصائص كلاما فى هذا المعنى . وابن جنى هذا هو أول من ناهض هذا البحث اتقانا ، وتجلى بأمره افتنانا ، وانما كان العلماء قبلـه يستروحون الى أشياء منه عند الضرورة ويتعللون به ، وأكثرهـم لزوما لذلك شيخه أبو على الفارسى .. » .

ويقول ابن جنى فى باب الاشتقاق الاكبر (٢) : « وهذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا غير أن أبا على رحمه الله ـ كان يستعين به ويخلد اليه ، مع أعواز الاشتقاق الاصغر ، لكنه مع هذا لم يسمه ، وانما كان يعتاده عند الضرورة ، ويستروح اليه ، ويتعلل به . وانما هذا التلقيب لنا نحن ، وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن » .

ولم يذكر الرافعى أمثلة لهذا النوع ، واكتفى بتلك الاشارة السابقة .

وابن جنى يـرى أن تقاليب المـادة الثلاثيـة (س م ل) : (س م ل) (م س ل) (س ل م) (م ل س) (ل س م) (ل م س) ـ مهما تقلبت واختلف ترتيبها الصوتى فان « المعنى الجامع لها المشتمل عليها الاصحاب والملاينة : منها الثوب (السمل) وهو الخلق . وذلك لانه ليس عليه من الوبر والزئبر ما على الجديد ،

---

(١) الرافعى تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢٣
(٢) ابن جنى : الخصائص جـ ٢ ص ١٣٣

فاليد اذا مرت عليه للمس لم يستوقفها عنه جدةالمنسج ، ولا خشنة الملمس . والسمل : المـاء القليل ، كأنه شيء قد أخلق وضعف عن قوة المضطرب ، وجمة المرتكض ، ولذلك قال :

حوضـــا كأن مـــاءه اذا عســـل
من آخـــر الليل رويـــزى ســـمل

وقال آخـــر :

وراد أســـمال الميـــاه الســـدم
فى أخـــريات الغبش المغـــم

ومنها السلامة . وذلك أن السليم ليس فيه عيب تقف النفس عليه ولا يعترض عليها به . ومنها المسل والمسل والمسيل كله واحد ، وذلك أن المـاء لايجرى الا فى مذهب له وامام منقاد به ، ولو صادف حاجزا لاعتاقه فلم يجد متسربا معه . ومنها الاملس والملساء . وذلك أنه ان عارض اليد شيء حائل بينها وبين الملموس لم يصح هناك لمس ، فانما هو اهواء باليد ونحوه ووصول منها اليه لا حاجز ولا مانع ، ولابد مع اللمس من امرار اليد وتحريكها على الملموس ، ولـــو كان هناك حائل لاستوقفت به عنه .

ومنه الملامسة أو لامستم النســاء أى جامعتم ، وذلك أنـــه لابد هناك من حركات واعتمال ، وهذا واضح . فاما (ل س م) فمهمل . وعلى أنهم قد قالوا : نسمت الريح اذا مرت مرورا سهلا ضعيفا ، والنون أخت اللام ، وسترى نحو ذلك » .

والاشتقاق الكبير يحقق المساوقة أو المناسبة لانه يرتبط ارتباطا وثيقا بمذهب المؤمنين « بدلالة الحرف السحرية ، وقيمته التعبيرية الموحية عند أولئك الذين مالوا الى الاقتناع بوجود التناسب بين اللفظ ومدلوله فى حالتى البساطة والتركيب ، حتى رأوا اثبات القيمة التعبيرية للصوت البسيط ، وهو حرف واحد فى كلمة كاثبات هذه القيمة نفسها للصوت المركب ، كيفما كانت صورة تركيبه » (١) .

---

(١) د . صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٢٠٤ — ٢٠٥

والحرف عندما يأتي مقدما أو مؤخرا يوحي بمدلوله الذاتى الخاص ، ويتمتع بالدلالة السحرية الذاتية ، ولاضير فى تقليب كل مادة على وجوهها المحتملة •

وابن جنى على الرغم مما بذله فى الاشتقاق المذكور فانه يقول (١) : « واعلم أنا لا ندعى أن هذا مستمر فى جميع اللغة كما لاندعى للاشتقاق الأصغر أنه فى جميع اللغة ، بل اذا كان ذلك الذى هو فى القسمة سدس هذا أو خمسه متعذرا صعبا كان تطبيق هذا واحاطته أصعب مذهبا وأعز ملتمسا • بل لو صح من هذا النحو وهذه الصنعة المادة الواحدة تتقلب على ضروب التقلب كان غريبا معجبا • فكيف به وهو يساوق الاشتقاق الاصغر ، ويجاريه الى المدى الابعد » •

والحق أن هذا اللون من الاشتقاق لا يطرد ولا ينقاد ، وابن جنى لاينكر ذلك كما صرح ، ولكنه يوجه الى أن انعام النظر وملاطفته وترك الضجر بين قرب بعض من بعض ، والتأمل يوصل الى ما يرجى من البحث (٢) •

٣ — « اثبات أن العرب تقارب حروف الالفاظ متى تقاربت معانيها كقوله تعالى : « انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » أى تزعجهم وتقلقهم ، فهذا فى معنى تهزهم هزا والهمزة أخت الهاء ، فكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لانها أقوى من الهاء كما أن المعنى نفسه أعظم فى النفوس من الهز ، لانك قد تهز مالا حراك له ، كالجزع ونحوه أى فيبقى الهز المقرون بالازعاج خاصا بذى الحياة ، لانه متعلق بالشعور وذلك ما أفادته الهمزة وحدها » (٣) •

والرافعى يلبس هذا الامر ثوب العموم ، ويكتفى بذكر مثال واحد للتقارب بين بعض الالفاظ التى تقاربت فى حرف ، واشتركت فى غيره •

---

(١) ابن جنى الخصائص ج ٢ ص ١٣٨ — ١٣٩
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٢ — ١٣
(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢٤

وما جاء به قد نقله من الخصائص لابن جنى ؛ وان كان قـد تصرف بعض التصرف (١) • والاثبات المذكور هو من الاشـتقاق الاكبر الذى لايقوم على التقديم والتأخير وتقليب الحروف •• وانما يقوم على ارتباط بعض « المجموعات الثلاثية الصوتية ببعض المعانى ارتباطا عاما لايتقيد بالاصوات نفسها بل بترتيبها الاصلى ؛ والنوع الذى تندرج تحته • وحينئذ متى وردت احـدى تلك المجموعات الصوتية على ترتيبها الاصلى فلابد أن تفيد الـرابطة المعنوية المشتركة سواء احتفظت بأصواتها نفسها أم استعاضت عن هـذه الاصـوات أو بعضها بحروف أخـرى تقارب مخرجها الصـوتى أو تتحد معها فى جميع الصفات » (٢) •

وفكرة المناسبة موجودة فيما جاء به الرافعى • فالمثال يوحى بمناسبة حروف العربية لمعانيها ، ويدل على مالمح فى الحرف العربى من القيمة التعبيرية الموحية ، فصوت الهمزة معبر عن غرض ، ومبين معنى خاصا ، مما يشير الى وجود التناسب بين اللفظ ومدلوله عنـد المؤمنين بذلك •

ولا ريب فى أن ابن جنى يعول على دراسة الالفاظ والنظر الى المعانى ويلاحظ الاصوات ودورها •

٤ — « أن هذه المقاربة بين الحروف تقع فيها المراعاة حتى فى الحروف البعيدة ، التى لاتتشابه الا بالتأويل • كقـوله : ان تركيب ع ل م فى العلامة والعلم • وقالوا مع ذلك بيضة غرماء ؛ وقطيع أغرم اذا كان فيه سـواد وبياض ، واذا وقع ذلك بان أحد اللـونين من صاحبه ، وكان كل واحد منهما (علما) للاخر • وهذا المعنى من غ ر م • ولكنه مقارب لتركيب علم ، كما ترى » (٣) •

والنص الموجود بالخصائص يقول (٤) : « وقالوا مع ذلك بيضة عرماء ، وقطيع أعرم » (بالعين لا بالغين كما ذكر الرافعى)•ولعل اتيانه

---

(١) ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ١٤٦
(٢) د . صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٢١٠ — ٢١١
(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢٤
(٤) ابن جنى : الخصائص جـ ٢ ص ١٤٧

بقوله بيضة غرماء وقطيع أغرم (بالغين) • هو الذى جعله يرى أن المقاربة بين الحروف تقع فيها المراعاة حتى فى الحروف البعيدة التى لاتتشابه الا بالتأويل • والصواب هو ما ذكره ابن جنى ، لانه لو كان الامر كما ذكر الرافعى (أغرم وغرماء بالغين) لكان ذلك من الضرب الذى تكون فيه المضارعة فى الاصل الواحد بالحرفين • وابن جنى فى كتابه الخصائص جعل هذا المثال من الضرب الذى تتقارب فيه الحروف لتقارب المعانى والمضارعة فى الاصل الواحد بالحرف الواحد • وكان من الانسب أن يضع الرافعى هذا المثال فى الامر الاول كما صنع ابن جنى الا اذا أراد أن يبين لنا أن تقارب الحروف متى تقاربت معانيها يختلف فى هذا المثال عن المثال الذى ذكره قبل وهو (ألم ترانا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) فهذا فى معنى تهزهم هزا • والتشارك فى حرف هو الزاى •• والمخالفة فى غيره • والتقارب فى الهمزة والهاء • وفى علم فى العلامة والعلم • وفى غرم الاتفاق فى حرف ، والاختلاف فى حرفين ••

ولعله أراد أن يوضح أن التشابه لايوجد الا بالتأويل ؛ والتأويل هو الذى دفعه الى جعل الامر الرابع يختلف عن الثالث ، ولكن معظم أمثلة ابن جنى التى ذكرها فى باب التصاقب فيها وجوه من التأويل •

وقد حكم الرافعى على تركيب علم وتركيب غرم كما ذكر — بأن الحروف بعيدة ، وهذا ليس من الصواب فى شىء ، فان ابن جنى قرر أن الراء أخت اللام وربما اعتقد الاديب أن العين بعيدة عن الغين • وفاته أن العين أخت الغين • وابن جنى نفسه جعل الهمزة اخت الغين ، والعين أقرب الى الغين من الهمزة ، فهى أولى وأقرب • فوصف الحروف فى (ع ل م) و (ع ر م) أو (ع ل م) و (غ ر م) بأنها بعيدة ، وصف غير صحيح •

٥ — « أن المقاربة قد تكون بالمضارعة فى الاصل الواحد بالحرفين كسحل وصهل (فى معانى الصوت) • فالصاد أخت السين ؛ والهاء أخت الحاء ، وسحل وزحر فى الصوت أيضا • فالسين أخت الزاى ، واللام أخت الراء » (١) •

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢٤ • وانظر ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ١٤٩ •

وهذا الامر يمكن عده من باب الاشتقاق الاكبر أيضا ، وحذف الرافعى من كـــلام ابن جنى بعض الشـــواهد ؛ وتصرف بعض التصرف .

٦ — « أن من المضارعة نوعا أحكم من هذا ، وهو المضـــارعة بالاصول الثلاثية فى الفعل (الفاء والعين واللام) نحو عصر الشىء وأزله اذا حبســـه . قال : والعصر ضرب من الحبس ، والعين أخت الهمزة ، والصاد أخت الزاء ، والراء أخت اللام . ونحو الازم أى المنع . والعصب أى الشـــد . فالمعنيان متقـــاربان ؛ والهمزة أخت العين ، والزاى أخت الصاد ، والميم أخت الباء وقد أتى بأمثلة من ذلك ثم قال : وهذا موجود فى أكثر الكلام وانما بقى من يثيره ، ويبحث عن مكنونه ، بل من اذا وضح له ، وكشفت عنده حقيقته أطاع طبعه له ، . وهيهات ذلك مطلبا ، وعز فيهم مذهبا » (١) .

والرافعى يقضى بأن المضارعة فى هذا الضرب أحكم من الاضرب السابقة ولكننا نرى أن التعسف يظهر أشد ما يكون فى هذا النـــوع بعيدا عن المنطق ، فليس هناك اشتراك فى أى حرف ؛ وانما هناك تقارب فى المخارج أو تشابه فيها . والاختلاف فى حرف واحد هو أكثر ما يقوم عليه الاشتقاق الاكبر .

والحكم الذى أتى به الرافعى عقب هذا الضرب وهو أنه موجود فى أكثر الكلام قد يفيد أنه خاص بالمضارعة فىثلاثة أحرف ، لانه وضعه مع هذا النوع وابن جنى أتى بهذا الحكم بعد انتهائه من الحديث عن أنواع التصاقـ ب، وفى اعتقادى أنه لم يخص به النوع الثالث ، بل جعله عاما وهو يقصد التصاقب .يقول ابن جنى (٢) وهذا النحو من الصنعة موجود فى أكثر الكلام وفرش اللغة .. » ويقول فى أول الباب (٣) : « هذا غور من العربية لاينتصف منه ولا يكاد يحاط به .

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢٥ وانظر ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ١٥٠ — ١٥٢ .

(٢) الخصائص جـ ٢ ص ١٥٢

(٣) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٤٥

وأكثر كلام العرب عليه ، وان كان غفلا مسهوا عنه » وهذا يؤكد أن الحكم بالاكثر يتعلق بالتصاقب ، فما جاء فى نهاية الباب هو تأكيد لما جاء فى أوله ، مع زيادة تدعو الى اثارته والكشف عن مكنونه وتوضح السبيل الى حقيقته ..

٧ — « هو اثبات أن العرب يصورون اللفظ على هيئة المعنى . وهذا مذهب قد نبه عليه الخليل وسيبويه ، قال الخليل كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة فقالوا فى العبارة عنه صر ، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا صرصر . وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على فعلان (بثلاث حركات) انها تأتى للاضطراب والحركة . نحو الغليان ، فقابلوا بتوالى الحركات فى المثال توالى الحركات فى الافعال . قال ابن جنى ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء على سمت ماحداه ومنهاج مامثلاه . منها أن المصادر الرباعية المضـــعفة تأتى للتكرر والزعزعة كالقلقلة والصلصلة الخ . وأن الفعلى من المصادر والصفات تأتى للسرعة نحو الجمزى والوقلى الخ . ومنها أنهم جعلوا تكرير العين فى المثال دليلا على تكرير الفعل نحو كسر وقطع الخ .

وانما خصوا العين بذلك لانها أقوى حروف الفعل اذ الفاء قد تحذف نحو عدة وزنة .. واللام كذلك نحو يد وفم .. ولكن قلما تجد الحذف فى العين فلما كانت الافعال دليلة المعانى كرروا أقواها وجعلوه دليلا على قوة المعنى المحدث به . وكذلك يضعفون العين للمبالغة نحو أسدغشمشم ويوم عصبصبونحو اعشوشبالمكانواغدودن الشعرالخ . قلنا ومن هذا الباب ما ذكره ابن فارس أنه سمع من يثق به يقول ان العرب تشوه صورة اللفظ وتقبحها لمقابلة مثل ذلك فى المعنى كقولهم للبعيد ما بين الطرفين المفرط الطول (طرماح) وانما أصله من الطرح ، وهو البعيد لكنه لمــا أفرط طوله سمى طرماحا ومثل ذلك كثير فى أبواب الصفات » (١) .

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ . وانظر كتاب العين للخليل بن احمد : تحقيق د : عبد الله درويش مطبعة العانى بغداد ١٩٦٧ جـ ١ ص ٦٣ — ٦٤ والخصائص لابن جنى جـ ٢ ص ١٥٢ وما بعــدها .

وقد استخلص الرافعي كلامه من الباب الذى ذكره ابن جنى فى الخصائص « باب فى امساس الالفاظ أشباه المعانى » (١)

وهذا الباب عند ابن جنى أغرب من باب تصاقب الالفاظ لتصاقب المعانى ، وأدل على حكمة القديم سبحانه : وتقدست أسماؤه ، وهو عنده أيضا موضع شريف لطيف حرص أن يدعمه بأنه قد نبه عليه الخليل وسيبويه ، وأن الجماعة تلقته بالقبول له والاعتراف بصحته • كما حرص على أن يبين جهده فى الاتيان بما جاء على سمت ماحداه ومنهاج مامثلاه •

ومن غير شك أن الرافعي وجد سندا قويا فى اثبات المناسبة بتلك الجهود التى اختلف مستواها ، وعبارة سيبويه تزكى ما قاله أنصار المناسبة ، وامساس الالفاظ أشباه المعانى فهى تقول : (٢) « ومن المصادر التى جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعانى قولك النزوان والنقزان والقفزان • وانما هذه الاشياء فى زعزعة البدن واهتزازه فى ارتفاع • ومثله العسلان والرتكان •• ومثل هذا الغليان لانه زعزعه وتحرك • ومثله الغثيان لانه تجيش نفسه وتثور • ومثله الخطران واللمعان ؛ لان هذا اضطراب وتحرك • ومثل ذلك اللهبان والوهجان ؛ لانه تحرك الحروتثوره ؛ فانما هو بمنزلة الغليان » •

ويلاحظ أن الرافعى تصرف فى عبارة ابن جنى ولم ينبه على ذلك لانه قال (٣) « منها أن المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرر والزعزعه كالقلقلة والصلصلة الخ » •

وعبارة ابن جنى « وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير نحو الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والقعقعة ، والصعصعة ، والجرجرة ، والقرقرة » (٤) •

---

(١) الجزء الثانى ص ١٥٢ وما بعدها .
(٢) سيبويه : الكتاب جـ ٢ ص ٢١٨ .
(٣) الرافعى تاريخ آداب العرب ص ٢٢٥ .
(٤) ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ١٥٣ .

وسر اتيان ابن جنى بالمصادر الرباعية المضعفة والفعلى فى المصادر والصفات ـ أنهم جعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر ، أعنى باب القلقلة والمثال الذى توالت حركاته للافعال التى توالت الحركات فيها . ولم يأت الاديب الباحث بكل ما ذكره ابن جنى فأخذ من باب الامساس ما أخذ وترك ماترك . ولعل الذى دفعه الى هذا ـ الغموض فى بعض صور الامساس ، وما تركه أصنع مما أتى به فى نظام الالفاظ بالمعانى فقد ترك من باب امساس الالفاظ أشباه المعانى أنهم جعلوا (استفعل) فى أكثر الامر للطلب نحو استسقى ، واستطعم ، واستوهب ، واستمنح واستقدم عمرا ، واستصرخ خالدا . يقول ابن جنى : (١) « فرتبت فى هذا الباب الحروف على ترتيب الافعال . وتفسير ذلك أن الافعال المحدث عنها أنها وقعت من غير طلب انما تفجأ حروفها الاصول أو ماضارع بالصنعة الاصول . فالاصول نحو قولهم طعم ، ووهب ، ودخل ، وخرج ، وصعد ، ونزل . فهذا اخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت ، ولم يكن معها دلالة تدل على طلب لها ولا اعمال فيها .. وكذلك ما تقدمت الزيادة فيه على سمت الاصل نحو أحسن وأكرم ، وأعطى وأولى . فهذا من طريق الصنعة بوزن الاصل فى نحو دحرج وسرهف وقوقى وزوزى . وذلك أنهم جعلوا هذا الكلام عبارات عن هذه المعانى ، فكلما ازدادت العبارة شبها بالمعانى كانت أدل عليه ، وأشهد بالغرض فيه .

فلما كانت اذا فاجأت الافعال فاجأت أصول المثل الدالة عليها أو ما جرى مجرى أصولها نحو وهب ومنح ، وأكرم وأحسن . كذلك اذا أخبرت بأنك سعيت فيها وتسببت لها ، وجب أن تقدم حروفها الاصول فى مثلها الدالة عليها أحرفا زائدة على تلك الاصول تكون كالمقدمة لها ، والمؤدية اليها . وذلك نحو استفعل فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد ثم وردت بعدها الاصول الفاء والعين واللام ، فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك . وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعى فيه والتأتى لوقوعه تقدمه ، ثم وقعت الاجابة اليه فتبع الفعل السؤال فيه ، والتسبب لوقوعه . فكما تبعت

---

(١) الخصائص ج ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٥ .

أفعال الاجابة أفعال الطلب كذلك تبعت حروف الاصل الحروف الزائدة التى وضعت للالتماس والمسئلة • وذلك نحو استخرج واستقدم واستوهب واستمنح واستعطى واستدنى • فهذا على سمت الصنعة التى تقدمت فى رأى الخليل وسيبويه الا أن هذه أغمض من تلك • غير أنها وان كانت كذلك فانها منقولة عنها ومعقودة عليها •• » •

وابن جنى فى الواقع سعيد بهذا النوع من امساس الالفاظ أشباه المعانى اذ يقول بعد ذلك (١) : « ومن وجد مقالا قال به ، وان لم يسبق اليه غيره •

فكيف به اذا تبع العلماء فيه ، وتلاهم على تمثيل معانيه » •

وجماع الامر أن المناسبة تظهر فى الحروف التى تدل على معان خاصة ، كالتى ذكرها ابن جنى ، ويصدرون بها الافعال لتفيد المقصود من الفعل من حال الى حال آخر •

والرافعى فى تصوير اللفظ على هيئة المعنى ينقل ماذكره ابن فارس • وما قاله هذا العالم موجود فى كتابه الصاحبى فى باب فى زيادات الاسماء (٢) • ونصه : « سمعت من أثق به قال تفعل العرب ذلك للتشويه ، يقولون للبعيد ما بين الطرفين المفرط الطول « طرماح » • وانما أصله الطرح • وهو البعيد . لكنه لما أفرط طوله سمى طرماحا ، فشوه الاسم لما شوهت الصورة • وهذا كلام غير بعيد » •

ويشير ابن فارس بقوله « ذلك » الى قوله « ومن سنن العرب الزيادة فى حروف الاسم ، ويكون ذلك اما للمبالغة . واما للتشويه والتقبيح »•

ولا يشير أبو منصور الازهرى الى ذلك التشويه فى (طرماح) وانما يقول (٣) : « ويقال طرمح الرجل بناءه اذا رفعه ، وبه ، وسمى

(١) ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ١٥٥ .
(١) ص ٧٠ .
(٣) أبو منصور الازهرى : تهذيب اللغة جـ ٥ ص ٣٢٨ .

الطرماح وأنه لطرماح فى بنى فلان اذا كان عالى الذكر والنسب • قال أبو زيد • يقال : أنك لطرماح ، وانكما لطرماحان ، وذلك اذا طمح فى الامر •

وابن فارس نفسه يقول فى المقاييس (١) : « ومن ذلك طرمح البناء أطاله • ومنه اسم الطرماح • والاصل فيه الطرح وهو البعيد ، والطويل وقد فسرناه » •

وفى القاموس : « الطرموح كزنبور الطويل ، وكسنمار العالى النسب المشهور والطامح فى الامر •• والطرمح البعيد الخطو • والطرمحانية التكبر ، وطرمح بناءه طوله » •

وفى تصريف الاسماء للشيخ محمد الطنطاوى (٢) : أن الطرماح الطويل من مزيد الرباعى ، من النوع الذى جاء على ستة أحرف وفيه حرفان زائدان •

والرافعى يرى أن ذلك كثير فى أبواب الصفات ، ثم لا يأتى بأمثله مكتفيا بما قاله ابن فارس فى الطرماح • ولكن ابن السـيد البطليوسى (٣) يوضح لنا الامر ، ويأتى لنا بأمثلة فى الاقتضاب • يقول هذا اللغوى : « ولعمرى ان العرب ربما حاكت المعنى باللفظ الذى هو عبارة عنه فى بعض المواضع • ويوجد ذلك تارة فى صـفة الكلمة ، وتارة فى اعرابها • فأما فى الصفة فقولهم للعظيم اللحية لحيانى • وكان القياس أن يقول لحيى • وللعظيم الرقبة رقبانى • والقياس رقبى ، وللعظيم الجمة ، الجمـانى ، والقياس جمى • فزادوا فى الالفاظ على ماكان ينبغى أن يكون عليه كما زادت المعـانى الواقعة على نظائرها •• » •

ويرى ابن السيد أن ذلك قياس لايطرد (٤) •

---

(١) الجزء الثالث ص ٤٥٧ .

(٢) ص ٣٣ (الطبعة الخامسة ١٩٥٥ مطبعة وادى الملوك) .

(٣) ابن السيد البطليوسى : الاقتضـاب فى شرح أدب الكتاب ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٤) المصدر السـابق ص ١٥٧ — ١٥٨ .

٨ — « ومن نظام الالفاظ بالمعاني أنهم يقابلون الالفاظ بما يشاكل أصواتها من الاحداث فيجعلون كثيرا أصوات الحروف على سمت الاحداث المعبر عنها كقولهم خضم وقضم . فالخضم لاكل الشيء الرطب ، والقضم لاكل الشيء الصلب اليابس ، فاختاروا الخاء من أجل رخاوتها للرطب ، والقاف من أجل صلابتها لليابس فحذوا بمسموع الاصوات على حذو مسموع الاحداث . ومن ذلك النضح للماء الخفيف لرقة الحاء ، والنضخ لما هو أقوى منه ، وذلك لغلظ الخاء . ومنه أيضا قولهم القد للقطع طولا ، والقط له عرضا ، وذلك لان الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعا له من الدال فجعلوا الطاء لقطع العرض لقربه وسرعته ، والدال لما طال من الاثر . وهو قطعه طولا .

والامثلة من ذلك كثيرة في اللغة تبادر من يلتمسها . وقد أتى ابن جني بعدة منها ، ونقل السيوطي في أوائل المزهر عن غيره أشياء أخرى وكلها تدل على أنهم يضبطون نظام الالفاظ المقترنة المتقارنة بالمعاني فيجعلون الحرف الاضعف فيها والالين والاخفى والاسهل والاهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتا . ويجعلون الحرف الاقوى والاشد والاظهر والاجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسا .

ومن أجمع الامثلة لذلك ما أورده الثعالبي في فقه اللغة قال : اذا أخرج المكروب أو المريض صوتا رقيقا فهو الرنين ، فان أخفاه فهو الهنين ، فان أظهره فخرج خافيا فهو الحنين ، فان زاد فيه فهو الانين ، فان زاد في رفعه فهو الخنين » (١) .

وواضح أن هذا يؤكد القيمة التعبيرية للحرف الواحد وهو بسيط يقع في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها . كما يؤكد أن هناك فروقا وأشباهها باختلاف الحرف بحسب القوة والضعف . ان الحرف وهو جزء من كلمة يقع على صوت معين ثم يوحي بالمعنى

---

(١) الرافعي : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ . وانظر ابن جني الخصائص ج ٢ ص ١٥٧ — ١٦٢ والسيوطي المزهر ج ١ ص ٥٠ — ٥٥

المناسب ، وقد مثل الرافعى اعتمادا على ابن جنى لما وقع فى أول الكلمة وما وقع فى آخر الكلمة ، وذكر بعد ذلك أن الامثلة كثيرة فى اللغة تبادر من يلتمسها • ويبدو أن حكمه بالكثرة جاء بناء على ما وجده فى الخصائص والمزهر والدليل على ذلك أن السيوطى نقل ما جاء بالخصائص وهو (١) : «فأما مقابلة الالفاظ بما يشاكل أصواتها من الاحداث فباب عظيم واسع ، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم ، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الاحداث المعبر بها عنها ، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها • وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره •• » • وبعد أن ذكر أمثلة الباب قال : « وهذا الباب واسع جدا لايمكن استقصاؤه » وينصح ابى جنى فى الخصائص (٢) أن نأتى هذا الامر من بابه ، ونصلح الفكر لتناوله وتأمله ، ليعطينا مقادته ، ويركبنا ذروته ، ويجلو بهجاته ومحاسنه ، ويوجهنا الى النأى عن التناكر واعتباره من الامر المنتشر والمذهب الصعب الموعر حتى لانحرم لذته ، ونسد باب الحظوة به •

واهتم السيوطى بتلك الظاهرة ظاهرة مقابلة الالفاظ بما يقابل أصواتها من الاحداث ، وأتى بأمثلة أخرى اعتمادا على كتاب الجمهرة لابن دريد ، والابدال لابن السكيت ، والغريب المصنف لابى عبيد ، وديوان الادب للفارابى ، وفقه اللغة للثعالبى • ويقول السيوطى (٣) بعد نقل من الجمهرة : « فانظر الى بديع مناسبة الالفاظ لمعانيها ، وكيف فاوتت العرب فى هذه الالفاظ المقترنة المتقاربة فى المعانى ، فجعلت الحرف الاضعف فيها والالين والاخفى والاسهل والاهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتا ، وجعلت الحرف الاقوى والاشد والاظهر والاجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسا •• » •

والرافعى نقل هذا بتصرف •• ولاريب أن الفكرة التى تجلت عند ابى جنى أوحت الى بعض الباحثين بنظرية القيمة التعبيرية أو البيانية للحرف فى الالفاظ العربية • وأيا ما كان الامر فان البحث فيما

---

(١) المزهر ج ١ ص ٥٠ — ٥١ .
(٢) ج ٢ ص ١٦٢ .
(٣) المزهر ج ١ ص ٥٣ .

بين جرس الالفاظ ومعانيها من مناسبة هو من المباحث اللطيفة فى كل لغة والسيوطى على حق فى هذا الاهتمام الذى أعطاه له .

٩ — « أنهم قد يضيفون الى اختيار الحروف تشبيه أصواتها بالاحداث المعبر عنها وتقديم ما يضاهى أول الحدث (المعنى) وتأخير ما يضاهى آخره . سوقا للحروف على سمت المعنى المقصـــود . والغرض المطلوب كقولهم شد الحبل فالشين لما فيهـــا من التفشى تشبه بصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ثم يليها احكام الشد والجذب ، فيعبر بالدال التى هى أقوى من الشين لاسيما وهى مدغمة . فهى أقوى لصيغتها ، وأدل على المعنى الذى أريد بها . وكذلك جر الشىء قدموا الجيم لانها حرف شديد . وأول الجر مشقة على الجار والمجرور جميعا . ثم عقبوا ذلك بالراء وهى حرف تكرير وكرروها مع ذلك فى نفسها ، وذلك لان الشىء اذا جر على الارض اضطرب فى غالب الامر صاعدا عنها ، ونازلا ، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلق . فكانت الراء لما فيها من التكرير ولانها أيضا قد كررت فى نفسها أوفق بهذا المعنى من جميع الحروف » (١) .

وقد اكتفى الرافعى بالاستشهاد بشد . وأما ابن جنى فذكر بحث وجـــر الى جـــانب شد ، وقارن بين هذا اللون من اللغة وبين ما سبقه ، وقرر أن اللطف فيه أظهر ، والحكمة أعلى وأصنع . ونفهم مما ذكره تعميم هذه النظرة واطراد القول فى التقابل بين كل صوت فى الكلمة وجزء من أجزاء معناها بحيث أن المعنى العام للكلمة ناشىء عن اجتماع معانى الحروف المركبة لها (٢) .

ويشير هذا اللغوى بعد أن ذكر دلالة أصوات حروف الكلمة على أجزاء الحدث الذى تـ دل عليه مستشهدا بما أتى به — الى أنه قد يرى شىء من هذا النحو لاينقاد فيما رسمه ، ولايتابع على ما أورده ولذلك يقضى بالسبب ، وقد سبق أن أشرنا اليه (٣) .

---

(١) الـــرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢٧ . وانظـــر الخصائص ٢/١٦٢ — ١٦٣ .

(٢) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٦٠ .

(٣) انظر هذا البحث ص ٤٠ ، ٥٢ — ٥٣ .

ويتمسك صاحب الخصائص بقضية المناسبة مناسبة الالفاظ للمعانى ، ويرفض أن تكون هذه المناسبة شيئا اتفق ، وأمرا وقع فى صورة المقصود من غير أن يعتقد فيبدو تحمسه الشديد ودفاعه عن فكرته بكل ما استطاع ، مستندا الى حكمة العرب ، وماثبت الله أطنابه ، ومرشدا الى تأييد دواعى النظر والانصاف ، ومؤازرة أغراض ذوى التحصيل (١) ولاغرابة فى ذلك فانه مؤمن أشد الايمان بسوق الحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب ، حتى أنه يراه أحيانا أمرا محسوسا محصلا فأى شبهة تبقى بعده ، أم أى شك يعرض على مثله ؟ (٢) .

ويأتى الرافعى بعد انتهاء حديثه عن الامور التى تحقق المساوقة ، فى نظام الالفاظ بالمعانى ــ بما وصفوه من حكاية الاصوات ، وذلك أنهم يشتقون اللفظ من نفس الصوت القائم بمعناه على جهة الحكاية، وتصوير الاشياء بأصواتها . ويجعل هذا مما يلتحق بهذا الباب ، ويقول : (٣) « وهذا النوع يعده أدباء الغربيين من مبدعات القرائح . ومما يحضرنا منه للعرب قولهم فى حكاية صوت مصراعى الباب الكبير اذا أغلق جلنبق ، وقول الشاعر (جرت الخيل فقالت حبطقطق) .

وقول الآخر فى الابل (تداعين باسم الشيب) يحكى صوت مشافرها . وهذا غير الاصوات التى يعبرون بها عن الاحداث وان كانت مشتقة منها كالعطعطة للاصوات المتتابعة فى الحرب والقهقهة للاستغراب فى الضحك وأمثال لذلك كثيرة » .

والحق أن ابن جنى أتى بما جاء عنهم من تسميتهم الاشياء بأصواتها ليدعم ما أورده فى باب امساس الالفاظ أشباه المعانى ، ويؤكد أن الله قد ثبت أطنابه ، وأحصف بالحكمة أسبابه ، فهذه الاشياء فى نظره تكفى للتنبيه على ذلك . وتصلح دليلا على ما نادى به من الامساس .

---

(١) ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ١٦٤ ــ ١٦٥ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٦٣ .
(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٢٨ .

ومما يلفت النظر أن ابن جنى أتى ببسملت وهيللت وحولقت وقضى بأن ذلك وأشباهه انما يرجع فى اشتقاقه الى الاصوات . والامر أوسع (١) .

وهذه الالفاظ من باب النحت . ولم يذكرها ابن فارس فى مقاييسه على الرغم من عنايته بهذا النوع من الاشتقاق ونظريته فيه. وقد أهمل الاديب الباحث أمثلة النحت التى ذكرها ابن جنى فى باب الامساس .

ولم يشر صاحب الخصائص عند ذكر هذه الامثلة الى ظاهرة النحت اشارة صريحة ، وهو يعد فى رأيى من نظام الالفاظ بالمعانى ، وان كان الاستاذ محمد المبارك فى كتابه فقه اللغة وخصائص العربية (٢) يرى أن طريق النحت « وهو ادغام لفظين ، ودمجهما فى لفظ واحد — طريق قلما يسلكونه ، ونهج قلما يتبعونه ، وان جرى به لسانهم فى مثل بسمل وحوقل وعبشمى ، وادعاء أن الرباعى والخماسى كلاهما يرجع الى ثلاثيين نحت منهما لفظ واحد قد يكون حقا ، ولكنه يعود الى تاريخ اللغة ومراحلها الماضية لا الى مرحلتها الاخيرة المستقرة التى غدا النحت فيها طريقا لا يسلكه العرب الا فى النادر من الاحوال » ولست مع الباحث المذكور فللنحت شواهده الكثيرة فى مقاييس اللغة وله صلته الوثيقة التى تربطه بالاشتقاق ، وتأكيده أن السوابق والاواسط واللواحق بقايا كلمات قديمة مستعملة تناسب ما لمح فى الحرف العربى من قيمة تعبيرية (٣) ، وأنه من أهم الوسائل فى تكوين كلمات جديدة بقصد الدلالة على معان جديدة .

ما يؤخذ على الرافعى :

ولايتسع المجال هنا لشرح تلك الظاهرة التى تعد من أهم الامور فى نظام الالفاظ بالمعانى ، وحسبنا أن نأخذ على الرافعى اهماله الاشتقاق الكبار ، فى تفصيله النظام الاول من أنظمة التمدن .

---

(١) الخصائص ج ٢ ص ١٦٥ .
(٢) ص ٢٨٨ وانظر ص ١٤٨ — ١٤٩ .
(٣) انظر د. صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٢٤٧ وما بعدها ، ومحمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٠٤ — ١٠٥

كما نأخذ عليه هذا المنهج الذى سار عليه فى هذا النظام ، فقد ذكر سبعة أمور حاولها ابن جنى فى كتابه تتعلق بغرض المؤلف « أى الرافعى » والحقيقة أن هذا اللغوى لم يذكر هذه الامور فحسب فى باب التصاقب وباب الامساس بل ذكر أمورا أخرى ، ولكن الرافعى لجأ الى التشتيت وأصابه الاضطراب ؛ فالحديث عن الاشتقاق ثم الاتيان بالامور السبعة وفيها ضروب من الاشتقاق ، وبعضها لايعد منه — يؤدى الى اللبث ويقود الى الغموض ولو راعى الدقة لنبه على أن ابن جنى عالج كثيرا من مسائل أو أمور نظام الالفاظ بالمعانى فى بابين — باب فى تصاقب الالفاظ لتصاقب المعانى وباب فى امساس الالفاظ أشباه المعانى ، وقد عرض فى باب التصاقب ألوان الاشتقاق التى تدخل فى نظام الالفاظ بالمعانى .

ونحن قد بذلنا جهدا كبيرا فى جمع الامور التى تحقق المساوقة ورتبناها وجعلناهافىنسق يمنع الاضطراب وينأى عن اللبس أو الخلط والامران اللذان وضعنا هما قبل السبعة التى استخلصها الرافعى — أتينا بهما من باب الاشتقاق ، والرافعى فى هذا الباب اعتبرهما من الادلة التى تؤكد المناسبة ، واكتفى فى نظامه الاول بالايماء الى أنه ذكر أشياء من المساوقة فى باب الاشتقاق ثم أخذ يذكر الامور السبعة فى جو يوحى بأن المساوقة تعتمد عليها ؛ ولاتعول على غيرها مما أثار شيئا من الغموض والحيرة والخلط .

ومن الواضح أن أنصار المذهب الثالث فى نظرية المناسبة الذين يرون أن الامر لايعدو أن يكون اصطلاحا عرفيا جرى عليه الناس فى كلامهم وأنه لاعلاقة بين الاصوات والمدلولات الا بمقدار ماسمح به العــرف والاصطلاح — لايؤيدون الرافعى فيما قالــه أو انتهى اليه فى نظام الالفاظ بالمعانى من اثبات المناسبة ، اعتمادا على الامور السبعة التى نقلها من كتاب الخصائص أو غيرها ولاحاجة بنا الى أن نعيد الاسباب التى يستندون اليها أو الادلة التى ذكروها . وقد لاحظنا أن نظام الالفاظ بالمعانى يعد فى أكثر أموره دراســة للمعنى من وجهة النظر الاصواتية ؛ فهو يركز اهتمامه على ملاحظة الكلمتين ، فى جو ينأى عن المجازفة والاعتباط ، ويفضل الموازنة والتأكيد بأن اللفظ كلما ازداد قربا بالمعنى كان أدل عليه ، وأشهد بالغرض منه

ويمكن القول بأن دراسة ابن جنى فى الاصوات واهتمامه بالتغير الصوتى والتقابلات الصوتية ، كشفت له أسرارا ونبهته على أمور •

ويبدو أن ذلك أدى الى الخضوع لعملية نفسية هى التى تسمى بتداعى المعانى أى أن المعنى حين يخطر فى الذهن يدعو الى مايشبهه أو يقاربه وهنا قد يخطر فى الذهن فكرة الربط بين مجموعة من الالفاظ المتشابهة المتقاربة بمجموعة من المعانى المتشابهة أو المتقاربة ، مما أدى الى شعوره بوثوق الصلة بين الالفاظ والدلالات ، وتوصله الى تصاقب الالفاظ لتصاقب المعانى ، وتصور نوع من المناسبة بين الاصوات وماتدل عليه •

ولم يقف صاحب الخصائص عند هذا الحد فقد استفاد مما توصل اليه ، واجتهد فى عملية الموازنة والتحقيق معتمدا على شدة درايته بالاصوات ، وقوة تعمقه فى المعانى ، وسعة معرفته بالتأويل مما ساعد على كشف الضروب التى فيها اساس الالفاظ أشباه المعانى ••

والرافعى يعتصم بأثر تلك الدراسة الصوتية ، ويعتبرها برهانا على النظرية التى تسيطر على درسه وتثبت التمدن ••

ويبدو أن ابن قتيبة قد اهتم بالاسماء المتقاربة فى اللفظ والمعنى ففى هذا الباب ملاحظات وأحكام وفروق بين الالفاظ تثبت الاهتمام بالدراسة الصوتية ، وتبين العناية بملاحظة الصلة بين اللفظ والمعنى (١) •

وفى الاقتضاب (٢) قول ابن قتيبة فى هذا الباب النضخ أكثر من النضح ولايقال من النضخ فعلت ، وفيه (٣) قوله أيضا الخضم بالفم كله والقضم بأطراف الاسنان •

---

(١) ابن السيد البطليوسى : الاقتضاب فى شرح الكتاب ص ١٥٧ — ١٥٨ •

(٢) نفس المصدر ص ١٥٧ •

(٣) نفس المصدر والصفحة •

وابن السيد البطليوسي يحقق هذا الامر فيقول (١) : « قد قيل أن الخضم أكل الرطب وان القضم أكل اليابس • وذكر ابن جنى رحمه الله أن العرب اختصت اليابس بالقاف ، والرطب بالخاء لان فى القاف شدة ، وفى الخاء رخاوة ، وذكر أشياء من هذا النحو •

ولعمرى ان العرب ربما حاكت المعنى باللفظ الذى هو عبارة عنه فى بعض المواضع ، ويوجد ذلك تارة فى صفة الكلمة ، وتارة فى اعرابها ، فأما فى الصفة فقولهم للعظيم اللحية لحيانى ، وكان القياس أن يقال لحيى،وللعظيم الرقبة رقبانى والقياس رقبى ، وللعظيم الجمة الجمانى والقياس جمى فزادوا فى الالفاظ على ما كان ينبغى أن يكون عليه ، كما زادت المعانى الواقعة على نظائرها • وكذلك يقولون صر الجندب اذا صوت صوتا لاتكرير فيه فاذا كرر الصوت قالوا صرصر • وأما محاكاتهم المعانى باعراب الكلمة دون صيغها فانا وجدناهم يقولون صعد زيد الجبل ، وضرب زيد بكرا فيرفعون اللفظ كما ارتفع المعنى الواقع تحته ، ولكن هذا قياس غير مطرد ألا تراهم قالوا أسد وعنكبوت فجعلوا اللفظين مخالفين للمعنيين ، وقالوا زيد مضروب فرفعوه لفظا وهو منصوب معنى • وقالوا مات زيد وأمات الله زيدا وأحدهما فاعل على الحقيقة ، والآخر فاعل على المجاز •• فاذا كان الامر على هذا السبيل كان التشاغل بما تشاغل به ابن جنى عناء لا فائدة فيه » • وما قاله ابن السيد لايمنعنا من القول بأن البحث فيما بين جرس الالفاظ ومعانيها من مناسبة هو من المباحث اللطيفة فى كل لغة ، وهو بحث جدير بالعناية ، ولافت للنظر ، ولايمنعنا من تقرير أن ابن جنى له فضل تجلية هذا البحث بدراسة واسعة ، وكشف أسراره باهتمام بالغ •

والفكرة التى تجلت عنده أوحت الى بعض الباحثين فى العصر الحديث بنظرية القيمة التعبيرية أو البيانية للحرف فى الالفاظ العربية ، وفى بحثنا اشارات قدمناها تفيد ذلك •

ومن الثابت أن الرافعى كان متعصبا فى نظام الالفاظ بالمعانى لنظرية المناسبة لايريد أن يتصور كلمات ليس فيها مناسبة بين اللفظ

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٧ — ١٥٨ •

والمعنى ، ولقد بذل جهدا فى مناصرة نظريته ، ولم يكن على استعداد للتنازل أو الرجوع عن رأى ارتضاه •

وعندى أن طبيعة نظرية المناسبة هى التى قضت عليه أن يعول على ابن جنى ، ولايبذل جهدا كبيرا فى مجال الملاحظة والاستنباط ، فهو لايريد لنظريته أن تتصدع أو تفقد قوة السيطرة والضبط • واللغة عند من لايؤمنون بهذه المناسبة التى وصلت الى مستوى الاطراد عند الرافعى ، والكثرة عند ابن جنى ظاهرة اجتماعية تتنافى مع مايفرضه التعسف والغلو،وتجعل الباحثيستسلم للملاحظة والوصف والتسجيل فى جو ينأى عن الخضوع لسلطان يجافى ماتسير عليه ، ونهج يعتصم بالاستقراء والتحرى •

وقد اعتمد الاديب فى نظامه على الاشتقاق الكبير ، ولايستطيع أحد أن يدعى اطراده • فبعض المواد لايمكن أن يتحقق فيها التناسب ، وبعض المواد لم يسمع فيها تقلبات كدحضت رجله اذا زلقت ، ومن استعمالاته المجازية دحضت رأيه • ولم يرد تصرف فى هذه المادة بتقديم أو تأخير • ودراسة بعض المواد تثبت التكلف البعيد فى الرد الى أصل واحد شديد العموم ، وتظهر التعسف بالاكثار من اخراج الكلام عن ظاهره ، ومجاوزة الحد فى الجمع بين صور متعددة ربما تتلاقى فى بعض الاشياء ، ولكنها أيضا تتباين فى أشياء (١) •

والبحث العلمى المنهجى يكره الترف العقلى ، أو التزيد العلمى ، ويرى أن مذهب الترفق فى هذا الضرب من الاشتقاق ، وعدم المبالغة مقبول • أما التكلفالذى لايطاق ، والخروج عن مدلول اللفظ الاصلى، والتمسك بالتعسف فى التعليل والتفسير (٢) — فهو مذهب غير مقبول •

وسبق أن أشرنا الى قول السيوطى فى هذا الاشتقاق الكبير انه ليس معتمدا فى اللغة ، ولايصح أن يستنبط به اشتقاق فى لغة

(١) د : صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٢٠١ .
(٢) انظر : السيوطى المزهر ٣٥٤/١ .

العرب (١) ويتهم السيوطى ابن جنى بأنه توسع فى هذا الاشتقاق « بيانا لقوة ساعده ، ورده المختلفات التى قدر مشترك ، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيغ ، وأن تراكيبها تفيد أجناسا من المعانى مغايرة للقدر المشترك .. » (٢) .

والحق أن لكل صورة من صور التقاليب مفهوما دقيقا وايحاء خاصا يرفض اللجوء الى الابهام والغموض ، والذهاب الى شدة العموم ، وكراهية التحديد والتفصيل .

واذا كان الرافعى يجعل الحرية من أخص شروط التمدن (٣) ، فان مسلكه فى نظام الالفاظ بالمعانى يدل على أنه يؤيد من كبح أنفاس اللغة فى مضيق ، ويؤازر من حبس قواها عن التفلت والانطلاق بالاشتقاق الكبير وما جر من أمور .

وما نود مساندة من يترك المدلول الدقيق ، ويرحب بالمدلول العام الذى تخضع لهسائر التقاليب وان أجبر الكلمة على أن تعبر عن معنى غير معناها ، وتوحى بأمر عام يباين مدلولها الذاتى الخاص .

ومن الانصاف أن نذكـــــر أن الرافعى لم يقم بابداء رأى أو تحقيق حكم أو ابطال زعم عندما رأى التكلف والتعسف ، وانما وقف موقف التسليم ، ولعله اطمأن اطمئنانا كاملا الى ما قيل وقـــرت عينه بما وجده من الخواطر الطريفة ، والملاحظات التى تناسب نزعته الادبية ، ومسلكه فى التعظيم اللغوى .

ومن الملاحظ أننا نجد أمثلة لاتفرق بين صوت وصوت كما صنع ابن جنى ، فمثلا نجد فى ابدال الهمزة هاء : أيا وهيا ، واياك وهياك ، واتمأل السنام واتمهل اذا انتصب ، وأرحت دابتى وهرحتها ، وأبزت له وهبزت له وأرقت الماء وهرقته (٤) . والمعنى كما هو واضح واحد ، والاختلاف فى حرف واحد . والعلاقة بين الحرفين هى التجانس .

---

(١) هذا البحث ص ٧٠ والمزهر ١/٣٤٧ .
(٢) السيوطى المزهر ١/٣٤٧ .
(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢١٦ .
(٤) الســيوطى : المزهر ١/٤٦٢ .

وابن جنى كما سبق جعل الهمزة أقوى من الهاء ، وهنا يثبت ما يخالف ذلك مما يدل على عدم اطراد مسألة قوة الحرف وضعفه أو عظمة المعنى وحقارته • ومن المعروف أن الابدال يحتمل كثيرا فى لفظتيه أن تكونا مترادفتين ، تفيدان فائدة واحدة من غير تفاوت بل ربما كان أنصار تصاقب الالفاظ لتصاقب المعانى يشترطون هذا الضرب من الترادف بين اللفظتين المبدلة والمبدل منها ، والا لتصاقبت الالفاظ من غير أن تتصاقب معانيها (١) •

وعلى الرغم مما ذهب اليه ابن جنى فى الاشتقاق الاكبر الذى يقوم على الابدال فانه لم يصنع ما صنعه بعضهم عندما ذهب الى المقابلة بين ترتيب أجزاء الحدث ، وترتيب مخارج الحروف فى الكلمة فكلمة خرج تبدأ من الحلق صاعدة نحو الفم دلالة على الخروج وكلمة دخل على عكسها تبدأ بالدال ومخرجها فى أول الفم ، ثم تأتى الخاء ومخرجها فى الحلق • فالفعل يتجه من الخارج الى الداخل (٢) •

ويبدو أنه وجد فى هذا غلوا مفرطا عند محاولة تعميمه أو تطبيقه على أمثلة أخرى•

ونحن نرى أنه على الرغم من بحوث هذا العالم الكبير ، وما وجدناه من الامثلة التى تدل على التناسب الصوتى أو التقابل الموسيقى فى تركيب الكلمات وحروفها ، فان ذلك لايكفى لاقامة نظرية عامة أو استنباط قانون عام يشمل ألفاظ العربية ، وان حاول الاعتصام بحكمة العرب،والايماء الى أن الاحرى أن يتهم الانسان نظره ، ولايخف الى ادعاء النقض فيما قد ثبت الله أطنابه ، وأحصف بالحكمة أسبابه (٣)•

ان الحكم بالعموم أو الشمول يحتاج الى توسيع أفق الملاحظة والاستقراء ، ويتطلب الفطنة فى التحرى •

---

(١) د • صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٢٤١ .
(٢) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٦١ .
(٣) ابن جنى الخصائص ١٦٥/٢ .

ولاريب فى أن العربية تختلف عن غيرها فى قيمة الحرف الدلالية ، ووظيفته فى تكوين المعنى وتحديده . والتقابل الصوتى أو التوافق فى الجرس قد يشير الى ماتمتاز به هذه اللغة ، أما الايحاء الخاص فهو ان لم يكن يدل دلالةقاطعة على المعنى فقد يدل دلالة اتجاه وايحاء ، ويثيرفى النفس جوا يهيىء لقبول المعنى ويوجه اليه (١) .

ولايمكننا أن ننكر براعة ابن جنى واجتهاده فى تلك الدراسات التى تعد بابا جليل الشأن أراد هذا العالم أن نسلكه لنرى خصائص اللسان ، ونعرف مستوى الطرافة فى التنـــاول والابداع . انه كشف أسرارا ليكثر اعظام هذه اللغة الكريمة من أجلها ، ووجه أحيانا الى الغلو فى الحيطة والحذر (٢) ، وأومأ أحيـــانا الى عدم امكان تعميم النتائج والاحكام (٣) ، وقام بموازنات دقيقة ، وابتعد عن الاسراف الشديد فى المبالغة والتعليل ، فلم يزعم مازعمه الزجاج « أن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف ، وان نقصت احداهما عن حروف الاخرى ، فان احداهما مشتقة من الاخرى ، فتقول : الرحل مشتق من الرحيل ، والثور انما سمى ثورا لانه يثير الارض ، والثوب انما سمى ثوبا لانه ثاب (أى رجع) لباسا بعد أن كان غزلا . حســـبيه الله » (٤).

واذا كان الرافعى معتمدا عليه فى معظم ما أتى به فى نظامه الاول فانه لفت الانظار الى مثالية اللغة الرفيعة ، ومناسبتها العجيبة فى رأيه بمسلك يعبر عن شدة الايمان ، وقوة الاعتزاز .

ومن البارز أن الرافعى يدعم فكرة المثالية اللغوية بكل ما استطاع وأنصار المثالية يرون أن اللغة تخضع للمنطق السليم دائما ، فبعضهم يقرر أن الاسم يحوى « خلاصة » المعرفة الانسانية الخاصة بالشىء

---

(١) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٦١ — ٢٦٢
(٢) ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ٦٩ — ٨٢ .
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٩ وما بعدها وص ١٣٨ — ١٣٩ وانظر جـ ١ ص ١٢ .
(٤) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ٣٥٤ .

الذى يدل عليه ؛ وهو رمز لكل المعلومات والتجارب التى يجيب بها الانسان عن هذا السؤال الذى لاينفك يراوده « كيف » ؟ (١) •

وبعضهم يقرر أن الشىء انما يسمى بأهم خصائصه • ولمثل هذا السبب يسمى النجار بالالمانية tischer (مأخوذة من Tisch بمعنى منضدة) • وهذا يرى أن عمل المنضدات أهم خصائص النجار ؛ على الرغم من أن عمل الابواب أو الخزائن مثلا أهم من ذلك • والتحقيق يذهب الى أنه « قد يكون من الصحيح أن عمل المنضدة كان فى نظر من ابتكر هذه الكلمة أهم خاصية للنجار فى اللحظة التى ابتكر فيها كلمته ؛ ولكنه لا يمكن أن تكون أهم خصائصه على الاطلاق • ان مايريده الانسان هو أن يضع اسما مالذات من الذوات• وليس من الضرورى أن يشير الاسم الى أهم خصائص المسمى أولا يشير • وذلك لان الاستعمال كفيل بأن يزيل ما قد يصادف من يسمع الكلمة لاول مرة من غرابة • ولايهم الانسان كثيرا بل لعله لا يلاحظ — ان كان الاسم ينطبق أو لا ينطبق على صفات المسمى • ولكن المهم هو أن المتكلم يجد اسما يعنى شيئا خاصا . وأن سواه من الناس يدرك مايعنى به » (٢) واذا أردنا أن تخضع الاسماء للمنطق فاننا سنجد كثيرا منها لايحقق ذلك بالصورة التى يرجوها هؤلاء الذين يؤمنون بأن الاسماء تحتوى خلاصة المعرفة الانسانية الخاصة بالشىء الذى يدل عليه • والامثلة التى تعلن الخروج عن المنطق والمناسبة فى بعض الاشياء كثيرة وهى كفيلة بالرد على من يجتهدون فى الحديث عن مثالية اللغة • وحسبنا مثال واحد يدعم ماقلناه ؛ فكلمة خضروات منطقية مثلا فى تسمية « الملوخية » • وليس من المنطق فى شىء أن نطلقها على الطماطم والجزر ؛ ولا نطلقها على « البطيخ » • وهو أخضر اللون (٣)

---

(١) اوتو جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٣٢ ترجمة الدكتور عبد الرحمن محمد ايوب نشر الانجلو المصرية .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) المرجع ذاته والصفحة وانظر ابراهيم السامرائى فقه اللغة المقارن ص ١٨٩ — ١٩٠ .

ويؤكد الذين يرفضون المستوى الذى ذهب اليه الرافعى فى وجه المثالية ، أن القول بأن بين اللفظ ومدلوله علاقة طبيعية ان لم يكن اللفظ ذات المدلول من اعتقاد الاطفال البدائيين (١) .

ويذكر بعضهم أن اللغة لايعقل أن تتفق مع أحكام ما يخلق الله من أشياء فما يسمى بالشجرة مثلا كان يمكن أن يسمى بأى لفظ آخر . ولا ندرى لم سمى الحجر حجرا ؛ أو النهر نهرا مهما أجهد الاشتقاقيون أنفسهم فى مثل هذا . هذا الى أن المعانى المشتركة فى كل العقول البشرية قد اتخذت لها اللغات ألفاظا متباينة مختلفة لايكاد يمت بعضها الى بعض بصلة معقولة مفهومة . يضاف الى كل ما تقدم أن كل اللغات تتضمن كثيرا من الامثلة الشاذة ، والشواهد الخرجة . وأنها تتضمن أيضا تلك الالفاظ التى يشترك اثنان منها أو أكثر فى معنى واحد . وهى المترادفات (٢) .

ويرى فندريس أنه من الحمق « الحكم بوجود علاقة ضرورية بين أصوات الكلمة ودلالتها . وقد سخر من أولئك الذين نادوا بهذا الرأى ، غير أنه اعترف بأن بعض الالفاظ أقدر على التعبير من البعض الآخر ، ولكن المرء فى رأيه حين يقيم ائتلافا بين اللفظ ومدلوله انما يسير على نهج عادة قديمة جدا حين كانت الالفاظ تعد جزءا لايتجزأ من الاشياء ، وحين كان الاسم له منزلة الجسد والروح كما هو الحال عند بعض الامم البدائية .. » (٣) .

ويقرر هذا الباحث أن كل كلمة أيا كانت توقظ دائما فى الذهن صورة ما وهى ما تزال مستقلة عن المعنى الذى تدل عليه (٤) .

أما دى سوسير فيرى أنه قد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الانسان لايستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا بلا علامات

---

(١) أوتوجسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٣٤ ترجمة د. عبد الرحمن ايوب .

(٢) د. ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ١٨ — ١٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٧٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

لغوية أى كلمات فالتفكير بلا كلمات عائم ، وليس فى الفكر ما يفرض شكلا معينا للرموز الصوتية فهذه الرموز موضوعة وضعا اعتباطيا . وليست وظيفة اللغة فى هذا أن تخلق وسطا صوتيا للتعبير عن الافكار .

ان العلامات التى تتصف بأنها تحكمية أو بأنه لاباعث طبيعى عليها تكتسب قيمتها عن طريق التقابل (١) .

وجماع الامر أن الرافعى فى دراسة اللغة فى نظام الالفاظ بالمعانى يميل الى أنها تخضع للمنطق السليم دائما .وهو قريب فى ذلك من المستوى الذى آمنت به المدرسة اللغوية القديمة . ان فكرة المثالية اللغوية تسيطر عليه ، وهو يرى فى تلك المثالية ما لايراه غيره ، فهى التى تهذب النفوس ، وتزنها ، وتعدلها ، وتخلصها برقة أوضاعها وسمو تراكيبها . وهى فى رأيه انتهت الى الكمال ، وعبرت سننها عن التمدن ، وحقيقته فيها متمثلة ، وشروطه فى مجموعها متحققة .

والعربى عنده فى حكم العرب كلهم باعتبار الفطرة اللغوية التى يرجع اليها أصل الوضع « لان اللغة مفردات وضعها أفراد وقد كانت لهم أشياء كأنها مظاهر الطبيعة المتسلطة عليهم بمعانيها المتناقضة ، وصفاتها المتباينة لبلوغها الغاية فى مألوفهم من اللذة والالم والمنفعة والمضرة ، وهذه يراها كل عربى ، ويحدث عنها ، ويصفها على ما يجد فى نفسه من أثرها .. فلا جرم أختلفت الالفاظ الموضوعة لها بحسب ذلك » (٢) .

---

(١) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٤ وما بعدها وانظر د. محمود السعران علم اللغة ص ٣٧٣ وابراهيم انيس — دلالة الالفاظ ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

الفصل الرابع

نظام المعانى بالالفاظ

نظـام المعـانى بالالفـاظ

هذا النظام عند الرافعى لايقوم على المساوقة على النحو الذى ذكره فى انظام السابق اعتمادا على تصاقب الالفاظ لتصاقب المعانى أو امساس الالفاظ أشباه المعانى أو غير ذلك •• وانما يقوم على أمر آخر فسره الاديب الباحث بقوله : (١) « والالفاظ فى هذا النوع هى التى تسوس المعانى ، وتنزلها فى منازلها ، وتضعها على أقدارها ، لامن حيث ان اللفظ هو الذى يوجد المعنى فذاك ظاهر الاستحالة ، ولكن على أنه هو الذى يخصص المعنى اذا كان جنسا ، وهو الذى يؤكده مبالغة فى تلوين صورته النفسية حتى تنطق أجزاؤه ، وحتى يقوم كل جزء منها فى البيان اللغوى مقام الكل الذى هو مادة الشعور الطبيعى » •

والرافعى يعتمد فى هذا القول على عبارات مجازية ، ويؤثر المبالغة ، والخضوع لما تتجه اليه النظرة الادبية ، والتأثر بما فى الالفاظ عنده من أشياء يجد فيها الدقة والحكمة والكمال ، فالالفاظ لديهتملك أمر السياسة ، والانزال فى المنازل ، والوضع على الاقدار ، وتمثل المستوى القادر على الاتقان والسمو فى البيان اللغوى •

واللفظ عنده هو الذى يخصص المعنى اذا كان جنسا ، وهو الذى يؤكده •• ولا يوضح لنا أسرار ذلك بل يتركنا أمام المبالغة ، والاسراف فى المجاز ، والجنوح الى الغموض • ويمضى ليقرر أن اللغة عمل نفسى محض ، وفيها حياة باطنة تشبه ما فى الانسان الراقى مما يسمى بالكمال أو الحياة الروحية العالية ، حتى تتكافأ النفس واللغة فى تصور أجزاء المعانى وتصويرها •

أما وجود نظام المعانى بالالفاظ فهو من أخص الدلائل على تمدن اللغة لان النظام الذى يعين درجات المعانى انما يفصل أجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الاجزاء أو بصفاتها (٢) •

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢٨
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨

والدليل الذى يقدمه لنا أنه أثبت العلماء أن أظهر ما يكون الفقر فى اللغات المنحطة انما هو فى أنواع الدلالة المعنوية فكلما انحطت اللغة قلت فيها هذه الانواع ، حتى لتبلغ بها تلك القلة أحيانا الى أن تشبه الجماد فى تجرده من الشعور ومعانيه .

ووجدوا من لغات القبائل المتوحشة فى أواسط أفريقيا ماليس فيها ألفاظ تعبر عن الحب ، والمؤاخاة ، والعبادة ، ونحوها من أمهات المعانى النفسية كأن مادة تلك اللغات من الاحساس الحيوانى المحض » .

ويدرك الرجل أن ما قدمه يحتاج الى ما يدعمه ، فيأتى بموازنة فيها استراحة الى المبالغة ، واغراق فى التفضيل ، وغلو فى التعظيم . « والعربية تعتبر أحكم اللغات نظاما فى أوضاع المعانى وسياستها بالالفاظ ، وهى من هذا القبيل أعظمها ثروة ، وأبلغها من حقيقة التمدن . بحيث لاتدانيها فى ذلك لغة أخرى كائنة ما كانت . فالعرب لم يدعوا معنى من المعانى الطبيعية التى تتعلق بالحياة الروحية أو البدنية مما تهيأ لهم الا رتبوا أجزاءه ، وأبا نواعن صفاته بألفاظ متباينة تعين تلك الاجزاء والصفات على مقاديرها .. ومما ننبه اليه فى هذا الفصل أن أرقى الامم مدنية اذا بلغت فيها المعانى النفسية مبلغ الهرم ، وتعلقت بها الخواطر من كل جهة بحيث تفصل أجزاءها تفصيلا فجهد الامة عند ذلك أن تحيط المعنى باصطلاحات علمية ، وتعرف حوادثه على نحو ماتعرف به فصول العلوم كالحب مثلا ، فان مراتبه التى يشير اليها العرب بالالفاظ المتقدمة يشير اليها غيرهم بتعاريف ، وفصول ، واصطلاحات ، ثم لاتعدو بعد ذلك كله ما كان يفهمه العرب منها برقة شمائلهم ، ولطف حواسهم النفسية ، فكأنهم لما عدموا العلوم جعلوا ألفاظهم فصولا علمية وذلك منتهى ما يكون من تمدن اللغات .. » (١) .

والالفاظ المتقدمة هى الحب ومراتبه : الهوى ، ثم العلاقة ، ثم الكلف ثم العشق ، ثم الشعف وكذلك اللوعة واللاعج ثم الشغف ثم الجوى ثم التيم ثم التبل ثم التدليه ثم الهيوم (٢) ..

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٩ — ٢٣٠

(٢) المصدر ذاته ص ٢٢٩

وينتهى الاديب الى الدعوة الى تدبر نظام المعانى بالالفاظ لنرى أنه انتباه روحى صرف بيد أنه ممثل بالالفاظ ، ونرى أيضا « كأن لنفس العربى طيفا يحرك اللغة حتى بأنفاس الخطرات ، ويكتشف لها كل عاطفة دقيقة ، ولو اختبأت فى أشعة من النظرات » (١) ٠

وواضح أن الرافعى جعل كلامه مشوبا بتأثير آداب اللغة فى نفسه ، ولم يقدر الظواهر اللغوية فى ضوء الاسس العملية وحدها ، وانما مال الى ايثار العاطفة المفرطة ، ولاذ بالغموض تارة ، واتجه الى الاسراف والغلو تارة أخرى ولم يحكم بما يفرضه الاستقراء الدقيق ، وقواعد الدراسة اللغوية الشاملة المحضة ٠

انه لم يفسر كيف تستطيع الالفاظ أن تقوم بسياسة المعانى ، وانزالها فى منازلها ، ووضعها على أقدارها ٠ ولم يكشف حقيقة منهج التخصص والتأكيد فى ضوء الاسس العملية ، ولم يبين الحياة الباطنة التى فى اللغة والتى تشبه مافى الانسان الراقى مما يسمى بالكمال أو الحياة الروحية العالية ، كما لم يبين شيئا يمكن أن يساعدنا فى تحديد مستوى أو سر الانتباه الروحى الصرف ، والطيف الذى يحرك اللغة ، ويكتشف لها كل عاطفة دقيقة ٠

والذى يلفت النظر أنه يجعل الالفاظ تتسم بالحكمة العقلية ، ويشير الى لطف الحس ، ودقة الادراك ٠ ويدعونا ذلك الى أن نقرر أن اللغة عند بعض العلماء سواء أكانت الهاما آلهيا أم كانت اصطلاحا بشريا — لابد فيها من وضع يجعل لفظ كذا بازاء معنى كذا (٢) ٠ بوضع واضع أول قدر الحاجة اللغوية ، ووضع الكلمات الوافية بها ، كما لحظ الاعتبارات الحيوية المختلفة بطريق الحكمة ، وتعرف المستقبل ، وادراك الزيادة التى تحتاج اليها الدنيا ، والقياس الذى يتيح الاخذ أو المخالفة ٠

---

(١) المصدر ذاته ص ٢٣٠

(٢) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ — وقارن بامين الخولى مشكلات حياتنا اللغوية ص ٣٦

وفى الخصائص حكاية عن أبى على الفارسى : « أنهم وزنوا حينئذ أحوالهم . وعرفوا مصاير أمورهم . فعلموا أنهم محتاجون الى العبارات عن المعانى ، وأنها لابد لها من الاسماء والافعال والحروف ، فلا عليهم بأيها بدءوا ، أبا لاسم ، أم بالفعل أم بالحرف ، لانهم قد أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بهن جمع . اذ المعانى لاتستغنى عن واحد منهن » (١) .

ويأتى ابن جنى بشىء مما تصورته العرب قبل وضعه ، ويذكر علمها ، وما هو أدل على حكمتها وفهمها ظروف الحاجة اللغوية . يقول صاحب الخصائص (٢) : « وكان أبو الحسن يذهب الى أن ما غير لكثرة استعماله انما تصورته العرب قبل وضعه ، وعلمت أنه لابد من كثرة استعمالها اياه فابتدءوا بتغييره . علما بأن لابد من كثرته الداعية الى تغييره . وهذا فى المعنى كقوله :

رأى الامـــر يفضى الى آخـــر
فصـــــير آخــــــره أولا

وقد كان أيضا أجاز أن يكون قد كانت قديما معربة . فلما كثرت غيرت فيما بعد . والقول عندى هو الاول ، لانه أدل على حكمتها ، وأشهد لها بعلمها بمصاير أمرها .. » .

ولا يترك ابن جنى ذلك الا بعد أن يتناوله بالتفصيل والتعليل والدعم بما يشهد . ثم يقول (٣) : « فهذا كله وما يجرى مجراه مما يطول ذكره يشهد لان كل ما يتوقع اذا ثبت فى النفس كونه كان كأنه حاضر مشاهد ، فعلى ذلك يكونون قدموا بناء نحوكم ، وكيف ، وحيث ، وقبل ، وبعد ، علما بأنهم سيستكثرون فيما بعد منها ، فيجب لذلك تغييرها » .

والواضع للغة العربية فى رأى بعض العلماء نظر الى ما يحتاج اليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر (٤) .

---

(١) ابن جنى : الخصائص ج ٢ ص ٣٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣١ — ٣٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣ .
(٤) ابن الاثير المثل السائر ص ٩ المطبعة البهية ١٣١٢ هـ .

أما اختلاف لغات العرب فسببه اختلاف الوضع الاول . ينقل ابن جنى عن الاخفش ما عبارته : « وذهب الى أن اختلاف لغات العرب انما أتاها من قبل أن أول ما وضع فيها وضع على خلاف ، وان كان كله مسوقا على صحة وقياس . ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة اليها ، غير أنها على قياس ما كان وضع فى الاصل مختلفا ، وان كان كل واحد آخذ امن صحة القياس حظا . ويجوز أيضا أن يكون الموضوع الاول ضربا واحدا ، ثم رأى من جاء من بعد أن خالف قياس الاول الى قياس ثان جار فى الصحة مجرى الاول » (١) .

ويؤيد ابن جنى ما قاله الاخفش فيقول (٢) : « ولا يبعد عندى ما قال من موضعين أحدهما سعة القياس ، واذا كان ذلك كذلك جازت فيه أوجه لا وجهان اثنان . والآخر أنه كان يجوز أن يبدأ الاول بالقياس الذى عدل اليه الثانى ، فلا عليك أيهما تقدم ، وأيهما تأخر . فهذا طريق القول على ابتداء بعضها ولحاق بعضها به » .

والاهتمام بأمر الوضع أدى الى العناية بعلم يختص به سمى علم الوضع . وهو علم يبحث عن أحوال اللفظ العربى ، من حيث ما يعرف به شخصية الوضع ونوعيته ، وخصوصه وعمومه الى غير ذلك « قال التاج السبكى فى شرح منهاج البيضاوى : الوضع عبارة عن تخصيص الشيء بالشيء ، بحيث اذا أطلق الاول فهم منه الثانى . قال : وهذا تعريف سديد ، فانك اذا أطلقت قولك « قام زيد » . فهم منه صدور القيام منه » (٣) .

« وقال أبو حيان فى شرح التسهيل : العجب ممن يجيز تركيبا ما فى لغة من اللغات من غير أن يسمع من ذلك التركيب نظائر ، وهل التراكيب العربية الا كالمفردات اللغوية ؟ فكما لايجوز احداث لفظ مفرد ، كذلك لايجوز فى التراكيب ، لان جميع ذلك أمور وضعية ، والامور الوضعية تحتاج الى سماع من أهل ذلك اللسان ، والفرق

---

(١) ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ٢٩
(٢) المصدر ذاته ص ٢٩
(٣) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ٣٨

بين علم النحو وبين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كليه ، وموضوع علم اللغة أشياء جزئية ، وقد اشتركا معا فى الوضع ..

وقال الزركشى فى البحر المحيط لاخلاف أن المفردات موضوعة كوضع « لفظ انسان » للحيوان الناطق ، وكوضع قام لحدوث القيام فى زمن مخصوص ، وكوضع « لعل » للترجى ونحوها ، واختلفوا فى المركبات نحو « قام زيد » و « عمرو منطلق » ، فقيل ليست موضوعة ، ولهذا لم يتكلم أهل اللغة فى المركبات ولا فى تأليفها ، وانما تكلموا فى وضع المفردات ، وماذاك الا لان الامر فيها موكول الى المتكلم بها ، واختاره فخر الدين الرازى ، وهو ظاهر كلام ابن مالك حيث قال : ان دلالة الكلام عقلية لاوضعية .. » (١) .

وفيما حكاه ابن اباز عن شيخه ان الجمل « يصح أن يقال انها موضوعة باعتبار أنها متوقفة على معرفة مفرداتها التى لاتستفاد الا من جهة الوضع ، ولان للفظ المركب أجزاء مادية وجزءا صوريا وهو التأليف بينهما وكذلك لمعناه أجزاء مادية وجزء صورى ، والاجزاء المادية من اللفظ تدل على الاجزاء المادية من المعنى ، والجزء الصورى منه يدل على الجزء الصورى من المعنى بالوضع » (٢) .

وعلى الرغم مما قيل فى هذا العلم فانه لم يحقق الفائدة المرجوة ، واهتمت بحوثه بالاتجاهات الفلسفية العقلية ، ولجأت الى التكلف ، والاحتمالات الفرضية ، والصور الذهنية الامكانية ، والتقسيمات والتعريفات والاختلافات التى تحول على اعتبارات نظرية (٣) . فالوضع ينقسم الى شخصى ونوعى . والشخصى هو وضع لفظ بخصوصه كأكل .. والنوعى : وهو وضع لفظ داخل قاعدة كلية كوضع المشتقات ، فهى موضوعة كلها بوضع واحد تحته جزئيات كثيرة . « قال الامام عضد الدين الايجى فى رسالة له فى الوضع : اللفظ قد يوضع لشخص بعينه ، وقد يوضع له باعتبار

---

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢ — ٤٣

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤

(٣) أمين الخولى : مشكلات حياتنا اللغوية ص ٣٩

أمر عام ، وذلك بأن يعقل أمر مشترك بين مشخصات ، ثم يقال : هذا اللفظ موضوع لكل واحد من هذه المشخصات بخصوصه ، بحيث لايفاد ولايفهم به الا واحد بخصوصه دون القدر المشترك ، فتعقل ذلك المشترك آلة للوضع ، لا أنه الموضوع له ، فالوضع كلى والموضوع له مشخص ، وذلك مثل اسم الاشارة ، فان « هذا » مثلا موضوعه ومسماه المشار اليه المشخص ، بحيث لايقبل الشركة ، وما هو من هذا القبيل لايفيد التشخص الا بقرينة تفيد تعيينه ، لاستواء نسبة الوضع الى المسميات • قال : ثم اللفظ مدلوله اما كلى أو مشخص ، والاول اما ذات ، وهو اسم الجنس ، أو حدث ، وهو المصدر ، أو نسبة بينهما ، وذلك اما أن يكون يعتبر من طرف الذات وهو المشتق ، أو من طرف الحدث وهو الفعل ، والثانى العلم فالوضع اما كلى أو مشخص (١) •• » •

وقد قالوا أيضا فى تقسيم الوضع انه اما تحقيقى واما تأويلى فالاول مالا يحتاج فيه اللفظ الموضوع الى قرينة كوضع الحقائق • والثانى ما يحتاج الموضوع فيه الى قرينة كوضع المجازات والكنايات ، والوضع التأويلى كله نوعى وأما الوضع التحقيقى فقد يكون نوعيا كوضع المشتقات وقد يكون شخصيا كوضع أعلام الاشخاص (٢) •

وفى المزهر مسائل تتناول الوضع ، وتذكر الاختلاف فى وضع الواضع وغير ذلك مما يؤكد ما ذكرناه (٣) ، ويدل على أنه لم يحقق الفائدة المرجوة •

وابن جنى يقرر أن العرب قد أرادت من العلل والاغراض ما نسبناه اليها وحملناه عليها ، ويرى أنهم يحتاطون ، ويقتاسون ، ولا يفرطون ، ولا يخلطون • فيهم لطف الحس وصفائه ، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه ، فان كانت اللغة وحيا فهم المصطفون •• وان

---

(١) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ٤٦
(٢) أمين الخولى : مشكلات حياتنا اللغوية ص ٤٠
(٣) السيوطى المزهر جـ ١ ص ٣٨ — ٤٧

كانت شيئا اصطلحوا عليه فهو مفخر لهم ومعلم من معالم السداد دل على فضيلتهم (١) •

وما رأيناه من أقوال أبى على الفارسى وأبى الحسن وابن جنى وغيرهم يختلف عن رأى الذين لايخالفون طبائع الاشياء ، ويرون أنه لابد من مراعاة النشوء والارتقاء . ونبذ التكلف والوهم والنظرات التى تستند الى الاحتمال ، وتعتمد على فلسفة ضعيفة تنسب الى العرب مستوى لاحد له من الحكمة الشاملة فى تقدير المطالب الانسانية اللغوية النامية المتجددة •

والمنهج الاجتماعى لايقر ما قيل عن صنيع الواضع الاول ، ولا يرضى عن هذا المستوى الذى وصل اليه العلماء السابقون فى حديثهم عن الوضع •

ان المنهج الاجتماعى يقرر أن اللغة ظاهرة اجتماعية ليست صناعة فرد بعينه أو أفراد بعينهم ، وليست عمل جيل بذاته ، ولا توجيه فيها لعقل الفرد أو الارادة الفردية ، ولاتأثير له عليها ، وطبيعتها لاتخضع الا لنتائج العقل الجمعى ومقتضيات الوجود التجمعى •• ولا مجال لعمل الفرد أو الافراد فيها الا ما قد يكون من تأثير لنفسياتهم أو شئونهم العملية الحيوية على النظام اللغوى الذى أنتجه العقل الجماعى (٢) •

وجماع الامر أن ما يسمونه علم الوضع يقوم على أساس مناقض لطبيعة اللغة اجتماعيا ، وهو عمل صناعى لا لغوى •• وما يقرره من بناء العربية على خطة منطقية قد وضعت مقدما — ضرب من العبث الواضح •

والرافعى يرى أنه لولا الطرق التى جرت عليها اللغة فى الوضع ما خطت فى التاريخ خطوة واحدة • ويقول فى طرق

---

(١) ابن جنى : الخصائص ج ١ ص ٢٣٧ — ٢٤٥

(٢) أمين الخولى : مشكلات حياتنا اللغوية ص ٤٣ — ٤٤ وانظر: محمود السعران اللغة والمجتمع راى ومنهج — المطبعة الاهلية بنغازى ١٩٥٨ ص ١٠

الوضع (١) : « وأنت اذا تدبرت المأثور من ألفاظ اللغة وجدته فى الجملة لايخلو من ثلاث اما أن يكون مرتجلا أو مشتقا أو منقولا على وجه من وجوه المجاز • وهذه الثلاث هى طرق الوضع التى تقلبت عليها اللغة • وهى تشبه أدوار الخلقة الكاملة فانها ثلاثة أيضا التركيب والقوة والجمال ، فالمجاز جمال اللغة ، والاشتقاق قوتها ، والارتجال تركيب الخلقة فيها • ويندر أن تجد ذلك كله فى لغة من اللغات على مقدار ما تجده فى العربية ؛ فلا جرم كانت حرية بأن تكون مناط الاعجاز لانها الخلقة اللغوية الكاملة » •

ولم يشر الرافعى فى نظام المعانى بالالفاظ الى العناصر التى يتألف منها المعنى ، واكتفى باعطاء الالفاظ الهيمنة فى سياسة المعانى ؛ وانزالها فى منازلها ؛ ووضعها على أقدارها • ويبدو أنه يريدنا أن نطمئن الى الالفاظ وطاقاتها التى لم يفسرها التفسير الذى يضىء الطريق •

ومن المهم أن نشير الى أن الدارسين قد اختلفوا فى تعريف المعنى وفى تحديده بسبب اختلاف المناهج وكثرة المصطلحات وعدم الاتفاق على مفهوماتها ، ومن الملاحظ فى تباين وجهات النظر تركيز كل منهج اهتمامه على وجه خاص •

فبعض الباحثين يرى أن معنى الكلمة يتألف من اجتماع عدة عناصر يضاف بعضها الى بعض ؛ ويحدده ما يأتى :

١ — الاصل الاشتقاقى أو المـادة الاصلية التى ترجع اليها الكلمة وهى تتألف من مجموعة أصوات أو حروف •

٢ — البناء الصرفى أو الصـيغة •

٣ — حياة الكلمة ، والتاريخ الذى تقلبت فيه فحدد استعمالاتها الكثيرة ووجوه معناها أو معانيها المتعددة •

ومن المعروف أن الكلمات يختلف بعضها عن بعض فى المعنى تبعا لاختلاف حروفها وأصواتها ، وكل تبدل صوتى فيها يتبعه تبدل

---

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٦٧ — ١٦٨

فى المعنى • وهذا يدل على أن للحروف أو الصوت أثرا فى تكوين المعنى وتحديده •• ولكل لغة طريقتها فى تركيب ألفاظها ، ولها قوانين يخضع لها هذا التركيب (١) • والاصوات التى تتكون منها الكلمة العربية أنواع ثلاثة •

١ ــ الحروف الصوتية أو الصائتة •

٢ ــ حروف المد أو الحروف الهوائية •

٣ ــ الحركات أو حروف المد القصيرة •

والحروف فى العربية ضربان :

أحدهما لتنويع أصول المعانى • وهى الحروف الصائتة • وثانيهما لتنويع المعنى الواحد على حسب أحواله وملابساته للفاعل والمفعول والصيغة وللماضى والمستقبل وغير ذلك • وهذه هى حروف المد الطويلة والقصيرة (الحركات) • يضاف اليها أحيانا بعض الحروف من مجموعة (سألتمونيها) (٢) •

ونزيد ذلك توضيحا فنقول : الحروف الصائتة : وهى ماسوى حروف المد من الاحرف الهجائية ــ هى العماد فى تركيب الكلمة وتكوين معناها ، ويمكن القول بأن اتفاق عدد من الالفاظ فيها معناه اتفاقها فى المفهوم الاصلى ، والخلاف فيها كذلك خلاف فيه بينها (٣) •

أما حروف المد فى العربية فهى عنصر مرن متحول ، ليس من الاجزاء الاساسية فى تكوين الاصول الاشتقاقية • وقد جعلت لتنويع المعنى الاصلى الثابت بثبات الحروف الصائتة فى المادة الواحدة ، وتعينها فى ذلك حروف أخرى تؤلف معها ما يسمى حروف الزيادة المجموعة فى (سألتمونيها) (٤) •• والحركات فى حقيقتها

---

(١) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٧٥

(٢) محمد المبارك . فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٨٠ وراجع ص ١٧٦ •

(٣) المصدر نفسه ص ١٨١ •

(٤) المصدر نفسه ص ١٧٨ ــ ١٨٠ •

حروف مد قصيرة والبناء الصرفى أو الوزن ، وهو ثانى العناصر التى تكون معنى الكلمة وتحدده — يقتطع من المعنى الكلى جزءا محدودا ، ويكون كالقالب الذى يأخذ من مادة المعدن جزءا يحدد أطرافه ، وتتمين بذلك وظيفته •

وذلك كأن تكون مادة الكلمة الاصلية مؤلفة من (فهم) فتبنى على وزن فاعل فتكون كلمة « فاهم » • أو من (ج ل س) فتبنى على وزن مفعل فتكون « مجلس » • وبذلك تكون كلمة « فاهم » أخذت من مادة (ف ه م) المعنى العام • ومن القالب الذى صيغت فيه معنى الفاعلية وكذلك مجلس أخذت من جلس المعنى العام للجلوس ومن الصيغة التى وضعت فيها معنى المكانية (١) •

ومن الواضح أن معرفة مادة الكلمة وأصلها الاشـتقاقى ، والصيغة التى صيغت بها لاتكفى غالبا لتحديد معناها تحديدا تاما دقيقا ، فان كل كلمة بعد أن أخذت من مادتها الاصلية ، وبنيت على أحد الاوزان الصرفية استعملت فى مواطن من الكلام وخصصـها الاستعمال بمعان أخص من المعنى العام الذى تدل عليل مادتها ، وبتعدد الاستعمال خلال العصور ، وفى مختلف المناسبات ، وشتى البيئات — يتم أكثر من معنى ، ويجتمع لها أكثر من دلالة ، وللسياق قيمة فى تحديد المعانى وفهم الكلام • وان هذه الاستعمالات التى تستعمل فيها الكلمات ، وهذه المعانى الخاصة المحدودة التى تلازمها فى بعض العصور مدة طويلة أو قصيرة والبيئات التى تعيش فيها هى التى تكون شخصية الكلمة أو ذاتيتها (٢) •

ومن الباحثين من يرى أن المعنى اللغوى هو الفكرة الواحدة البسيطة التى تثيرها الكلمة فى ذهن السامع أو القارىء •• وكذلك الفكرة المركبة من مجموعة أفكار بسيطة •• ويقرر أن علماء النفس يفرقون بين المعنى أو الفكـرة ، والصـورة الادراكية أو المـدرك الحسى •• ، والصورة المتخيلة •• لان الصورة المدركة أو المدرك

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨١ — ١٨٢ •
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٢ — ١٨٣ •

الحسي — مقيدة بالحالة التى عليها فى الواقع والحقيقة كما تظهر للحواس ، والفكرة مجردة من هذه القيود • كذلك الصورة المتخيلة تعد أقل من الفكرة عادة لانها تجنح دائما الى أن تكون شبيهة بالاصل فى خصائصه العامة لكن ينقصها الجو أو الحالة التى تلازم الفكرة ؛ وفى دراسة الفرق بين الفكرة التى تدل عليها الكلمة أو معنى الكلمة ومجرد الصورة المتخيلة — يظهر أن الصورة المتخيلة المثارة ليست الا جزءا فقط من المعنى الذى يقوم فى ذهن الفرد عندما يفكر فى مدلول الكلمة أو الجملة (١) « فالصورة الذهنية المثارة •• ماهى الا جزء صغيرفقط مما يحدث عندما يفكر الانسان فى معنى أوجملة أوعندما تثير كلمة أو جملة معناها فى الذهن ، فتجارب المرء وخبراته الماضية التى ترتبط بكلمة أو جملة سمعها ليست مجرد سلسلة من المدركات الحسية تحضر فى ذهنه صورا كما أدركها فى الماضى ، وانما تثار فى ذهنه معان لهذه الكلمة أو الجملة هى مزيج من كل ماله صلة بهما من تجاربه الماضية •• فكلمة « بابا » مثلا تعنى الناحية الوجدانية التى تربط السامع بأبيه من سرور وسعادة الخ •• فالسرور أو الالم الذى نال السامع فى حياته من مدلول الكلمة عامل حيوى فى تحديد معنى الكلمة فى ذهنه • ولكن ندر أن يظهر هذا الوجدان فى الصورة الذهنية • ولعل هذا يوضح الفرق بين معنى الكلمة والصورة الذهنية التى تثيرها الكلمة •• » (٢) •

أما فى دراسة المعنى المعجمى والمعنى الذى فى ذهنه المتكلم أو السامع فاننا نجد للكلمة مدلولين أحدهما نفسى والثانى واقعى ، والنفسى هو الذى فى ذهن المتكلم حينما ينطق بالكلمة ؛ فهو معنى خاص بالمتكلم ، معنى شخصى ، معنى ذاتى محدد بما عنده من تجارب ومعرفة بالشىء وخصائصه وملابساته • « وهذا المعنى الخاص لايمكن نقله بكل خصائصه وملابساته من ذهن المتكلم الى ذهن السامع ، لانه يمثل جزءا من تجارب المتكلم وحياته ، وجزءا يختلف عما عند أى شخص آخر • والمعنى النفسى معنى ذاتى خاص

---

(١) د. عبد العزيز عبد المجيد : اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها — دار المعارف — الطبعة الاولى ١٩٥٢ — ص ٢٠ — ٢١ •
(٢) المصدر السابق ص ٢٢ — ٢٣ •

مقيد بتجارب الفرد وحياته أما المعنى الواقعى فهو الشىء الخارج عن النفس ، والذى له خصائص تميزه عن غيره من الاشياء الواقعية .. وهذه الخصائص يشترك فى ادراكها الجميع فهى موضوعية بالنسبة للمتكلم والسامع وليست ذاتية ، وهى مشاعة عند كل من يدركها » (١) .

ويرى بعض علماء النفس أن الكلمة تدل على المدلول النفسى الذاتى والمدلول الواقعى الموضوعى . « والمعنى النفسى — بالرغم من طابعه الفردى الخاص له مقابل فى الخارج يتصل به هو المعنى الواقعى ، فالمعنى الداخلى اذن يشير دائما الى مقابل خارجى فى الحياة الواقعية . والمعنى الخارجى يحدد دائرة الكلمة المستعملة أو الجملة ويمنعها من تعدى هذه الدائرة ... ويعرف المعنى الخارجى بأنه المعنى المتفق عليه .. وهذا المعنى الخارجى هو الذى تشير اليه كلماتنا وعباراتنا فى حياتنا العملية .. فالمعنى الخارجى محدد واضح المعالم غالبا عند المتكلمين اذا قورن بالمعنى الداخلى الذى يختلف من متكلم لآخر » (٢) .

وفى عناصر المعنى يميز بعض العلماء أربعة عناصر أساسية تكون معنى الكلمة . وهى المدلول عليه ، والشعور الوجدانى ، والنغم ، والقصد .

والمدلول عليه هو هذا الشىء المقابل للكلمة فى عالم الواقع .. وهو يقابل المعنى الخارجى أو المتفق عليه . أما الشعور الوجدانى فيراد به شعور المتكلم نحو هذا الشىء الذى نتكلم به . والعنصر الثالث هو عنصر النغم . وهو عنصر واضح فى الحديث ، ولايظهر فى الكتابة ، وكثيرا ما كان هو كل شىء فى المعنى ، وكان السبب فى حسن التفاهم أو سوئه .. والعنصر الرابع هو القصد ، الذى تبدو أهميته عند بعض الناس الذين يلوذون به ، وفى حالات تستدعى تدخله ليوضح الفرق ، ويميز الامر (٣) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩ — ٣٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٠ — ٣١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣١ — ٣٣ .

ومن أهم الآراء فى دراسة المعنى رأى أولمــان Ullmann فقد استطاع أن يخلص الى تحديد العلاقة بين اللفظ والمعنى ، فقرر أن المعنى هو العلاقة بين اللفظ والمدلول • وهى علاقة تمكن كل واحد منهما استدعاء الآخر أى أن اللفظ يستدعى المدلول كما أن المدلول (أى الصورة الذهنية للشىء) يستدعى اللفظ فحين يفكر انسان فى منضدة مثلا ينطق الكلمة أى كلمة منضدة ، وسماعه هذه الكلمة سوف يجعله يفكر فى المنضدة وهكذا (١) •

وقد رتب على ذلك أن الكلمات لفظ ومدلــول ومعنى ، وأن المعنى هو هذه العلاقة • وقد اعتمد أولمــان فى تقرير هذا كله على تلك المحاولة التى قام بها الاستاذان أو جدن وريتشاردز (٢) فى كتابهما معنى المعنى الذى ظهر سنة ١٩٢٣ (٣) • وفى رأى هذين العالمين « أن هناك ثلاثة جوانب رئيسية تنظمها أية علاقة رمزية : الجانب الاول : الرمز نفسه symbol ، وهو هنا أى فى دراسة اللغة ــ عبارة عن الكلمة المنطوقة المكونة من مجموعة معينة من الاصوات مثل « منضدة » •

الجانب الثانى : هو المحتوى الذى يحضر فى ذهن الســامع حين يسمع الكلمة « منضدة »• وهذا الجانب سماه أوجدن وريتشاردز بالفكرة thought أما الجانب الثالث فهو الشىء نفسه وهــو « المنضدة » فى مثالنا هذا وقد يطلق عليه « المقصود » أو « الشىء المعنى » (٤) •

ونستطيع أن نقول بايجاز ان أوجدن وريتشاردز يريان المعنى فى عناصر ثلاثة الرمز والفكرة والمقصود وهو علاقة ذهنيــة بين

---

(١) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة ــ القسم الثانى ص ٦٠ •

(٢) Charles K. Ogden And Ivor A. Richards : Meaning of Meanig London. 1923 - Thirded. New york. Harcourt, Brace. 1936

(٣) د. محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٢٠ •

(٤) د. كمال بشر : دراسات فى علــم اللغة : القســم الثــانى ص ١٥٨ ــ ١٥٩ •

الحقائق والاحداث من ناحية وبين الرموز أو الكلمات من ناحيـة أخرى (١) •

وأيا كان الامر فان تفسير أوجدن وريتشاردز للمعنى يقوم على أساس رياضى آلى (٢) • وقد اهتم أولمـان بالجانبين الاول والثانى ، أما الجانب الثالث وهو الشىء فانه لم يدخل فى حسبانه ، وأبعده عن الدراسة نهائيا ، لان طالب اللغة انما تهمه الكلمـات لا الاشياء (٣) • ويلاحظ أن أولمـان قد اختار اللفظ بدلا مـن الرمز ، والمدلول بدلا من الفكرة أو الصورة الذهنية ، وجعل فى مقدورنا بعد استبعاد الشىء أن نعرف المعنى بأنه العلاقة المتبادلة بين اللفظ والمدلول ، تلك العلاقة التى تمكن أحدهما من استدعاء الآخـر (٤) •

واذا تساءلنا عن العلاقة بين الفكرة والمقصود فان الجواب يقول انها « تقع فى مجال علم النفس ، ولايعنى ذلك أن اللغة لم يبق لها دور هام تلعبه فى تكوين محتويات عقلية ، وخصوصا من التجريدات » (٥) •

وتبقى العلاقة بين الرمز والمقصود وهى عند بعض الباحثين اعتباطية منسوبة (٦) •

ومن أهم الآراء أيضا فى المعنى رأى بلومفيلد Bloomfield (١٨٨٧ — ١٩٤٩) وهو من أشهر اللغويين ويعد خير ممثل للاتجاه

---

(١) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٥٣ .
(٢) د. محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٢٠ — وانظر حسان مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٢ — ٢٤٧ .
(٣) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ١٥٩ .
(٤) راجـع التعليـق على راى أولمـان فى المصـدر السـابق ص ١٦٨ — ١٧٠ .
(٥) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٦) نفس المصدر ص ٢٤٩ .

السلوكى فى الدراسات اللغوية بمنهجه الذى يفضل أن ينعته بالمنهج الميكانيكى • Mechanistic approach (١)
وهو مؤلف كتاب اللغة الذى يعتبره الامريكيون عمدة لهم •

والمنهج السلوكى يرى « أن السلوك الانسانى يوصف أكمل وصف وأدقه عن طريق اعتبار الظواهر الفسيولوجية وغيرها من الظواهر المادية التى تصيب سلوك الافراد ؛ ولايتأتى عنده دراسة الظواهر الانسانية دراسة علمية الا بهذا الطريق ، ولما كانت اللغة ظاهرة انسانية فيصدق على دراستها ما يصدق على دراسة سائر الظواهر الانسانية » (٢) •

وبلومفيلد يدخل فى اعتباره بعض العناصر غير اللغوية المتصلة بالكلام ويعتبرها عنصرا لازما لادراك معنى الكلام فهو يرى أن معنى الكلمة يعرف عن طريق أحداث عملية • أى فسيولوجية أو فيزيقية مرتبطة بها فمعنى الجوع مثلا فى قولى أنا جائع يعرف بالتقلص العضلى وما يحدث فى المعدة من افرازات وما قد يصحب ذلك من عطش (٣) •• الخ •

ويرى أيضا « أن الافكار والتصورات كذلك ينبغى أن يعاد وضعها بألفاظ فيزيقية • وحتى الحب والكره وما اليهما ينبغى وصفهما بمثل هذه الطريق •• » (٤)

وهو لايتجاهل شخصية المتكلم وشخصية السامع وبعض الظروف المحيطة بالكلام ، فلابد فى تعريف المعنى عنده من مراعاة المتكلم دائما وكذلك موقف السامع ان كان ذلك يضيف شيئا جديدا الى الهدف الذى نرمى اليه ، ولذلك نجده يقرر أن معنى الصيغة

---

(١) د• محمود السعران علم اللغة ص ٣٢١ و د• كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ١٦٢ •
(٢) د• محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٣٢
(٣) المصـــدر نفســـه •
(٤) المصـــدر نفســـه •

اللغوية عبارة عن الموقف الذى ينطق فيه المتكلم تلك الصيغة والاستجابة التى تستدعيها فى نفس السامع (١) ونجده يجعل الكلام بديلا من استجابة عضوية لمثير معين (٢) .

وجماع الامر أن هناك ثلاثة أشياء لها اعتبارها عنده وهى :

١ — الاحداث العملية السابقة على الحدث الكلامى .
٢ — الكلام .
٣ — الاحداث العملية التى تلى الحدث الكلامى .

وهذا يؤكد أن المعنى اللغوى عنده يتكون من أشياء مهمة يرتبط بها الكلام ، وهذه الاشياء هى مجموع الحوادث السابقة للكلام والتالية له . ومعنى هذا توجيه اهتمام خاص الى عنصرى الاثارة ورد الفعل أو الاستجابة (٣) .

ويقول الدكتور محمود السعران (٤) : « ونحن طلبة اللغة يعنينا على وجه الخصوص الحدث الكلامى الذى يبدو هين الشأن فى ذاته ، ولكنه وسيلة لغايات كبيرة . ونحن نميز اللغة وهى موضوع دراستنا من الاحداث الواقعية أو العملية هذه الاحداث التى ندعوها بالمثيرات وورود الافعال » .

ولا ريب فى أن منهج بلومفيلد قد نبه اللغويين الى ضرورة ربط المعنى بمجالات غير الكلام ، مجالات تستلزم التحليل على مستويات خاصة ، وان كان تفسيره للمعنى تفسير ميكانيكى اذ أنه يحلل سلوك الانسان وفقا لنظريات المدرسة الميكانيكية فى علم النفس (٥) .

---

(١) د . كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ١٦٥ .
(٢) د . تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٣ .
(٣) د . كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ١٦٦ — ١٦٨
(٤) علم اللغة ص ٣٣٥ — ٣٣٦ وقارن بالمصدر السابق ص ١٦٨ ومناهج البحث فى اللغة ص ٤٧ .
(٥) د . كمال بشر : دراسات فى علم اللغة : القسم الثانى ص ١٧٠ — ١٧١ .

ولا يمكننا فى دراسة المعنى أن نهمل رأى فيرث Firth لانه مؤسس المدرسة الانجليزية الحديثة فى الدرس اللغوى ، وله منزلته فى البحث . والمعنى اللغوى عنده يختلف تمام الاختلاف عن المعنى بالمفهوم الذى اختاره كل من أولمـان وبلومفيلد وغيرهما . ان المعنى عند الاستاذ فيرث كل مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية ، وأهم عناصر هذا الكل هى وظائف الصيغة ـ الـوظيفة الصوتية ، ثم المورفولوجية والنحوية والقاموسية والوظيفية الدلالية ل « سـياق الحال » .

ولكل وظيفة من هذه الوظائف منهجها الـذى يراعى عنـد دراستها (١) . وفيرث يوجهنا الى تحليلات عملية ويقصد أن تتجه المستويات المختلفة الى شرح الحقائق اللغوية . وكل فروع علم اللغة انما توجه لدراسـة المعنى وتختص بالنظـر فيه ، ولكـن التحليلات اللغوية كلها ليست المعنى ، ولا هى دراسة المعنى فلابد للوصول الى المعنى من الربط بين النتائج التى توصل اليها التحليلات جميعا ربطا يدخل فى اعتباره سائر عناصر سياق الحال (٢) . ولابد من مراعاة أن الوظائف اللغوية تقتضى مراحل وخطوات ، كما توجب مراعاة الاسس الرئيسية الثلاثة وهى :

أولا : وجوب اعتماد كل تحليل لغوى على ما يسميه فيرث بالمقام مع ملاحظة كل ما يتصل بهذا المقام من عناصر أو ظـروف وملابسات وقت الكلام الفعـلى .

ثانيا : وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس .

ثالثا : النظر الى الكلام اللغوى على أنه مكون من أحداث . وهذه الاحداث معقدة مركبة ، ليس من السهل دراستها وتحليلها دفعة واحدة ، بل يجب تشقيقها والنظر اليها على مراحل .

---

(١) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٢٤٠ وقارن بمناهـج البحث فى اللغة ص ٢٦٩ .

(٢) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٢٤٠ .

ثم توجب بعد ذلك النظر الى الشخص المتكلم فى الموقف الخاص بوصفه كلا بدون تفريق بين جسمه وعقلـــه (١) •

وحسبنا هذه الآراء التى تمثل أهم المناهج فى دراسة المعنى أما الرافعى فهو يؤكد أن اللغة عمل نفسى محض (٢) • ويبدو أنه يظن أنه لاصعوبة فى تحديد المعنى لان هناك قبل نطق الكلمات عملية تحدث فى نفس المتكلم ، تلك هى ما يسمونها بالفكر ، الادراك ، الصورة الذهنية ، الشعور ، الرغبة ، أو نحو ذلك • كما يظن أن السامع أيضا عندما يستقبل الموجات الصوتية المنبعثة من المتكلم يتعرض لعملية عقلية معادلة أو متبادلة مع تلك التى تعرض لها المتكلم • واللغة عنده بناء على ذلك وسيلة التعبـــير عن الافكـــار والشعور والرغبات •

لقد نحا الرافعى منحى نفسيا صرفا ، بجعلهـــا عملا نفســـيا محضا ، ومن ثم نجده يستخدم ألفاظا يستخدمها علماء النفس ، وهى بعلم النفس أولى منها بعلم اللغة مثل الصورة النفسية ، والشعور الطبيعى ، وشعور النفس ، والحياة الروحية العاليـــة ، والمعانى النفسية والاحساس ، والعاطفة ، ولطف الحواس النفسية ، وأنفاس الخطرات •• (٣) •

ونجده مؤمنا أشد الايمان بأن الاحساس انما هو اللغـــة النفسية الكاملة (٤) ؛ « والكلمة فى الحقيقة الوضعية انما هى صوت النفس لانها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه من المناسبة قد لحظته النفس فيها من أصل الوضع حين فصلت الكلمة على هذا التركيب • وصوت النفس أول الاصوات الثلاثة التى لابد منها فى تركيب النســق البليــغ حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الالفاظ ومعانيها ، وبين هذه المعانى وصورها النفسية فيجرى

---

(١) د• كمال بشر : دراسات فى علم اللغة : القسم الثانى ص ١٧٥
(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢٨ •
(٣) نفس المصدر ص ٢٢٨ — ٢٣٠ •
(٤) الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : الطبعة الثانيـــة ص ٢١٧ •

فى النفس مجرى الارادة ويذهب مذهب العاطفة ، وينزل منزلة العلم انباعث على كنيتهما . فان البيان لايؤلف أصواتا لرياضة الصدر بها ، وصلابة الحلق عليها . ولكنها صورة نفسية فى الطبيعة ، وصور طبيعية فى النفس ، فاذا لم يكن حيا ناطقا يلمح بعضه بعضا ، ولم يكن بتركيبه وطريقة نظمه كأنما يحمل من معناه للنفس مادة الارادة أو الفكر لم يجد شيئا ، وانقطع به غرضه . واستهلكه انصراف النفس عنه ، وصارت معانيه كأن ليس لها أصول فيها ، وكأنها مادة جامدة أو روح مادة ميتة بل هو ربما سفل الى منزلة الاشارة التى هى اللغة الاولى مذ كان الانسان يتكلم بحواسه . والتى هى أضعف الكلام وأخفاه وأشده التباسا فى مذاهب المعانى النفسية .. أما الاصوات الثلاثة التى أومأنا اليها فهى :

١ — صوت النفس ، وهو الصوت الموسيقى الذى يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ، ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة ، وعلى نضد متساو بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى فى سبيله الى النفس ان وقف عندها هذا المعنى قطع به .

٢ — صوت العقل ، وهو الصوت المعنوى الذى يكون من لطائف التركيب فى جملة الكلام ، ومن الوجوه البيانية التى يداور بها المعنى حتى لايخطىء طريق النفس من أى الجهات انتحى اليها .

٣ — صوت الحس ، وهو أبلغهن شأنا لايكون الا من دقة التصور المعنوى ، والابداع فى تلوين الخطاب ، ومجاذبة النفس مرة ، وموادعتها مرة ، واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان أو يسوق اليها من طرائف المعانى .. (١) »

أما الجملة فهى « مظهر الكلام وهى الصورة النفسية للتأليف الطبيعى اذ يحيل بها الانسان هذه المادة المخلوقة فى الطبيعة الى معان يصورها فى نفسه ، أو تصفها حتى ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها على حين قد لايراها المتكلم الذى أهدفها لكلامه غرضا ولكنه بالكلام كأنه يراها .. (٢) » .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٩ — ٢٣١ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٨ .

وكل ما ذكرناه يبرز اعتصام الرافعى بنظرية المناسبة ، وقد تمسك بها فى النظام السابق ، وجعلها تسيطر وتوجه ، وتفعل كل ما يثبت وجهها • وهو هنا فى نظام المعانى بالالفاظ يحرص على أن يؤكد سيطرتها ، ويثبت تمكنها الشامل ، ووجودها القوى •

ونستطيع أن نقرر أن جعله اللغة نظاما نفسيا محضا يفيد ماقلناه ، وايمانه القوى بتكافؤ النفس واللغة فى تصور أجزاء المعانى وتصويرها برهان واضح على تشبثه بها ، وذهابه الى أن هـذا النظام يفصل أجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الاجزاء أو بصفاتها — لايقر الا سبيل المناسبة ، ولايخضع الا لمـا تفرضه أو تشير اليه • والرجل يعلن ايمانه واعتصامه بوضوح شديد عندما يقول (١) : « ثم أنت اذا تدبرت هذا النوع رأيته انتباها روحيا صرفا بيد أنه ممثل بالالفاظ ، ورأيت فيما ترى كأن لنفس العربى طيفا يحرك اللغة حتى بأنفاس الخطرات ، ويكشف لها كل عاطفة دقيقة ، ولو اختبأت فى أشعة من النظرات » •

وفى مجال آخر يزيد موقفه وضوحا فيقول (٢) : « وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسى ، وأن هذا الانفعال بطبيعته هو سبب فى توزيع الصوت بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة ، وبما يهيىء له من الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب مافى النفس من أصولها » •

ان اللغة عنده صورة من الـروح تمتزج بالشخصية حتى لتحس أن ألفاظ كل انسان ملاى بمعانيه هو ، ومثقلة بخوالجه ، وهى تكشف الاتصال الوثيق بالعاطفة ، وتلك نظرة أدبية مفعمة بمثالية متميزة ، واعتزاز شديد بدور الالفاظ ••

وفى رأيه « أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لايجزىء واحد منها فى موضعه عن الآخر ان أريد به شرط الفصاحة ، لان لكل لفظ صوتا ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذى هو

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٣٠ .
(٢) الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٢٤ .

فيه والذى تساق له الجملة ، وربمـا اختلف وكان غـيره بذلك أشبه .. » (١) .

وفى رأيه أيضا أن « اللغات وان اختلفت فى اللحن والاستعمال الا أنها تتفق فى المعنى الذى من أجله صار العرب جميعا يخشعون للفصاحة من أى قبيل جاءتهم وهذا المعنى هو مناسبة التركيب فى أحرف الكلمة الواحدة ثم ملاءمتها للكلمة التى بازائها ، ثم اتساق الكلام كله على هذا الوجه حتى يكون كالنغم الذى يصب فى الاذن صبا فيجرى أضعفه فى النفس مجرى أقواه لان جملته مفرغة على تناسب واحد » (٢) . والذى يهمنا هو الحقائق اللغوية وموقفها مما قاله ، ومن الضرورى أن نبحث عن هذه الحقائق فى اللغة نفسها وعن طريقها ، وأن ننأى عن المبالغة واللغو .

واذا كان الرافعى يدعونا الى فهم اللغة على النهج الـذى اطمأن اليه فنحن نرى أن الفرق كبير بين ما صنعه وما صنعه أولمان . فالاخير قد بسط المنهج النفسانى الذى ارتضاه الاستاذان أوجدن وريتشاردز كما أشرنا ، وقرب الى فهمنا مشكلة المعنى ، ومكننا الى حد كبير من الوقوف على عناصر الموضوع ، كما حدد مصطلحاته ، وبين أساس دراسته ، ولم يصل الى المستوى الذى وصل اليـه الرافعى فى القطع برأيه ورفض ماسواه .

وعلى الرغم من أن الاديب الباحث لم يفسر مذهبه ، ولجأ الى الغموض الا أننا نستطيع أن نقول أنه لاينظر الى الالفاظ على أنها مجرد رموز ، فقد ارتبطت بنفسه ارتباطا وثيقا ، وأصبح من الصعب أن يتصور أى نوع من التفكير بغير هذه الالفاظ ، ويؤكد ذلك أنه يرى حركة النفس هى المعانى القائمة بالفكر (٣) .

وهو لايؤمن بأن الالفاظ لاتعدو فى حقيقتها أن تكون بمثابـة الرموز على الدلالات ، وكل لفظ يصلح أن يتخذ للتعبير عن أى معنى

---

(١) الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٤ — ٥٥ .
(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٥٥ .

من المعانى •• وبناء على ذلك يمكن أن نقرر أنه ينظر الى الالفاظ التى اكتسبت مع الزمن صفة ليست فى غيرها من الرموز الاصطلاحية ، وأصبح يؤمن بأن الاسم واجب للمعنى • ونحن نرى « أن لكل كلمة من الكلمات مضمونا منطقيا ومضمونا أو ارتباطا نفسيا • والمضمون المنطقى وهو المعنى الذى ينص عليه القاموس فى الاغلب يكـون الاشتراك فى فهمه واحدا أو شديد التقارب ، ولكن المضمون أو الارتباط النفسى يختلف من متكلم لمتكلم اختلافا كبيرا ، ولايمنع هذا من أن يشترك جمهـور المتكلمين باللغة فى طائفة كبـيرة من ايحاءاته ، ومما يرتبط به من ظلال المعانى • ونحن لانستعمل الكلمة بمعناها المنطقى مفصولا عن مضمونها النفسى ، ولا بهذا مفصولا عن ذاك • ان الكلمة عندما تصدر عنا أو عندما تصل الى أسماعنا تتضمن هذا وذاك » (١) •

واذا كان الرافعى يقصد فى عملية تعيين درجات المعانى وتفصيل أجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الاجزاء أو بصفاتها — أن يتم التطابق التام فى جملة التجارب وتفصيلات الحياة — فان هذا أمر مستحيل ، فالتكوين النفسى يختلف ، وفهم هذا للكلمة ستلونه ايحاءات وظلال من المعانى غير الايحاءات وظلال المعانى التى تلون فهم الثانى لنفس الكلمة • كما أن الاستجابة عند سماع نفس الكلمة لاتأتى بالتطابق •

ولاندرى ما موقف النظام الذى يعين أو يفصل من الخلافات الفردية والارتباطات المختلفة ، وبعض هذه الارتباطات يظل شديد الخصوصية ونحن لانستطيع أن نخلص كلامنا من كل ارتباط نفسى ، واذا حاولنا ذلك فاننا لاننجح كل النجاح • ان الرموز الرياضـية المجردة مثلا يظل لها ايقاع صوتى ، ويثير هذا الايقاع احساسات فى نفس هذا ، ويثير غيرها فى نفس ذلك • وقد يثير ذلك الايقاع احساسات مختلفة باختلاف السامعين أو القائمين وهكذا (٢) •

---

(١) د• محمود السعران : علـم اللغة مقدمة للقـارىء العربى ص ٣٠٢ — ٣٠٣ •

(٢) المصـدر السـابق ص ٣٠٤ •

ان المعنى عند الاديب الباحث فى صورته النفسية تنطق أجزاؤه حتى يقوم كل جزء منها فى البيان اللغوى مقام الكل الذى هو مادة الشعور الطبيعى والالفاظ كما ذكرنا تسوس المعانى وتنزلها فى منازلها وتضعها على أقدارها وفى اللغة حياة باطنة • وهذا يدل دلالة واضحة على التأثر بما توحى به نزعته الادبية وخياله الخصب •

ومن المعلوم أن الكلام « ليس مجرد اصدار أعضاء من الجسم الانسانى لاصوات معينة • ان هذه الاصوات توجه الى أذن ، والسامع تقوم فى ذهنه عمليات عقلية متعددة حتى تتحول الاصوات الى دلالات •

والمتكلم نفسه قبل أن يشرع فى الكلام وأثناء الكلام وبعده أحيانا ان كان ينتظر اجابة مثلا — تقوم فى نفسه سلسلة من العمليات العقلية أو النفسية • ففهم الكلمات وبعض ما يتعلق بها من حيث تكوينها وسماعها مرتبط بسلسلة من العمليات العقلية • ومن هذا، ومن كثير غير هذا كان ارتباط علم اللغة بعلم النفس ، ان علم اللغة يستمين بحقائق توصل اليها علم النفس العام ، كما أنه يستمين بحقائق توصلت اليها علوم ودراسات أخر — ولكن ليس معنى هذا أنه يتخذ مناهج علم النفس ووسائل مناهج له ووسائل • كما أنه لايتخذ مناهج علم آخر ووسائله » (١) •

وفندريس يرى أن أصل اللغة من الناحية النفسية يتلخص فى خلق قيمة للرموز ، وهذا ما يفرق بين لغة الانسان ولغة الحيوان • ويؤكد أننا اذا بحثنا عن التحقيق التام للغة فى فرد فسوف لانجده ، وكثير هؤلاء الذين يتكلمون الفرنسية ، ولكن ليس هناك متكلم واحد بالفرنسية يستطيع أن يؤدى وظيفة القاعدة والمثال للاخرين فاللغة الفرنسية لاتوجد فى اللغة التى يتكلمها أى كائن انسانى بمفرده • ويمكن أن يقال باختصار ان اللغة شكل لغوى مثالى • يفرض على الافراد فى الجماعة الواحدة • وأعم تعريف للغة هو أنها نظام من العلامات •• ويقصد بالعلامات هذه الرموز التى تستخدم فى خلق اتصال بين شخص وآخر (٢) •

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٦ — ٧٧ .

(٢) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٥٠ — ٥١ .

وعند فندريس أن « الفرق الاساسى بين اللغة العاطفية واللغة العقلية انما يتضح فى تركيب الجملة،وهذا الفرق يبدو جليا حين نقارن لغة الكتابة بلغة الكلام » (١) ، وانما يكون الفرق فى تركيب الجملة فى نظره فى اختيار المفردات ، وفى طريقة ترتيب الكلمات فى الجملة (٢) ..

أما والتر. ف — فارتبورج Walter V. Wartburg الاستاذ بجامعة بال بسويسرا ، فيقرر فى موضوع العلاقة بين الكلمة والصورة أن كل مجموعة معينة من الاصوات يقابلها حالة وعى أو ادراك خاصة . فعندما تسمع الكلمة تنبعث الصورة حالا فى العقل وعلى العكس من هذا اذا انبعثت الصورة فى العقل فانها تثير الكلمة ولو لم تنطقها أعضاء النطق . وهكذا فانه يرتبط بكل مجموعة من الاصوات ، عند النطق بها ، وعند السامع اليها جميعا ، تصور لغوى . ولكن اللغة قائمة فى كل انسان على أنها استعداد . وهذا الاستعداد ذو وجهين : استعداد للتعبير عن النفس بطريقة مفهومة، واستعداد لفهم ما يحدث عن السماع وهكذا . فاللغة لايظهر منها الا جوانب ، فهى لاتكتسب وجودا حقيقيا مجسما بصورة فيزيقية ، الا عن طريق الكلام .. أى أنه فى كل كلام ننطقه أو نسمعه لايرتفع الى مرتبة الواقع الملموس الا جزء ضئيل فقط من ذلك الكل الذى يكون حقا قدرة الفرد على الكلام (٣) .

واللغة من حيث حقيقتها « تتصل كما قال والتر فارتبورج بالعناصر=المكونات الاساسية الاربعة للانسان ألا وهى : الميدان الفيزيقى والميدان العضوى،والميدان النفسى،والميدان الروحى.واللغة من حيث وظيفتها تحمل هذه الاربعة جميعا على أن تتعاون فيما بينها تعاونا فعالا . وهذه الصفة المعقدة التى تتصف بها الظواهر اللغوية تجعل

---

(١) نفسه ص ٥١ وانظر د. محمود السعران علم اللغة ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٢) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٥١ .

(٣) د. محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى هامش ص ٧٦ — ٧٧ .

التحديد الدقيق للظواهر التى يشتغل بها علم اللغـة أمرا بالـغ الصعوبة » (١) •

وبعض الباحثين يقرر أن للغة جانبا اجتماعيا وآخر نفسيا ، ولذلك يستعان فى دراستها بعلم الاجتماع لان اللغة ظاهرة اجتماعية كسائر الظواهر الاجتماعية ، كما يستعان فى دراستها بعلم النفس فانه يدرسها على أنها حادثـة نفسية (٢) •

ويقرر بعض الدارسين أن اللغة : « أداة مركبة معقدة فهى ذات جوانب كثيرة ، وتتألف من عناصر متعددة ، وتأخذ خلال الزمن أشكالا مختلفة تتنوع وتتعدد بتعدد البيئات والمجتمعات والطبقات • فهى تتألف من حوادث صوتية يبحثها علم الفيزيولوجيا ، وعلـم الفيزياء ، ونفسية يبحثها علم النفس ، واجتماعية يبحثها علـم الاجتماع ، وتاريخية يسردها علم التاريخ ويسجلها ، وجغرافية فيبحث علم الجغرافيا اللغوى فى توزيعها فى القارات والمناطـق والاقاليم • وهى كذلك تتألف من عناصر هى الاصـوات والالفاظ المفردة باعتبار مادتها وصيغتها ومعناها والتراكيب • وهذه العناصر جميعها كثيرا ما تتبدل وتتطور خلال الزمن ، وكثيرا ما تتغير بتغير الاقاليم والمهن والطبقات » (٣) •

ويؤكد بعض الباحثين المتخصصين أن دراسة اللغة على أساس من علم النفس دراسة قاصرة غير سليمة • ودراستها على أساس رياضى أو آلى يؤدى الى النتائج المرجوة • ولكن لابد من فلسفة عامة تقوم عليها دراسة اللغة ، ونقصد بالفلسفة هنا مجموعة من المبادىء أو الاصول أو الاسس مستمدة من موضوع الدراسة وهو اللغة • ولابد من تحديد أكثر من مستوى للدراسة (٤) •

ويرى دى سوسير أنه : « تشتمل دراسة اللغة على ناحيتين احداهما جوهرية موضوعها اللغة المعينـة التى هى اجتماعية فى جوهرها ومستقلة عن الفرد وهذه الناحية نفسية فحسب • أمـا

---

(١) نفس المصدر ص ٧٧ — ٧٨ •
(٢) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٩ •
(٣) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٩ — ٢٠ •
(٤) د• محمود السعران : علم اللغة ص ٨١ — ٨٢ •

الاخرى فتتناول الدور الفردى للغة باعتباره موضوعا لها ، أو بعبارة أخرى الكلام المكون من أصوات وهذه نفسية وعضوية معا » (١) •

ويقرر دى سوسير أن اللغة المعينة منسجمة فى تجانسها ، فهى نظام من العلامات التى ترتبط بمعانيها ارتباطا اعتباطيا ، وتعبر هى ومعانيها على التساوى وعن مدركات نفسية (٢) •

واللغة المعينة فى نظره جـزء من الوعى الجمعى أو العقـل الجمعى ، وهذا العقل الجمعى انما يوصف به الكائى الاجتماعى الذى قال به دوركايم وهذا الكائن الاجتماعى هو ملخص للمجتمع •• فهى اذا نظام جراماطيقى يوجد تقريبا فى جميع العقول •• وذلك لان اللغة المعينة لايمكن أن تكون كاملة فى ذهن أى فرد بعينه بل لاتكتمل الا فى الوعى العام •

ويرى دى سوسير أن هذا الوعى الجمعى ربما كان له وجود نفسى •• وهو بذلك قد بالغ فى اعطاء اللغة كل هذه الصبغة الذهنية بجعلها نتيجة الحكمة الجمعية ، وحرم اللغة من عنصرها الفردى ، وأتى بمايتنافى مع فكرة اختيار متكلم بلهجة ما ليتخذ موضـوعا لدراسة هذه اللهجة (٣) •

أما جسبرسن فيرى أن اللغة فى جوهرها نشاط انسانى ومجهود فردى للشخص الذى يفهم بها أو يتصل بشخص آخر على الاقل •• ويقرر أن النظر الى اللغة باعتبارها العقلى أى كوسيلة من وسائل الاتصـال ونقل الافكار لايجعلنـا أبـدا ندنو من الفهم التـام لطبيعتها (٤) • ويبين الدكتـور محمود السـعران « أن النظرية الكلاسيكية فى اللغة تقوم على أساس منطقى أو رياضى أو نفسى أو آلى يؤدى الى اعتبار اللغة مرآة ينعكس عليها الفكر أو أداة

---

(١) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٣١ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٤ .
(٣) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ .
(٤) نفسـه ص ٤١ .

عاكسة للفكر أو مستودعا للفكر المنعكس أو وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه الى أشباه هذا • أى أن وظيفة اللغة عند أصحاب هذه النظرية هى التفاهم أو توصيل الفكر أو التعبير عن الفكر ، ولكن هذه النظرية لاتمكن من تحليل جميع أشكال السلوك الكلامى.فليس ثمة توصيل للفكر فى أنواع كثيرة من الوظائف الكلامية » (١) • وما قاله هذا الباحث صحيح ، أما قول جيفونز وهو عالم انجليزى فى المنطق والاقتصاد من أن اللغة تخدم ثلاثة أغراض لانها عنده وسيلة للتوصيل ، ومساعد ميكانيكى للتفكير ، ووسيلة للتسجيل فيمكن الرد عليه بما قاله الدكتور محمود السعران (٢) •

والنظر الى اللغة على أنها وظيفة اجتماعية هو الادق والاصح ، لان الاهداف الفكرية الثلاثة تنطبق على المفكرين فحسب ، وعليهم فى أعمق حالاتهم الدراسية فقط (٣) • ويقال أن عميقى المفكرين شكوا من اللغة التقليدية قد عوقتهم أحيانا عن الغوص على الافكار فهى بمفرداتها وصيغتها الثابتة ترغم المفكر على أن يسير على السبل المطروقة ، وأن يفكر كما فكر الآخرون من قبل (٤) •

وهناك من يرى أن تقدير اللغويين لوظيفة اللغة الاجتماعية لايتعارض وما ذهب اليه المناطقة القدماء منهم والمحدثون من أن اللغة فى مجالها الاجتماعى تخدم الاغراض الثلاثة التى حددها جيفونز • ويقرر أن الفيلسوف برتراندرسل يقول : ان للغة وظيفتين جوهريتين هما التعبير والتوصيل • واذا كان جسبرسن يدفع هذا الرأى ويناهضه ويظل مؤمنا بأن للغة وظيفة اجتماعية فان هؤلاء

---

(١) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٨٤ — ٨٥ وانظر لنفس المؤلف اللغة والمجتمع ص ٤ — ٥ .

(٢) وانظر اللغة والمجتمع للدكتور السعران هامش ص ٥ — ٦ وانظر ص ١٠ وانظر د. كمال بشر : قضايا لغوية دار الطباعة القومية ١٩٦٢ ص ١٧ — ١٨ .

(٣) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٤٢ واللغة والمجتمع للدكتور محمود السعران ص ١٠ وقضايا لغوية للدكتور كمال بشر ص ١٩ — ٢٠ .

(٤) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٤٢ .

لاينكرون الجانب الاجتماعى والسلوكى فى حياة اللغة سواء أكانت لغة طفل يعبر بها عن رغباته وحاجاته أم لغة عالم أو فيلسوف ارتقت معه لغته فأصبحت تؤدى دورا آخر بالاضافة الى دورها الاجتماعى (١) •

ولا يتسع المجال لتناول النظرية الكلاسيكية بتفصيل أكثر ونقد أوسع وأشمل وحسبنا ذلك •

ونمضى فى طريقنا لنوضح أهم الآراء فى اللغة فنقول : يقول هارولد بالمر : « ان هذا الشىء المركب غير المتجانس الذى نسميه اللغة يشتمل فى الحقيقة على ناحيتين : أولا حاصل جمع أحوال النشاط الذهنى والعضوى الذى يقوم به شخص حين ينقل لشخص آخر •• ادراكا ما (فكرة أو رأيا أو عاطفة) • وهذا هو الكلام • ثانيا : حاصل جمع أوضاع متعارف عليها منظمة ومقبولة من الجمهرة الاجتماعية التى تستعمل الناحية الاولى لتضمن الوضوح المتبادل بين أفراد هذه الجمهرة وهذه هى اللغة • فالناحية الاولى طائفة من النشاطات الشخصية ، والثانية طائفة من أوضاع التعارف •• ونظرية الكلام من دراسة علم النفس وتطبيقه من عمل المتكلم ، ونظرية اللغة من دراسة علم اللغة • وتطبيق اللغة يقوم به هؤلاء الذين يعملون ويدرسون كودها بأنفسهم • وكلما نجحنا فى نقل مدركاتنا فنحن نطبق الكلام وكلما حللنا طريقة تعبيرية بنجاح أو شرحناها أو كونا جملة أجنبية بالطريقة التركيبية الخالصة فنحن نطبق اللغة » (٢) •

أما سابير فيرى أن اللغة طريقة انسانية غير غرزية لنقل الافكار والعواطف والرغبات بواسطة نظام من الرموز التى تستعمل بحسب الارادة (٣) •

---

(١) د. السيد أحمد خليل : اللغة بين الادب والتشريع ص ٢٣ — ٢٤

(٢) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٤٤ — ٤٥ .

(٣) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٥٩+د : تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٥٥ .

« وجوهر اللغة يتلخص فى أنها تخصص رموزا صوتية للعناصر المختلفة للتجارب . وهذه الرموز يجب أن تكون مخصصة بحسب التعارف لا بحسب الطبع ، ولا المنطق . أى أن العلاقة بين الكلمة وبين مدلولها علاقة اعتباطية غير مسببة » (١) .

ويتجه بلومفيلد الى توضيح الحقائق الكلامية فى ظل الفهم للنفس الانسانية . وهو مع ذلك يحذر الباحث من الاعتماد على نظرية من نظريات علم النفس (٢) .

ومن العلماء من يعتبر أن للنفس نظاما يختلف عن نظام المادة الملموسة المحسوسة فى كنهه ، ويمت الى عالم آخر غير عالم المادة المألوفة لنا ؛ فهو غير خاضع للتجربة . والملاحظة بواسطة الحواس . ولاشك أن كل مقدمات فى هذا النظام النفسى تؤدى حتما الى نتائج معينة ؛ فليست تسير النفوس على غير هدى أو دون نظام وان كنا لانزال نجهله ؛ ولانقف على أسراره فلو أننا نعرف تفاصيل هذا النظام النفسى لامكن التنبؤ بنتيجة الكلام فى كل مرة يتم فيها النطق بتلك الاصوات اللغوية (٣) .

ومن العلماء من يرى أن الجسم الانسانى جهاز شديد التعقيد ، ويوجه الى أن أصحاب علم النفس يكتفون بنوع من التجربة الخارجية حين شق عليهم ملاحظة ما يجرى فى داخل الجهاز الانسانى ، وقنعوا بملاحظة الآثار التى تترتب على تلك العمليات الداخلية لعلهم يهتدون الى شىء من أسراره وخفاياه . وقد أدى ذلك الى اكتفائهم بأن يقال أن الناس فى مجموعهم يتصرفون تصرفا معينا حين يسمعون جملة معينة دون تخصيص فرد معين بمثل هذا الحكم . ان العناية توجه الى النظام العام الذى ينتظم كل الافراد ، والذى جرت به العادة فى بيئة لغوية معينة (٤) .

---

(١) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٥٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٩ — وانظر ص ٤٥ — ٤٩ .
(٣) د. ابراهيم أنيس : دلالة الالفاظ ص ٥٧ .
(٤) نفس المصدر ص ٥٨ — ٦١ .

ومن الباحثين من لاحظ أن الظواهر اللغوية تعتمد فى أدائها على ظواهر نفسية ، وتأثرها بها لا يقل عن ارتباطها بالظواهر الاجتماعية • فالحدث اللغوى أو العبارة يستدعى أمورا منها الباعث على التعبير والتفكير فيه وتكوين الفكرة وايضاحها أو غموضها ، وارتباط هذه الاشياء بعقل الانسان وجنانه ، وتذكره ووجدانه ، وغير ذلك من الظواهر النفسية • هذا الارتباط يظهر أثره فى تخير الالفاظ ورقى العبارة أو انحطاطها ،ومطابقتها للمعنى أو انحرافها عنه • كذلك تفاوت السامعين فى فهم العبارات تبعا لتفاوت مداركهم قوة وضعفا ، هذه الملاحظات وأشباهها دفعت العلماء الى بحث العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية ، وكان من نتيجة هذه البحوث علم النفس اللغوى (١) •

وشتى الآراء التى ذكرناها لم تذهب الى المستوى الذى ذهب اليه الرافعى فى اعتبار اللغة عملا نفسيا محضا ، وفيما ذكره فى التعيين والتفصيل ، وتكافؤ النفس واللغة ولا نرتاب فى أن الرجل يمثل نظرة أدبية ، ورؤية نفسية خالصة • وعالم اللغة يهمه الحقائق اللغوية ، وسبق أن ذكرنا أن الاسم ليس واجبا للمعنى (٢) •

ولا نشك فى أن الالفاظ اصطنعها الانسان للتعبير عما يخطر فى ذهنه غير أنها اكتسبت مع الزمن صفة ليست فى غيرها من الرموز الاصطلاحية •

والاديب يربط بين الالفاظ والمعانى ، واذا أردنا الصواب والدقة فان الربط الحقيقى لايكون الا بين الشىء وصورته الذهنية أى أن اللفظ شىء أجنبى عنهما اتخذ دليلا عليهما ، أو رمزا لهما ، ولكنه اكتسب مع الزمن صفة نحت به فوق اعتباره مجرد رمز من الرموز (٣) •

---

(١) د. على عبد الواحد وافى : علم اللغة الطبعة الثانية ص ١٠ .
(٢) انظر هذا البحث ص ٤١ ، ٤٨ .
(٣) د. ابراهيم أنيس : دلالة الالفاظ ص ١٠٢ .

ومن الملاحظ أنه ينسب للالفاظ ما ليس لها فى الحقيقة ، وهو بما يؤمن به من كمال اللغة ، وما يمتاز به العرب من رقة الشمائل ولطف الحواس النفسية ، وتمدن مستواهم اللغوى الذى جعل ألفاظهم فصولا علمية لانه يرى أن اللغة تصور ألفاظها الحقيقة كما هى وكما يريدها المتكلم ، ويتصورها — يؤمن بأن الكلمات مصقولة تبرز الانطباعات الدقيقة من وجداننا الفكرى ، وتعبر التعبير الكامل عن آرائنا ومشاعرنا ، وعندما تدل على الشىء المقصود نفسه كما هو فى الواقع أو فى تصور المتكلم نفسه — لاتندس بعض الحجب بينها وبيننا فتحجبها عنا (١) •

ان الانتباه الروحى ممثل بالفاظ وهى تكشف كل شىء • والرافعى يؤكد ذلك كله بوضوح وايمان عميق حين يقول : (٢) « ومما لاتقضى منه عجبا فى تتبع فلسفة هذه اللغة العربية العجيبة أننا نرى أكثر ألفاظها كالتامة لاينقصها شىء من دقائق المعنى فى أصل وضعها على حين لايفهم علماؤها من هذه الالفاظ الا بعض ما تدل عليه كأنها منزلة تنزيلا ممن يعلم السر ، وقد نبهنا الى هذا فى كتابنا (تاريخ آداب العرب)وأفضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته ، وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التى تفوت العقل ، حتى ان أكثر ألفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفض العلوم والفلسفة خواتمها فى عصور آتية لاريب فيها • وكلمة التوليد التى لم يفهم منها العلماء الا أخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الاخذ التى أشاروا اليها فى كتب الادب هى الكلمة التى لايخرج عنها شىء من أسرار النبوغ ولاتجد ما يسد فى ذلك مسدها أو يحيط احاطتها ، ولاتظن فى لغة من اللغات ما يشبهها فى هذه الدلالة ، واستيعابها كل أسرار المعنى اذ هى بلفظها نص على حياة الكون فى الذهن الانسانى وأنه يتخذه وسيلة لابداع معانيه ، كما يتخذ سر الحياة بطن الام وسيلة لابداع موجوداته ، وأن المعانى تتلاقح فيلد بعضها بعضا فى أسلوب من الحياة ، وأن هذه هى وحدها الطريقة لتطور الفكر ، واخراج سلالات من المعانى بعضها

---

(١) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٠٥ •

(٢) وحى القلم : الطبعة الثالثة ص ٢٦٩ — ٢٧٠ •

أجمل من بعض كما يكون مثل ذلك فى النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ، وأن النبوغ ليس شيئا الا التركيب العصبى الخاص فى الذهــن •• »

ومن الحق أن نقول اننا نجد اختلافات شاسعة لدى الافراد بين ما يشير اليه هذا اللفظ أو ذاك فى الواقع الفعلى وبين ما يمكن أن يعبروا به عن انطباعاتهم ازاء اللفظ المعين ، فالالفاظ تحمل مضامين بالنسبة الى الافراد تختلف وتتباين تبعا لنوع الخبرة المكتسبة (١) •

ومما يلزم مراعاته أن المتكلم فى أى لغة من اللغات لايستطيع أن ينقل الى مخاطبه الصورة الحقيقية التى يريد نقلها ، والاخبار عنها بجميع دقائقها وجزئياتها وذلك لان اللغة انما تقدم له ألفاظا تدل على عموميات وكليات وأنواع وأجناس • وفى كل لغة قدر من التجريد ، وضرب من التصنيف لابد من ملاحظته ، والتجريد يؤكد أن ألفاظ اللغة مفاهيم مجردة جردها أصحاب اللغة من الواقع ، ونفهم ذلك اذا اعتبرنا أن كل لفظ تدخل تحته أفراد كثيرة ، ويسمى كل واحــد منها بذلك اللفظ • « ويبقى اللفظ مشاعا بينها ، قابلا للانطباق على كل واحد منها دون تخصيص • فكلمة شجرة مثلا تنطبق على كل شجرة أيا كان نوعها وأنى كانت بمعنى أننا جردنا من أفراد الشجر الكثير المتنوعة فى أشكالها وألوانها وأطوالها وصفاتها صورة مشتركة بينها ، وأطلقنا على هذه الصورة المتخيلة المجردة كلمة شجرة » (٢) •

أما التصنيف فنفهمه اذا عرفنا أن تسمية الاشياء ووضع الالفاظ للدلالة عليها فى كل لغة من اللغات نوع من تصنيف الموجودات « فيدخل تحت لفظ الشجرة والدار والحجر والمشى والقطع والصوت وسائر الالفاظ الدالة على شىء مادى أو فعل — أفراد كثيرة لاتحصى ، وليست هى متماثلة متطابقة • وكذلك يدخل تحت كل لفظ من الحب والبغض والحزن والغضب والنشوة حالات كثيرة جدا يختلف بعضها

---

(١) د. نوال محمد عطية : علم النفس اللغوى . نشر مكتبة الانجلو المصرية — الطبعة الاولى ١٩٧٥ ص ٨ .

(٢) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

عن بعض ، ولكن اللغة جمعتها تحت عنوان واحد ، وجعلتها نوعـا يسمى باسم واحد » (١) •

ولاجدال فى أن اللغة أقدر الوسائل التى عرفتها الانسانية فى تاريخها الطويل للتعبير عن الافكار . والانفعالات . والعواطف ، وهى على قدرتها تنقصها الدقة أحيانا • ذلك لان الطاقة اللغوية عند المستعملين لهـا تختلف من شـخص الى آخر (٢) يقول Potter

: « ان المعرفة قدرة ولكن القدرة على اختيار الكلمات التى تؤدى بها هذه المعرفة أقوى وأعظم سواء أكانت هذه الكلمات أريد بها الاقناع أم الاخبار أم الاثارة » (٣) •

ويبدو أن الرافعى لم يراع الفروق التى بيننا ، ولم ينظر الى ماتعجز عنه اللغة • ومن المهم أن يكون فى الاعتبار أن أى لغة تعجز عن التعبير الكامل عن آرائنا ومشاعرنا « فالفروق بينها كثيرة لاتكاد تلمس فتضطرنا اللغة مثلا أن نعبر بلفظ الحب أو البغض عن آلاف من ضروب الحب والبغض كلها مختلفة ، وكذلك الحال فى موضوع آلامنـا ملاذنا (٤) •

ولا يجب أن يغيب عنا أن الكلمـة غير مصـقولة تختزن مـن انطباعات البشر كل ما هو ثابت ومشترك ، أى غير شخصى ، وتسحق أو تغطى على الاقل الانطباعات المـدقيقة والعابـرة من وجـداننا الفكرى (٥) • « والالفاظ عدا الاعلام تدل كلها على أنواع • والكلمة وهى لاتسجل من الشىء المسمى الا وظيفته الاكثر اشتراكا ووجهه المبتذل ــ تندس بينه وبيننا •• وليست الاشياء الخارجية وحدها هى التى نقلت منا ، بل حالاتنا النفسية الخاصة بنا فى أخص ما فيها ، وأكثره شخصية وما نحياه حياة ابداع • فنحن لانلتقط من مشاعرنا

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ .
(٢) د. السيد احمد خليل : اللغة بين الادب والتشريع ص ٢٣ .
(٣) Potter : Our Own Language. P. 2 - 3
(٤) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٠٤ .
(٥) نفســه ص ٢٠٤ .

الا جانبها غير الشخصى ذلك الذى استطاعت اللغة تسجيله لمرة واحدة نهائية لانه واحد بالنسبة الى جميع الناس فى الاحوال نفسها » (١) .

والتسمية اللغوية ليست الا تصويرا لبعض جوانب المسمى أو بعض صفاته أو أجزائه أو أبرز أعماله . « والكلمة ليست تعريفا للشىء ؛ ولا تحديدا لكنهه ، ولا وصفا محيطا بجملته وأجزائه ، فقد يكون اللفظ فى أصل معناه أوسع من المسمى ، وهو الغالب . وانما يأتى التخصيص من الاصطلاح والتواضع .

فلفظ الجنين من مادة جنن ، وهى مادة تفيد الستر ، وسمى الجنين كذلك لانه مستور فى بطن أمه ، وليس الستر هو الصفة الجامعة المانعة للجنين ، وانما هى احدى صفاته ، ويشاركه فيها موجودات أخرى أيضا . ويمكنك أن تقول مثل هذا القول فى سائر الالفاظ المحتفظة بمعانيها الاصلية ، والموضوعة لمدلولات معينة مثل الحديقة والجمل والسيارة والطريق والزكاة والربا » (٢) .

وللكلمة تاريخ طويل ينفى الذاتية ، ويكون لها تصورا خاصا عند كل فرد . والقدر الحقيقى لمعرفة الانسان بعالم المتكلم قدر ضئيل جدا ، والمواقف غير محددة تحديدا واضحا ، أما وجهات النظر فهى تختلف فى عملية التحديد وكذلك يختلف مزاج المتكلم وحالته النفسية والثقافية ، وتختلف العوامل الوراثية ، وقد تستعمل الالفاظ فى غير المواقف التى اعتاد أكثر الناس استعمالها فيها . وهناك صعوبات أخرى يجب مراعاتها (٣) .

وفى ضوء ذلك يظن بعض الناس أن المعانى مكانها العقل أو الذهن وهنا يصعب الوصول الى المعانى العقلية أو المعانى المختزنة فى الذهن أو يستحيل أحيانا الوصول اليها .

---

(١) نفسه ص ٢٠٤ .
(٢) نفسه ص ١٩٦ .
(٣) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة : القسم الثانى ص ١٦٣ — ١٦٤ .

والظواهر اللغوية عند بعضهم يجب ألا يعتمد فى تفسيرها وتحليلها على أسس عقلية أو ذهنية ، وانما يجب الاعتماد على الحقائق اللغوية (١) • ويرى بلو مفيلد أن معرفة معنى اللفظ أو العبارة أو تحديده تحديدا علميا دقيقا يحتاج الى معرفة أشياء ليست فى مقدورنا ولا نستطيع الوصول اليها بحسب امكاناتنا الحالية • وفى ذلك يقول : (٢) « ان تقديم تعريف علمى لمعنى كل صيغة فى لغة ما يوجب علينا أن نكون عارفين تماما بكل شىء فى عالم المتكلم بهذه اللغة • ولكن القدر الحقيقى لمعرفة الانسان بهذا العالم قدر ضئيل جدا • قد تكون لدينا المقدرة على تحديد معنى كلمة من الكلمات تحديدا علميا وذلك عندما يكون هذا المعنى مختصا بأشياء لنا معرفة علمية بها • انه من الممكن مثلا تعريف أسماء المعادن عن طريق الالتجاء الى أساليب الكيمياء أو علم المعادن كأن نقول مثلا ان المعنى العادى للكلمة « ملح » هو كلوريد الصوديوم • وكذلك يمكننا أن نعرف أسماء النبات والحيوان عن طريق الاصطلاحات المستعملة فى علم النبات والحيوان ، ولكن ليست لدينا طرق دقيقة لتحديد معانى كلمات كثيرة أخرى ككلمة حب أو كراهية التى تتصل بمواقف غير محددة تحديدا واضحا • وهذه المواقف وأمثالها تشكل الغالبية العظمى من مواقف الكلام الانسانى » •

ويتدرج بلو مفيلد فى حديثه قائلا (٣) : « وعلى فرض قدرتنا على تحديد معانى بعض الكلمات عن طريق استخدام المصطلحات العلمية المتفق عليها فى بعض العلوم فسوف تقابلنا صعوبات جمة فى الطريق •• » •

ونحن نؤيده فى أنه من الصعب الوقوف على معانى الالفاظ وقوفا دقيقا يمثل كل ما يقصده مستوى النهج المثالى ، ولكننا لانرى اخراج العقل والفكر من الدراسة ، اذ لايمكن أن تخرج الدوافع

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ •
(٢) المصدر ذاته ص ١٦٣ •
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٣ — ١٦٤ •

الاساسية كالبواعث والحاجات والرغبات للانسان والطبيعة الاجتماعية وفى كلامه ما يتضمن اعترافا بامكان دخول العناصر الذهنية أو العقلية فى المسائل اللغوية ، وان كان ينصح بعدم الالتجاء اليها لصعوبتها ، ويتهرب هو نفسه من التورط فيها (١) .

ومن الواضح أن الدلالة أمر فردى لاتكاد تتحد فيه الاذهان بل تتباين تباينا كبيرا ، وان كان اللغوى لايقف أمام الدلالات المتباينة مكتوف اليدين بل يحاول تحديدها (٢) .

والرافعى لايرى أن تحديد المعنى أمر على جانب كبير من الصعوبة ، ولا ينظر الى الخلاف على معانى الالفاظ ، وما صنعته المناهج الكثيرة فى التفسير ، وكذلك لم يراع أنه على الرغم من مراعاة الدقة الكاملة فان النزاع يحدث والخلاف يكثر ، وأن هناك لغات لها طبيعة خاصة تعول على الالوان والظلال المختلفة التى تثيرها الكلمات وهناك استعمالات يومية للالفاظ وايحاءات وارتباطات نتجت عن الحياة المشتركة .

وفى كلامه ما يدل على اعتماده فى المستوى الذى تصل اليه الالفاظ فى سياسة المعانى وانزالها فى منازلها ووضعها على أقدارها — على المعنى القاموسى أو المعنى المعجمى ، فقد أشار الى اعتماده على كتاب الثعالبى (٣) .

والكلمة لها غير المعنى القاموسى العام ، فالمعنى المذكور ليس كل شىء فى ادراك معنى الكلام . فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير فى تحديد المعنى ، بل هى جزء أو أجزاء من معنى الكلام كشخصية المتكلم ، وشخصية المخاطب ، وما بينهما من علاقات ، وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذات صلة به كالجو مثلا ، أو الحالة السياسية . ومن حضور غير المتكلم وغير المخاطب وعلاقتهم بهما (٤) .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧١ .
(٢) د. ابراهيم انيس دلالة الالفاظ ص ١٠٤ .
(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٠ .
(٤) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٢٨٨ بتصرف يسير .

والمعجم لايستطيع أن يحصر جميع السياقات التى تقع فيها كل عبارة ، وكل كلمة من كلمات اللغات وعباراتها • انه قد يأتى بأنواع من دلالات الكلمة أو العبارة ، ولكن تحديد معنى الكلام يحتاج الى مقاييس وأدوات أخرى غير مجرد النظر فى القاموس • والكثير من الخلافات والمشتات والآلام مرجعه أننا لانعرف معنى ما نقوله أو ما يقال لنا أو ما نسمعه أو نقرؤه (١) •

ولا يقر الرافعى الا الاساس الذى يسير عليه وهو العمل النفسى المحض ، والتكافؤ الذى يؤدى الى أن تقوم النفس بالتصور ، وتقوم اللغة بالتصوير •

ومن حقنا أن نساءل كيف يقوم العمل النفسى المحض بايقاع اللفظ الواحد على معنيين متناقضين ؟ ! وما موقف التكافؤ هنا ؟

والرجل يقبل التضاد اذا صحت فيه الحجة ، ونهض به الدليل ، وغير ذلك يعد عنده عبثا « لما فيه من التبس أطراف الكلام ، ورجوع بعضه على بعض بالنقض ، وان اصطحب من القرينة بما يوضح تأويله ، ويعين جهة الخطاب فيه • وذلك مالايمكن أن يغمز فيه على العربية ، وهى بخصائصها وسنن أهلها فى الوضع والتصرف تعتبر كالعقل المدرك فى جمجمة اللغات » (٢) •

وهو يذكر المذاهب فى التضاد ، ولكنه يشعر بأن هناك ما لايتفق مع آرائه فيعود الى ذكر رأيه فيه ، ويضعف موقفه ، ويهاجم نسقه ، ثم يجد نفسه مضطرا للاعتراف به ، واقرار ما جاء منه لقبائل مسماة وبيان حكمه فى وجهه • يقول فى تاريخه (٣) • « والذى عندنا فى ذلك أن التضاد ليس قديما فى اللغة ، ولا هو من سنن الوضع عند العرب لانه لاتمس اليه الحاجة الطبيعية ، وليس فى كل ماورد من ألفاظه لفظة واحدة تفتقر اليها اللغة • فلابد أن يكون أصله حادثا فى

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .
(٢) الرافعى تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٩٤ .
(٣) نفسه ص ١٩٥ — ١٩٧ وانظر الاضداد فى دائرة المعارف المجلد الثانى العدد (٥) يونيه ١٩٣٦ ص ٢٩٦ — ٣٠٠ .

زمن النهضة التى تقدمت الاسلام حين اختلطت القبائل ، وانصرف العرب الى زينة المنطق ، والتملح فى الكلام ، فهو تفنن تدخله بعض القبائل فى لغتها ، وتتوسع به لاحدى المناسبات المرهونة بأوقاتها ثم يعرفون به ويمضون عليه فى التعبير فيثبت فى ميراث القبيلة من اللغة .

ومما يرجح ذلك أن الالفاظ التى يتحقق فيها معنى التضاد الطبيعى قليلة كالسدفة للضوء والظلام ، والصريم لليل والنهار ، والجون للابيض والاسود ، والسجود للانحناء والانتصاب ، ونحوها . وقليل منها منسوب للقبائل التى استعملته على وجهيه . أما أكثر مايعدونه من الاضداد فمعظمه حادث فى الاسلام اقتضاه تصرفهم فى اللغة على ضروب من الاشارة والايجاز فهو تفنن محض ، لايرجع الى الوضع الواحد ولا المتعدد بل يكاد يعد نوعا من البديع أو الصناعات اللفظية ... ولو صح أن التضاد قديم فى اللغة ، وأنه ثابت فى أصل الوضع لفسد هذا الوضع ، ولبطلت حكمته ثم لابد أن يكون من أثر ذلك شىء كثير فى منقول اللغة . وهو خلاف الواقع ، حتى أن العلماء كانوا يتميزون من هذا النوع بمعرفة ألفاظ معدودة .. أما الالفاظ التى رويت من هذا الباب ونسبوها لقبائل مسماة فقد حرصنا على جمعها اتباعا لطريقتنا التى نحوناها فى هذا التاريخ لانا نرى فى مثل ذلك أشباحا للمعانى التاريخية التى ذهبت فى آفاقها ، والشبح ان لم يفصل معانى جسمه ، ولم يضبط أجزاءه ، فلا أقل من أن يعين موقعه، ويظهر منه صورة مبهمة وذلك فتح عظيم فى مثل هذا التاريخ المستغلق بابه ، المضروب على الغيب حجابه .. » .

ومن الغريب أن الرافعى يقر المشترك ، ويعترف بأنه وجه من وجوه الوضع . والمضاد نوع من المشترك (١) . وهو يرفض اعتباره من الوضع ، يقول ألكيا (٢) : « المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين . فما يقع على الضدين كالجون ، وجلل ، وما يقع على مختلفين غير ضدين كالعين » .

---

(١) السيوطى المزهر جـ ١ ص ٣٨٧ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

وقال ابن فارس فى فقه اللغة (١) : « من سنن العرب فى الاسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد ، نحو الجون للاسود ، والجـون للابيض . قال : وأنكر ناس هذا المذهب ، وأن العرب تأتى باسم واحد لشىء وضده ، وهذا ليس بشىء ، وذلك أن الـذين رووا أن العرب تسمى السيف مهندا ، والفرس طرفا هم الذين رووا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد .. » .

ويقول الرافعى فى المشترك (٢) : « وهذا بلاشك فى أن مأتاه من تعدد الوضع ، وتباين اللغات ، لان الالفاظ متناهية ، والمعـانى لاتتناهى ، فاذا وزعت هذه على تلك لزم الاشتراك ، واختصاص اللفظ الواحد بمعنيين أو أكثر .. » ثم يقول (٣) : « لاجرم أن الاشتراك وجه من وجوه الوضع فى اللغة . فان أكثره راجـع الى الاشتقاق والمجاز كما يقـال مشى من المشى ، ومشى اذا كثرت ما شيته . وكما نقلوا من أسماء الطير لاجزاء الفرس فسموا العظم الذى فى أعلى رأسه بالهامة ، وهو اسم طائر . وسموا دماغه الفرخ . والجلدة التى تغطى الدماغ بالنعامة . والعظم الذى تنبت عليه الناصية بالعصفور الخ وهى عشرون اسـما » .

وواضح أن هذا الكلام يثبت التناقض ، ولسنا معه فى ذهابه الى أن التضاد ليس قديما فى اللغة ولا هو من سنن الوضع عند العرب لانه لاتمس اليه الحاجة الطبيعية ، وليس فى كل ما ورد من ألفاظه لفظة واحدة تفتقر اليها اللغة .. ثم قوله : « ولو صح أن التضاد قد تم فى اللغة ، وأنه ثابت فى أصل الوضع لفسد هذا الوضع ، وبطلت حكمته .. » .

فالحق أن الاضداد يجب النظر اليها نظرة دقيقة تحدد المستوى ، وتكشف العمق الذى يحيط بسرها . ان تلك النظرة ترفض النهج الذى فهمه الرافعى وغيره ذلك النهج الذى يحتم تعيين أحد المعنيين دون الآخر لانه لو تعين أحدهما دون الآخر لكاد ذلك اخلالا بالنظم

---

(١) نفس المصدر ١/٣٨٧ — ٣٨٨ وابن فارس الصاحبى ص ٦٦ .
(٢) تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ١٩٠ .
(٣) نفس المصدر ص ١٩١ .

الذى من طبيعته أن يقتضى تعيينا وترتيبا ، ولكان ما يدل عليه من لفظ خاص أولى (١) •

والنظرة الدقيقة تفهم الاضداد باعتبار النظر اليها على أنها اللفظ الجامع للموقف الجامع للقدر المشترك • بمعنى أن الضدية هى تعبير عن دفاع خوافى العوالم قبولا ورفضا ، وصراع غوامض النداء سلبا وايجابا ، ونتاج تكثيف التجارب نفيا واثباتا ، وتعبير عن تردد خوالج الصدر سعة وضيقا وتأزم عوارض النفس خوفا وأمنا ، وتحير كوامن الانسان يأسا وأملا حيث تتكافأ أدلة العقول ، ويتفاوت وجيب القلوب : حقائق موائل للاذهان ثوابت للاعيان (٢) •

ونستطيع أن نقول : ان الاضداد لون من ألوان اللغة له مستواه الذى لايتنافى مع الحكمة والاتقان ، وما ينبغى أن يكون عليه أمر الواضع الواحد ؛ فالقدر المشترك الذى يؤديه يحمل الغرض ، ويوحى بالعمق ، وأن اللغة تضع الشىء المناسب فى مكانه المناسب حتى أنه لايمكننا وضع شىء آخر مكان هذا الذى يسمى بالمتضاد • فما القرء بالحيض وما القرء بالطهر (٣) •

يقول الراغب فى المفردات (٤) : «وليس القرء اسما للطهر مجردا، ولا للحيض مجردا بدلالة أن الطاهر التى لم ترأثر الدم لايقال لها ذات قرء وكذا الحائض التى استمر بها الدم والنفساء لايقال لها ذلك » ، وفسر قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ٢٢٨ م البقرة بثلاثة دخول من الطهر فى الحيض (٥) • والسر فى ذلك النفى ، المخالطة ، والفترة لاتدرى المرأة فيها من أمر استبرائها شيئا ، ومن ثم كان تقدير هذه المسألة ظنيا ؛ وعملية التربص دالة على أن الموقف قد ينبهم حتى قيل « متى حصل ظن زوال الحيض وجب الغسل » • ان الطهر محفوف بعدم التأكد من جانب

---

(١) د. محمد بدرى عبد الجليل — المجاز وأثره فى الدرس اللغوى ص ١٩٨ — ١٩٩ •

(٢) نفسه ص ٢٠٢ — ٢٠٣ •

(٣) نفسه ص ٢٠٣ •

(٤) ص ٤١١ •

(٥) نفسه ص ٤١١ •

البشرية محمول (١) •• ويمكن استخدام تلك النظرة الدقيقة فى تفسير أمثلة التضاد وكشف أسرار هذه الظاهرة • وحسبنا هذا المثال (٢) •

ولو فهم الرافعى وغيره المستوى الذى تسعى اليه الاضداد فى الحقيقة لادرك أنها تجارب العبث ، وتقضى على التباس الكلام ، ورجوع بعضه على بعض بالنقض ، ان التضاد اذا فهم مستواه ، ودرست حدوده ، وقد رما يمثله من حدود لا مندوحة عن تقديرها ورعايتها — أكبر دليل على أنه عقل مدرك أغراض الدلالة ، وأهداف الالفاظ • ان صاحب تاريخ آداب العرب تسرع فى الحكم بأن التضاد ليس قديما فى اللغة ، ولاهو من سنن الوضع عند العرب ، لان العلماء ذكروا شواهده من القرآن • مثل قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ، وقول الله تعالى : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » وقوله عز وجل : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » وقوله : « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه » •

كما ذكروا شواهد أخرى نقلها السيوطى فى المزهر (٣) عن أبى عبيد فى الغريب المصنف ، وابن دريد فى الجمهرة ، وغيرهما من العلماء الذين يعول عليهم فى الدرس اللغوى • ومن المعروف أنه ألف فى الاضداد جماعة من أئمة اللغة منهم قطرب ، والتوزى ، وأبو بكر ابن الانبارى ، وأبو البركات بن الانبارى وابن الدهان ، والصغانى (٤) • ومن الواضح أن تعدد معانى اللفظ ظاهرة لغوية نجدها فى جميع اللغات الشائعة (٥) ، وأن كل كلمة تلفظ تثير معناها المضاد (٦) •

---

(١) د• محمد بدرى عبد الجليل : المجاز واثره فى الدرس اللغوى ص ٢٠٣ •

(٢) انظر امثلة اخرى فى : محمد بدرى : المجاز واثره فى الدرس اللغوى ص ٢٠٣ وما بعدها •

(٣) جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها •

(٤) السيوطى المزهر جـ ١ ص ٣٩٧ •

(٥) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٩٩ و د• محمود السعران — علم اللغة ص ٣١٠ — ٣١١ •

(٦) د• محمود السعران : علم اللغة ص ٣١١ •

ومن الواجب بعد هذا كله أن ننتهى الى أن اللغويين المحققين يهتمون بالعلاقات العرفية التى تربط بين المبنى والمعنى ، ويعرفون أن منطق اللغة ومقولاتها يختلفان عن منطق الفكر ومقولاته ، حيث تعتبر النمطية الصياغية التى لاتخضع للفكر وانما تخضع لمقتضيات الرمز العرفى الاعتباطى ، وفئة علماء النفس فى رأيهم ترى المعنى غير عرفى ولا اجتماعى ، ولكنه خاضع للتكوين النفسى للفرد (١) •

والمعنى فى نظر الدراسات اللغوية الحديثة صدى من أصداء الاعتراف باللغة كظاهرة اجتماعية ، ونتيجة لتشابك العوامل المختلفة فى اطار سياق الثقافة الشعبية (٢) ، والرافعى صرح بأن اللغة بنت الاجتماع ، ثم ذكر بعد ذلك أنها عمل نفسى محض ، وفى ضـوء ما ذكرناه نجده لم يسر على منهج واحد ، ونحن نتمسك بأن اللغة لاتكون الا اجتماعية ، وهى جهاز رمزى عرفى ، وظيفتها تحقيـق الوجود الاجتماعى للفرد نفسه (٣) •

تخصيص المعنى اذا كان جنســا وتأكيده :

يرى الرافعى أن نظام المعانى بالالفاظ يعتمد على التخصيص المؤكد ، فاللفظ لايوجد المعنى ، فذلك ظاهر الاستحالة ولكنه يخصصه اذا كان جنسا ويؤكده مبالغة فى تلوين صورته النفسـية حتى تنطق أجزاؤه وحتى يقوم كل جزء منها فى البيان اللغوى مقام الكل الذى هو مادة الشعور الطبيعى (٤) • وعملية التخصيص الدقيقة فى هذا النظام تمتد لتشمل أفرادا وأجزاء أو معانى ، وترمى الى ترتيب الاجزاء وابانة الصفات بألفاظ متباينة تعين الاجزاء أو الصفات على مقاديرها • كما ترمى الى تأكيد المعنى بالمبالغة فى تلوين صـورته النفســية •

ومن الواضح أن التخصيص يقوم على تعيين درجات المعانى وتفصيل أجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هـذه

---

(١) د. تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٥ — ٢٧ .
(٢) نفســه ص ٢٨ .
(٣) نفســه ص ٣٤ .
(٤) تاريخ آداب العرب جـ ص ٢٢٨ .

الاجزاء أو بصفاتها . وهذا يبين أنه فى نظام المعانى بالالفاظ ليس ضربا يرتبط بكلمة واحدة كانت عامة ثم خصصت هى نفسها ، فهذا اللون الذى تنتقل فيه الكلمة عينها من العموم الى الخصوص — لون آخر ليس فيه تأكيد المعنى مبالغة فى تلوين صورته النفسية ، وليس له أجزاء تنطق ولا عمل له فى الترتيب أو الابانة . ان هذا الضرب يقصر معنى العام على بعض أفراده ، ويضيق شموله . أو يقصد ظاهرة التغير نحو التخصيص التى كثيرا ما تحدث فى اللغات بأن تخصص ألفاظ كان يستعمل كل منها للدلالة على طبقة عامة من الاشياء فيدل كل منها على حالة أو حالات خاصة . وهكذا يضيق مجال الافراد الذى كانت تصدق عليه أولا — ككلمة الفاكهة فى العربية كان من معانيها الثمار كلها ثم خصص هذا المعنى للدلالة على أنواع معينة من الثمار كالتفاح والعنب والموز والخوخ (١) . وكلفظ السبت فانه فى اللغة الدهر ثم خصص فى الاستعمال نفسه بأحد أيام الاسبوع ، وهو فرد من أفراد الدهر . ولفظ الصحابة وهو يعنى الصحبة مطلقا وقد خصص بأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . ولفظ الكفر ومعناه الستر والانكار وخص بانكار الدين . ولفظ التوبة الرجوع وخص بالرجوع عن الذنب (٢) .

وهناك أنواع أخرى من التخصيص لم يشر اليها الرافعي ، مثل التخصيص الذى يقع نتيجة الحذف كحذف المضاف اليه ، أو الصفة ، ومثاله لفظ الدنيا . والاصل الحياة الدنيا ، والجامعه والاصل المدرسة الجامعة ، والعملية أى الجراحية ، والكفيف ، أى مكفوف البصر ، والمحروم أى من المال (٣) . ومثل التخصيص بقرينة استعمال اللفظ فى سياق معين من الكلام ، وبحسب بيئة المتكلم أو المخاطب أو مناسبة الكلام كلفظ موسم بالنسبة للزراع أو الرعاة أو الصناع أو الباعة (٤) .

---

(١) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٢) السيوطى : المزهر ج ١ ص ٤٢٧+ محمد المبارك فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢١٩ .

(٣) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢١٩ — ٢٢٠

(٤) نفسه ص ٢٢٠ .

ومثل التخصيص بالحرف المعين اذ كان يعين على تمييز المعنى • ففى مادة الجر مثلا الحرف الصوتى هو الراء والجيم المعين ، وأوثر الجيم لما فيه من الجهد والشدة والقلقلة — وهو ابدال من أحد الرآات الثلاثة ، عند من يرى تكرر المقطع واتصاله وكالجيم الطاء فى طن ، والقاف فى غاق • وهذا عند من يرى أن الصوت الاصلى يغلب عليه مقطع واحد بسيط ، راء أو سين أو صاد أو غير ذلك وهذا المقطع فى أغلب الامر يتكرر ويتصل ، ولما أريد محاكاته فى اللسان السامى اقتصر منه على ثلاثة أحرف لطبيعة فى هذا اللسان تميل الى هذا القدر من الحروف ، ولكنهم أبدلوا من أحد الحروف حرفا آخر دفعا لثقل التكرار ، وليكون اللفظ فى صورة مركب من حرفين • وقد يتقدم حرف البدل وقد يتأخر وقد يكون التعيين بحرفين كما فى رشف (١) •

ومما يجدر ذكره أن « تخصيص العام لايخرج اللفظ العام عن دلالته على العموم بل هو الاصل فى دلالته • والتخصيص هو المحتاج الى القرينة ، فحيث لاتوجد القرينة فاللفظ العام حقيقة فى العموم » (٢) •

ومما يجب مراعاته فى التخصيص هو هذا التميز الذى نلاحظه فى دراسته ، وذلك الفهم الذى يستخدمه فى تقرير المناسبة ، وتلك المخالفة التى تشهد بالفطنة ، وترتبط بنسق شامل •

فلم يذكر الرافعى مثل هذه الامثلة السابقة وانما أتى بأمثلة أخرى تبرز التخصيص المؤكد وفلسفته مثل قوله (٣) : « فأول معانى الحياة الروحية الحب وهذه مراتبه عندهم • الهوى ، ثم العلاقة وهى الحب اللازم للقلب • ثم الكلف وهو شدة الحب • ثم العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار الذى اسمه الحب • ثم الشعف وهو احراق الحب للقلب مع لذة يجدها ، وكذلك اللوعة واللاعج فان

---

(١) عبد الله العزازى فقه اللغة ص ١٣٠ — ١٣١ وانظر د. ابراهيم السامرائى فقه اللغة ص ١٩٥ وما بعدها

(٢) عبد الوهاب خلاف : مقال الاصطلاحات الفقهية مجلة مجمع اللغة — الجزء السابع ١٩٥٣م ص ٢٣٦ .

(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢٩ .

تلك حرقة الهوى . وهذا هو الهوى المحرق . ثم الشغف وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب وهى جلدة دونه . ثم الجوى وهو الهوى الباطن . ثم التيم وهو أن يستعبده الحب . ثم التبل وهو أن يسقمه الهوى ، ثم التدليه وهو ذهاب العقل من الهوى . ثم الهيوم وهو أن يذهب على وجهه لايستقر وذلك لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائـــم » .

والاديب يرى أن مثل هذا المثال للتخصيص يصور دقائق الاشـياء ، ويبرز جوانبهـا الخاصـة المتميزة وصـفاتها المتفردة وذاتيتها ، ويعبر عن أنواع العواطف والمشاعر وغيرها فى أخص صفاتها ، ومختلف درجاتها وألوانها وفروقها وأجوائها المحددة مما يدل على بلوغ المستوى القوى فى التمييز . والقضاء على الابهام والغموض ، بابراز الخصائص المميزة والفروق الفاصلة .

ويؤكد الرافعى أن العرب لم يدعوا معنى من المعانى الطبيعية التى تتعلق بالحياة الروحية أو البدنية مما تهيأ لهم الا رتبوا أجزاءه وأبانوا عن صفاته بألفاظ متباينة تعين تلك الاجزاء والصفات على مقاديرها وهو يرى أن ذلك يشهد للعربية بالعظمة والتفوق والسمو فى أوضاع المعانى وسياستها بالالفاظ ، لانه يحرك اللغـــة حتى بأنفاس الخطرات ، ويكشف كل عاطفة دقيقة ولو اختبأت فى أشعة من النظرات ، فدوره كبير فى حقيقة التمدن وعظمة الثروة ، وما يسمى بالكمال أو الحياة الروحية العالية (١) .

ويصرح الاديب الباحث بأنه قد اعتمد فى شرحه نظام المعانى بالالفاظ على كتاب فقه اللغة للثعالبى ، واستفاد من الامثلة التى ذكـــرها (٢) .

يقول صاحب تاريخ آداب العرب (٣) : « وعلى أكثر هذا النوع من نظام المعانى بالالفاظ بنى الثعالبى كتابه فقه اللغة ، وهو أشهر

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٨ — ٢٣٠ .
(٢) المصدر ذاته ص ٢٣٠ .
(٣) الرافعى تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٣٠ .

من أن ينبه عليه ، ولذا أوجزنا فى أمثلته اكتفاء بالدلالة على مظنتها ، والحقيقة تنهض بها الكلمة الواحدة» والحق أن الثعالبى حشد تحت كل نوع من أنواع الموجودات ؛ وكل ضرب من ضروب الاشياء والنبات والحيـوان والآلات والمرافق وصفاتها عددا كبـيرا من المفردات المختلفة فى معانيها ودلالاتها • وفى كتابه أيضا ألفاظ كثيرة وتعابير للاحساسات والمشاعر وغير ذلك مما يدل على أنه قـدم الكثـير فى باب التخصيص الذى عنى به الرافعى •

ولا يخفى الاديب أنه قد اعتمد أيضا فى نظام المعانى بالالفاظ على ما ذكره السيوطى فهو يقول (١) : « ومن معانى الحياة البدنية أصول المعاش الطبيعية التى هى قوام أمرهم ، كاللبن ، فان له نحو سبعين اسما باعتبار اختلاف أحواله وقد ذكرها السيوطى كلها فى المزهر (٢) •• وكذلك الخيل ، والابل ، والشاء • ثم صفاتها وتسمية أجزائها ، ونحو ذلك مما نكتفى لشهرته بالاشارة اليه » • وليس معنى هذا النهج أننا نحتاج الى الالفاظ الخاصة الدقيقة ، ولانحتاج الى المعانى العامة أو المعنى اذا كان جنسا • وانما المقصود أننا نحتاج الى التخصيص الى جانب غيره ، ولا نستغنى عن استعمال اللفظ العام والخاص كل فى موضعه اللائق به ، ومكانه المناسب له •

والمثال الذى استشهد به الرافعى يؤكد الحاجة الى الاثنين ؛ لانه ذكر لفظ العام أو لفظ المعنى اذا كان جنسا ثم ذكر الالفاظ التى عبرت عن مراتب التخصيص والكمال يحتم ذلك حتى تتكافأ النفس واللغة فى تصور أجزاء المعانى وتصويرها •

والاديب يهتم بعملية التخصـيص اهتماما واضحا ، ولكنـه يلجأ الى الغلو والاسراف حين يقرر أن مراتب الحب التى يبرزها التخصيص ، والتى يشير اليها العرب بالالفاظ التى ذكرناها فى المثال الذى أتى به « يشير اليها غيرهم بتعاريف وفصول واصطلاحات ثم لاتعدو بعد ذلك كله ما كان يفهمه العرب منها برقة شـمائلهم ، ولطف حواسهم النفسية ، فكأنهم لمـا عدموا العلوم جعلوا ألفاظهم

---

(١) نفسـه ص ٢٢٩ — ٢٣٠ •
(٢) انظر الجزء الاول ص ٤٤٠ — ٤٤٣ •

فصولا علمية ، وذلك منتهى ما يكون من تمدن اللغات (١) » ان الكلام المذكور يعطى الالفاظ قدرات ومستويات تجعلها فصولا عملية ، وأدلة على التمدن ، فقد حددت المراتب ، وصنعت ما صنعته فى رأيه دون وضعها فى جمل أو عبارات أو اطار معين ، وأصبحت رمزا للكمال والتمــدن •

ونحن نخالفه ، لانه قد فاته أننا حين نعبر عن المعانى نضطر الى التغاضى عن قدر ما منها ، وسر ذلك أن الكثير منها لايستطيع المتلفظ أن يضمه الى عبارته • ويختلف هذا المدى تبعا لعوامل شتى يحكمها ما ينسب للمجتمع والبيئة والطائفة ، وما قيل من عبارات فى مظان أخرى ، وكل ذلك يضاف اليه ما حوله من قرائن حاكمة (٢) •

ولابد من تقدير حكم السياق ، ومراعاة منهج الاطار ، وملاحظة حق الاعتبار وعدم اهدار أثر الزمن فى المعنى ، ولابد من تذكر أن الدلائل اللفظية لاتكون منطقية (٣) •

ونظرة الرافعى تجعل الالفاظ تكتسف المــركز والهامش أى تكشف الدلالة المركزية التى تعد المشترك الذى يسجله اللغوى فى معجمه ، ويسميه بالدلالة المركزية ، ليصل بين الناس ، ويساعد على تعاونهم ، ويؤدى الى نوع من الفهم التقريبى الذى يكتفون به فى حياتهم ، وقضاء مصالحهم ، وتكتشف الفروق التى تلون الدلالات بلون خاص فى ذهن كل منهم ، وتعتبر ظلالا لاتختلف باختــلاف الافراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجســامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، وغير ذلك مما يسمى بالدلالة الهامشية (٤) ويبدو أنه يصر على ما تفرضه النظرة الواحدة ، وتجرى على أن هناك مطابقة بين ما يدور فى خلد المتكلم ، وما يدور فى خلد السامع بين

---

(١) الرافعى :تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٢) د. محمد بدرى عبد الجليل : المجاز واثره فى الدرس اللغوى ص ٥٢ .

(٣) الرازى اساس التقديس ص ٢٢٢ وابن الجوزى نقد العلم ص ٤٥ .

(٤) د. ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

مستوى المتكلم ومستوى السامع ، ويظن أن مايفهمه السامع هو ما يقصده المتكلم ٠

والواقع يقرر أن الناس ليسوا سواسية أمام الالفاظ ، ولسنا نعتقد أنها تملك القدرات وتجلى الظلال التى تثير الفروق ، وتحمل أثر البيئات المختلفة ، والتجارب المتباينة ، والحوادث الكثيرة ، والثقافات المتعددة وغيرها ٠

ولا ريب فى أن الدلالة الهامشية تسيطر على أذهان بعض الناس ، وأحيانا تفشل فى أداء مهمتها ، فقد تسمى الاشياء بغير أسمائها أو يزاد أو ينتقص من دلالاتها ٠ وسواء أكانت تلك الدلالة الهامشية سببها الهوى والغرض أو عن عقيدة وايمان فهى تتصل اتصالا وثيقا بما يسمى عند علماء النفس بالعاطفة ٠

ومن المعروف أن الدلالات المركزية لايقنع بها الادباء والشعراء والدلالات الهامشية فى أى لغة من اللغات مسألة فردية شخصية لاتكاد تعرض لها المعاجم أو تعنى بها (١) ٠

ومما يدل على أن الرافعى ينظر الى الناس نظرة واحدة ، ويجرى على أن هناك مطابقة بين المتكلم والسامع أنه يرى أن رقة الشمائل ولطف الحواس تفهم من الالفاظ المستوى الدقيق من التخصيص والتمدن الذى وصل الى المنتهى دون اعتبار لامر البيئة الخاصة والقائل وما حوله من تجربة ومعارف وخصائص وملابسات ودون تقدير لامر السامع الذى يضيف أحيانا ما يفيد دلالة معينة لا تتصرف اليها معانى الالفاظ ٠

ولا أدرى كيف تستطيع رقة الشمائل أو لطف الحواس انكار تأثر الالفاظ بالازمان والاحداث والتطورات أو تجاهل أن الدلالات لايمكن أن تنقاد كاملة ما دامت هناك خلفيات واعتبارات ؟ !

---

(١) د. ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ١١٦ — ١١٨ .

ولا نستطيع أن نقول : ان ألفاظ الزمان ، والحين ، والغنى ، والكرم ، واللؤم ، ونحوها تعد فصولا علمية لان هـذه الالفاظ استترت مدلولاتها فعولت الائمة فى تحديدها على البصيرة ، وقالت فيها بالتقريب والاحتمال (١) .

والرافعى يلوذ بالحياة الباطنة التى تشبه ما فى الانسان الراقى مما يسمى بالكمال أو الحياة الروحية العالية ، والامر فى الفصول العلمية أمر ضوابط وقواعد ومناهج واضحة ، لا أمر مبالغة وغلو وابهـــام .

وهو يدرس الكلمة المفردة ، ولايحسب حساب التطور اللغوى الذى لايقف عند الالفاظ وحدها ، بل يشمل جوانب اللغة وأصولها من اللفظة المفـردة الى التركيب ، وما بينهما من قواعد النحـو والصرف .

والفصول العلمية يمكن أن تقال فى تحديد بعض المعانى . مثل معنى الملح أو السكر عند دارس الكيمياء ، فهو يعرف كيف تتكون ، ومم تتكون . ويؤلف لنا معادلة كيميائية ، تعد فى الحقيقة التعريف الصحيح الدقيق لهذا الشىء المألوف لنا جميعا (٢) .

والاديب يقول رأيه الشخصى متأثرا بعبقرية الالفاظ وسحرها وجلالها وكمالها وينبه على أن أرقى الامم مدينة « اذا بلغت فيها المعانى النفسية مبلغ الهرم ، وتعلقت بها الخواطر من كل جهة بحيث تفصل أجزاءها تفصيلا فجهـد الامة عـند ذلك أن تحيط المعنى باصطلاحات علمية ، وتعرف حوادثه على نحو ما تعرف به فصول العلوم . كالحب مثلا فان مراتبه التى يشير اليها العرب بالالفاظ المتقدمة يشير اليها غيرهم بتعاريف وفصول واصطلاحات .. » (٣) .

---

(٣) انظر : الفيروزبادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ج ٢ ص ٤١٦ .

(١) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ١٦٣ .

(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٣٠ .

ونحن ننبه على عدم امكان تحديد الدلالات المجردة كالحب والكره والسعادة وغير ذلك التحديد الذى يشير الرافعى الى مستواه الدقيق ،ومنزلته العالية فليست لدينا طرق دقيقة لتحديد معانى الكلمات المذكورة لانها تتصل بمواقف غير محددة تحديدا واضحا ، وهذه المواقف تشكل الغالبية العظمى من مواقف الكلام الانسانى . وسبق أن ذكرنا رأى بلو مفيلد فى تحديد معانى بعض الكلمات ، واشارته الى الصعوبات الجمة التى فى الطريق .

ومما يجب مراعاته أن الاصطلاحات العلمية تشير الى المتغيرات التى يواقعها المجتمع ، وتؤكد التطور فى التعليم ، كما تعبر عن تجدد الحياة ونمائها ، والاختلاف فى المذهب والمنهج والثقافة وغيرها.

ومراتب الحب التى أتى بها فى مثله — لم تمثل المستوى الذى تمثله المصطلحات العلمية المتفق عليها فى بعض العلوم ، فليس فيها رأى قاطع أو اتفاق لايحتمل النقض أو الطعن أو غير ذلك . انها فى الحقيقة لم تبلغ درجة الاحكام أو منزلة الاتقان والكمال فى التخصيص كما ظن الرافعى . والتحقيق يثبت أنها ليست فصولا علمية على النحو الذى ذكره لما فصلناه ، ولهذه الامور أيضا :

١ — أن هذى الالفاظ التى يعدها الرافعى تشير الى مراتب الحب لايمكن أن تحقق المستوى الذى يحيط المعنى تلك الاحاطة الفاصلة القاطعة التى تصنع ما تصنعه التعاريف والفصول والاصطلاحات لان ما ذكر فى كل منها ليس هو كل شىء فى ادراك المعنى ، وهذه الالفاظ يمكن اعتبارها كالجنس الذى تبين مراتبه فاذا كان الحب جنسا فان الهوى جنس ، وكذا العشق (١) ، وغيره . ان كل لفظ يتنوع ويتعدد . وعملية التخصيص ليست القول الفصل كما ظن الرافعى .

٢ — أخذ الرافعى بما قاله الثعالبى فى مراتب الحب (٢) ، ولم يقم بتحقيق النسق الذى نقله ولو حقق هذى الالفاظ لوجد أن المعاجم

---

(١) انظر الفيروزبادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٥ ص ٣٥٩ القاهرة ١٩٧٠. المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

(٢) الثعالبى : فقه اللغة ص ٨٤ القاهرة مطبعة الحجر ١٢٨٤ هـ

لاتسلم بصورة الترتيب كما جاء ، وفيها ما يدل على تساوى بعض الالفاظ مما يدل على أن الالتزام بهذا الترتيب لايفرضه الا ما جاء به الثعالبى • فأول معانى الحياة الروحية الحب وهذه مراتبه الهوى ثم العلاقة ثم الكلف ثم العشق الخ • ويرى الجوهرى فى الصحاح أن هذا الشيء أهوى الى من كذا أى أحب الى •• وهوى بالكسر يهوى هوى أى أحب •

وفى القاموس أن الهوى : العشق يكون فى الخير والشر • وفيه وهويه كرضيه فهو هو أحبه • وهذا واضح فى تساوى الهوى والحب ، والهوى والعشق وان جاء فى مثال الرافعى ما يوحى بغير ذلك • وفى البصائر يقول الفيروزابادى (١) الهوى ميل النفس الى الشهوة •• وقيل الهوى العشق ويكون فى الخير والشر • والهوى أيضا ارادة النفس • والهوى المحبة • وواضح أن ذلك لايقر صورة ترتيب المراتب . ولايعترف بالفصول العلمية التى يقصدها الرافعى ، فالاختلاف بارز • والعشق فى القاموس عجب المحب بمحبوبه أو افراط الحب • ويكون فى عفاف وفى دعارة أو عمى الحس عن ادراك عيوبه أو مرض وسواس يجلبه الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور • وفى القاموس أن الكلف بالكسر الرجل العاشق• وفى مادة عشق يذكر الفيروزابادى أن تعشقه تكلفه •

ويقول الجوهرى فى علق : وقد علقها بالكسر وعلق حبها بقلبه أى هويها • ويذكر قبل ذلك أن العلق الهوى يقال نظرة من ذى علق ثم يقرر فيما بعد هذا وذاك أن العلاقة بالفتح علاقة الخصومة وعلاقة الحب • والجوى عنده : الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن • وفيما نقله الرافعى : الهوى الباطن • والجوى قريب فى الحقيقة من الشعف واللوعة واللاعج ، ولكن الثعالبى أخره ، وتبعه الرافعى • والامثلة التى ذكرناها هى خير رد على مسألة المراتب ، وقضية الفصول العلمية •

---

(١) جـ ٥ ص ٣٥٩ •

٣ — يقول الفيروزابادى فى الحب والمحبة (١) : « ولا تحد المحبة بحد أوضح منها • والحدود لاتزيدها الاخفاء وجفاء • فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ؛ وانما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشـــواهدها وثمراتها وأحكامهــ ، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة » وهذا الكلام لايعرض للمراتب ؛ وانما ينبه على ما يزيد الخفاء والجفاء ؛ ويحدد الجوانب التى يتناولها الناس •

---

(١) البصـــائر ج ٢ ص ٤١٦ •

الفصل الخامس

نظـام القرينـــة

نظـــام القرينـــة

وهو نظام يقوم على الاتساع والتفنن ، واطلاق الكلام اطلاقا غير مقيد بما قيد به سواه ، ولا متبع لطريق غيره من سائر الكلام ، اعتمادا على اللمحة الدالة ، والاشـــارة التى تقع موقع الـــوحى ، وعلى أضعف أثر يشير الى وجه الكلام ومذهبه ، ويهدى الى طريق المعنى فيـــه (١) .

ويرى الرافعى أنه نظـــام بديع ، لانه فى ظاهره نـــوع من الفوضى ، ويشير الى أنهم ينفردون به ، ولايوجد القليل منه فى لغة غيرهم الا حيث تصيب أدلة النبوغ فى أشعر الشعر ، ومأثـــور المنثور . أما علماء العربية فسموه سنن العرب ، وعقد الثعالبى على أمثلة منه القسم الثانى من كتابه فقه اللغة وسماه سر العربية (٢) .

وفى رأى الاديب الباحث « ان هذا النوع لم يكن فى اللغة الا بعد أن انصرف العرب الى صنعة الكلام ، وهذبوا حواشيه ، وبلغو الغاية فى تنميق الشعر واجادته . وذلك قبل الاسلام بمـــا لايتجاوز مائة سنة على الاكثر ، لان التفنن فى العبارات لايأتى الا من كمال صنعة الالفاظ ، ولان ما عرف للعرب من ذلك قليل فى جنب ما أتى به القرآن الكريم .. » (٣) .

وما جاء فى نظام القرينة يفيد اختلافه عن النظامين السابقين اختلافا بينا ، فهما لايحتاجان الى القرينة . ومن المعروف أن الكلام داخل مجتمعه ليس فى حاجة الى قرائن ، أما خارج مجتمعه فهـــو محتاج اليها لمعرفة المراد .

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٣١ .

(٢) الثعالبى : فقه اللغة ــ القاهرة ــ مطبعة الحجر ١٢٨٤ هـ ــ القسم الثانى ص ١٥٣ وما بعدها وانظر ابن فارس . الصاحبى ص ١٦٩ وما بعدها . والسيوطى المزهر ج ١ ص ٣٣١ وما بعدها .

(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٣١ .

وعملية الاطلاق غير المقيد بنظام ، والحرص على عدم اتباع طريق غيره من سائر الكلام — تؤكد الخروج ، وتدل على مستوى آخر ليس فيه الموازنة التى وجدناها ، وما صنعته الاصوات من دلالات لها تأثيرها الكبير ، وليس فيه الاداء اليسير الذى يصل الى الذهن عن أقرب طريق وأقصر سبيل متبعا النسق المألوف ، وليس قائما على تخصيص المعنى اذا كان جنسا ، وتأكيده مبالغة فى تلوين صورته النفسية •• وانما فيه قدرة على الاتساع بضروب لها شأنها ، وانتقال عن المعنى الظاهر لاحداث ملاحقة تغير المعانى واختلافها ، ومسايرة ألوان ما يخترع ، والوفاء بمطالب الفكر ؛ وحق التطور •• وفيه موانع مصاحبة لما أريد صرفه عن ظاهره ؛ لفظية أو عقلية ، وأمور تشير الى المطلوب ، وتقدم العون كى تكشف سر الاطلاق غير المقيد ، ومخالفة سائر الكلام •

ويؤكد ابن قتيبة أن افتتان المتكلم أو الخطيب وخروجه عن شىء الى شىء أحسن من اقتصاره فى المقام على فن واحد (١) •

وقد ذكر الرافعى أن العلماء سموا هذا النظام سنن العرب ، وهذا التعبير نجده فى الصاحبى عندما يذكر ابن فارس أمثلة منه ، كما نجده فى أبواب كثيرة (٢) • وفى المزهر نجد هذا التعبير ، وما قاله ابن فارس ، وان حذف السيوطى بعض الشواهد والامثلة وغيرها (٣)•
والرافعى يسير فى كثير مما جاء به فى نظام القرينة على نسق السيوطى ، وان حذف بعض السنن ؛ ونبه على بعض مصادره ، وزاد أشياء لم تأت فى المزهر ؛ ولكنه لم يشر الى ابن قتيبة وابن فارس •

والحق أن ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) هو صاحب الفضل فى جمع الكثير مما ذكروه من سنن العرب التى يتحقق فيها نظام القرينة ، والقيام بدراسته وتوجيهه ، وجعله يمثل طرق القول ومآخذه ، ويدخل

---

(١) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن — شرح وتحقيق السيد أحمد صقر — نشر دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى ص ١٨٢ .
(٢) الصاحبى ص ١٦٩ وما بعدها .
(٣) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ٣٣١ — ٣٤٠ .

فى المجازات . يقول هذا العالم (١) : « وللعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها طرق القول ومآخذه . ففيها الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والاخفاء والاظهار ، والتعويض ، والافصاح ، والكناية والايضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص . مع أشياء كثيرة ستراها فى أبواب المجاز .. وبكل هذه المذاهب نزل القرآن .. » .

وأعتقد أن ابن فارس أخذ الكثير من السنن التى جاءت فى الصحابى من ابن قتيبة ، وانتفع بآراء الرجل على الرغم من النقد الشديد الذى وجهه اليه ، والانكار الذى حكم بـه على اطلاقاته وبعض ما يرويه (٢) .

واذا تأملت السنن التى جاءت فى الصاحبى ، والابواب التى تبين طرق القول ومآخذه أو توضح المذاهب ، فانك تجد اعتماد على ما قاله ابن قتيبة فى أبوابه (٣) . مما يومىء الى أنه هو أول من أحاط بها احاطة حسنة ، وأعطى درسها حقه من العناية ، وفطن لوجوه منها تشهد بعطائه المتميز فى تفسيرها .

ولا ننكر فضل سيبويه لانه ذكر بعض سنن العرب التى يتحقق فيها نظام القرينة ، وعبر عن الاساليب المجازية بلفظ الاتساع (٤) . ويعد منه قول الله تعالى : « بل مكر الليل والنهار » ٣٣ ك سبأ ٣٤ . فالليل والنهار لايمكران ولكن المكر فيهما (٥) . وسمعنا من العرب من يقول ممن يوثق به اجتمعت أهل اليمامة لانه يقول فى كلامه اجتمعت اليمامة ، يعنى أهل اليمامة فأنث الفعل فى اللفظ اذ جعله فى اللفظ

---

(١) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ١٥ — ١٦ .

(٢) ابن فارس : الصاحبى ص ١٧٠ .

(٣) انظر الصاحبى ص ١٦٩ وما بعدها . وقارن بتأويل مشكل القرآن ص ٢١٤ وراجع أبواب المجاز ص ١٠٢ — ٢٢٩ فى هذا المصدر وسنن ابن فارس أو أبوابه .

(٤) د. محمد بدرى عبد الجليل المجاز واثره فى الدرس اللغوى ص ٤٣ .

(٥) سيبويه : الكتاب — طبعة هارون جـ ١ ص ١٧٦ .

اليمامة ٠ ٠ فترك اللفظ يكون على مايكون عليه فى سعة الكلام (١) ٠ ومن نظام القرينة ما جاء فى كتابه عن باب يحذف منه الفعل لكثرته فى كلامهم حتى صار بمنزلة المثل (٢) ٠ وباب ما يكون فيه المصدر حينا لسعة الكلام والاختصار (٣) ٠ وباب ما ينتصب فيه المصدر كان فيه الالف واللام أو لم يكن فيه على اضمار الفعل المتروك اظهاره٠ لانه يصير فى الاخبار والاستفهام بدلا من اللفظ بالفعل ، كما كان الحذر بدلا من احذر فى الامر ٠ ثم ذكر قول الخنساء :

ترتـــع مارتعت حتى اذا ادكـــرت
فانمـــا هى اقبـــال وادبار

فجعلها الاقبال والادبار ، فجاز على ســعة الكلام ، كقولك نهارك صائم وليلك قائم (٤) ٠

« ويلحظ لدى سيبويه أيضا اقتران السعة بالايجاز والاختصار ٠ فيتحدث عن باب « استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى لاتساعهم فى الكلام ، والايجاز والاختصار (٥) » وعد منه قوله تعالى جده « واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها » ٨٢ ك يوسف ١٢ » (٦) ٠ فيقول : « انما يريد أهل القرية فاختصر ، وعمل الفعل فى القرية كما كان عاملا فى الاهل لوكان ها هنا » (٧) ٠ وجعل من مسوغات الحذف كثرة الاستعمال (٨) ٠

وما ذكره سيبويه كان له أثره فى ابن قتيبة وغيره ، وبعض أبواب المجاز فى تأويل مشكل القرآن تدل على ذلك ٠ وأن كان لابن

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣ ٠
(٢) المصدر ذاتــه ص ٢٨٠ ٠
(٣) المصدر نفســه ص ٢٢٢ ٠
(٤) المصدر نفسه ص ٣٣٦ — ٣٣٧ وانظر ابن جنى الخصائص ٢٠٣/٢ ، وابا على الفارسى : الحجة : تحقيق على النجدى ناصف و د. عبد الحليم النجار و د. عبد الفتاح شلبى : الجزء الاول ص ١٧—١٨
(٥) المصدر نفسه ص ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٣٣٧ ٠
(٦) د. محمد بدرى عبد الجليل المجــاز وأثره فى الــدرس اللغوى ص ٤٤ ٠
(٧) سيبويه : الكتاب ، طبعة هارون ج ١ ص ٢١٢ ٠
(٨) المصدر نفسه ص ٢٢٤ وانظر : محمد بدرى عبد الجليل المجاز وأثره ص ٤٤ ٠

قتيبة فضله فيما ذكروه من سنن العرب التى يتحقق فيها نظام القرينة ، ومكانته التى يستحقها •• ونظام القرينة هو الوجه الثالث من وجوه نظرية المناسبة • وهذا الوجه يعتبر القرينة هى التى تصنع المناسبة ، لان الكلام أطلق اطلاقا غير مقيد بنظام ، ولا متبع لطريق غيره من سائر الكلام • والامر أمر التوسع ، والتفنن ، والتصرف ، والصنعة ، والنمو •• وقد ذكرنا أن الانتقال عن المعنى الظاهر غرضه ملاحقة التغير ، ومسايرة ما يخترع ، والوفاء بحق التطور ، والقيام بمطالب الفكر • وهذا يدعم نظرية المناسبة •

والغزالى (٥٠٥ ﻫ) يذكر أن النص ان كان لايحتمل كفى معرفة اللغة • « وان تطرق اليه الاحتمال فلا يعرف المراد منه حقيقة الا بانضمام قرينة الى اللفظ • والقرينة اما لفظ مكشوف كقوله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده » ١٤١ م الانعام ٦ ، والحق هو العشر • واما احالة على دليل العقل كقوله تعالى « والسموات مطويات بيمينه ٦٧ ك الزمر ٣٩ ، وقوله عليه السلام : « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن » •

واما قرائن أحوال من اشارت ورموز وحركات وسوابق ولواحق لاتدخل تحت الحصر والتخمين ، يختص بدركها المشاهد لها فينقلها المشاهدون من الصحابة الى التابعين بألفاظ صريحة أو من قرائن من ذلك الجنس أو من جنس آخر حتى توجب علما ضروريا بفهم المراد ، أو توجب ظنا ، وكل ما ليس له عبارة موضوعة فى اللغة فتتعين فيه القرائن » (١) •

سنن العرب التى يتحقق فيها نظام القرينة :

حشد الرافعى فى نظام القرينة معتمدا على السيوطى وغيره — هذه السنن التى يتحقق فيها النظام المذكور ، وهى :

١ — « مخالفة ظاهر اللفظ كقولهم عند المدح قاتله الله ما أشعره ، فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعه ، وكذلك قولهم

---

(١) الغزالى : المستصفى من علم الاصول الطبعة الاولى المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٢٢ ﻫ ج ١ ص ٣٣٩ .

هلبته أمه وثكلته • وهذا يكون عند التعجب من اصابة الرجل فى رميه أو فى فعل يفعله » (١) •

وفى تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة أمثلة أخرى وشواهد فى باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه بعضها تعرض لنقض ما قيل فيه (٢) ، وبعضها لم يكن الا حجة قوية فى دعم ما يقولونه فى مخالفة ظاهر اللفظ شرحه اللغويون واهتموا بأمره ومن الحجة قول ابن قتيبة (٣) : «ومنه قول رسول الله صلى الله عليه للمرأة عقرى حلقى • أى عقرها الله وأصابها بوجع فى حلقها » • وفى توضيح ذلك أنه فى « حديث النبى صلى الله عليه حين قيل له يوم النفر فى أمر صفية • انها حائض فقال : « عقـــرى حلقى ، ما أراها الا حابســتنا » • قال أبو عبيد : معنى عقرى عقرها الله • وحلقى : حلقها • فقوله عقرها يعنى عقر جسدها • وحلقها أصـــابها الله بوجع فى حلقها • قـــال أبو عبيد ، أصحاب الحديث يروونه « عقرى حلقى » ، وانما هو « عقرا حلقا » • قال : وهذا على مذهب العرب فى الـــدعاء على الشىء من غير ارادة لوقوعه ، لايراد به الوقوع •• (٤) » •

ولا يستطيع أحد أن ينكر جهد ابن قتيبة والاعتماد على كثير مما جاء به على الرغم مما وجه اليه أحيانا •

٢ ــ « الحذف والاختصار • « فيقولون والله أفعل ذلك ، ويريدون لا أفعل ، فيحذفون حرف النفى (٥) » ويتحدث الرافعى عن حذف الحرف أيضا قبل آخر سننه • فيقول : (٦) « ومن سننهم العجيبة حذف الحرف ، وهو مقدر لصحة معنى الكلام ، فيسقطون

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ٢٣١ ــ ٢٣٢ وانظر ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن ص ٢١٤ والصاحبى ص ١٦٩ والمزهر ج ١ ص ٣٣١

(٢) ابن فارس الصاحبى ص ١٦٩ ــ ١٧٠ •

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢١٤ •

(٤) أبو منصور الازهرى : تهذيب اللغة : تحقيق عبد الســـلام هارون ج ١ ص ٢١٥ ــ ٢١٦ •

(٥) الرافعى تاريخ آداب العرب ص ٢٣٢ •

(٦) نفس المصدر ص ٢٣٤ •

الوسيط تفننا . كقوله تعالى : « أنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه » ، أى يخوفكم بأوليائه . ومثله كثير فى كلامهم .. » . ولو جعل هذا فى الحذف والاختصار لكان أنسب وأفضل ، لان التشتيت والاضطراب يجب النأى عنه فى بحث الاسرار وتجلية القرينة وذكره بعد كثير من السنن المختلفة لايعد من الترابط أو التناول الدقيق وكمال الصنعة ، ويذكر الرافعى الاضمار فى موضع آخر على أنه من السنن فيقول (١) : « ومنها الاضمار للاسماء والافعال والحروف كقولهم : ألا يا اسلمى أى ياهذه . وقولهم أثعلبا وتفرأى أترى ثعلبا وتفر . وقول بعضهم (ألا أيهذا الزاجرى أشهد الوغى) ، يريد أن أشهد الوغى » . وقد فعل ما فعله السيوطى ، وسار على نهجه فى هذا (٢) . وكان من الواجب أن يضع ذلك فى الحذف والاختصار . وصنيع ابن قتيبة أحسن وأدق وأنسب لانه أتى بأمثلة للاضمار فى باب الحذف والاختصار . يقول هذا العالم فى الباب المذكور (٣) : « ومن ذلك أن توقع الفعل على شيئين وهو لاحدهما ، وتضمر للآخر فعله كقوله سبحانه : « يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين (الواقعة) . ثم قال : وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين » . والفاكهة واللحم والحور العين لايطاف بها . وانما أراد ويؤتون بلحم طير . ومنه قوله « فأجمعوا أمركم وشركاءكم » (يونس ٧١) أى وادعوا شركاءكم .. » . ويذكر أمثلة أخرى ثم يقول (٤) : « وقد يشكل الكلام ويغمض بالاختصار والاضمار .. وهذا قول الفراء . وهو يبعد لان العرب انما تحذف من الكلام ما يدل عليه ما يظهر ، وليس فى ظاهر هذا الكلام على هذا التأويل — دليل على باطنه .. »

وما جاء به الرافعى يحتاج الى توضيح حتى ينجلى أمر القرينة ، ولذا نقول ان السر فى حذف حرف النفى اختصارا هو الاعتماد على دليل أو قرينة ، وشروط جواز حذف حرف النفى مطلقا ثلاثة :

---

(١) المصدر السابق ٢٣٤ .
(٢) المزهر جـ ١ ص ٣٣٧ .
(٣) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ١٦٤ .
(٤) المصدر السابق ص ١٦٩ .

الاول أن يكون هذا الحرف « لا » دون سائر أخواته من حروف النفى .

الثانى : أن يكون المنفى به مضارعا كما فى الآية (قالواتا لله تفتؤ تذكر يوسف) وكما فى قول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

وقول عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

تالله أنسى حبها
حياتنا أو أقبرا

الثالث : أن يكون ذلك فى القسم كما فى الامثلة السابقة (١) . وقد شذ الحذف بدون القسم كقول خداش بن زهير :

وأبرح ما أدام الله قومى
بحمد الله منتطقا مجيدا

أى لا أبرح منتطقا مجيدا ، أى صاحب نطاق وجواد ما أدام الله قومي ومثل هذا البيت قول خليفة بن براز :

تنفك تسمع ما حييت بها لك حتى تكونه (٢) .

والعرب تحذف أحيانا لا النافية فى جواب القسم مع ملاحظتها وتقديرها فى المعنى لان اللبس حينئذ بين المنفى والموجب مأمون ، اذ لو كان الجواب غير منفى فى المعنى والتقدير لوجب أن يكون المضارع مؤكدا باللام والنون معا جريا على الاغلب والاقوى فى جواب القسم عند البصريين ، وبأحدهما عند كثرة الكوفيين وقد جاء فى أمالى أبى القاسم الزجاجى .. قوله : والعرب تضمر لا النافية فى جواب القسم مع ملاحظتها فى المعنى ، لان الفرق بينه وبين الموجب قد وقع

---

(١) محمد محيى الدين عبد الحميد : منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل مع كتاب شرح ابن عقيل دار الفكر ١٩٧٢ م ج ١ ص ٢٦٥ .
(٢) شرح ابن عقيل ج ١ ص ٢٦٣ — ٢٦٥ ومنحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل هامش ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

بلزوم الموجب اللام والنون كقولك : والله لاخرجن • قال الله عز وجل تالله تفتؤ تذكر يوسف » (١) •

ويقول ابن هشام فى حذف لا النافية غيرها (٢) : « يطرد ذلك فى جواب القسم اذا كان المنفى مضارعا نحو تالله تفتؤ تذكر يوسف •• ويقل مع الماضى كقوله :

فان شئت آليت بين المقام والركن والحجر الاسود
نسيتك مادام عقلى معى أمد به أمد السرمد
ويسهله تقدم لا على القسم كقوله : فلا والله نادى الحى قومى
وسمع بدون القسم كقوله :

وقولى اذا ما أطلقوا عن بعيرهم
يلاقونه حتى يؤوب المنخل » •

وقد أشار الرافعى الى القرينة فى قوله تعالى : (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يخوفكم بأوليائه • والامر فيها واضح •

أما قولهم ألا ياسلمى •• فهو من حذف الكلام بجملته مثله مثل « ياليت قومى يعلمون » اذا قيل انه على حذف المنادى أى ياهؤلاء • وقلنا انه من حذف الكلام بجملته بعد حروف النداء لانه حذف أدعوو المنادى (٣) •

وقد قيل ان « يا » فى المثال الذى جاء به الرافعى يجوز أن تكون حرف تنبيه مؤكد للاستفتاح ، وعلى ذلك فلا حذف ، ويرى بعضهم أنه لايحسن اذا اعتبرنا ألاحرف تنبيه أن تكون « يا » حرفه

---

(١) عباس حسن : النحو الوافى : الطبعة الخامسة دار المعارف بمصر ١٩٧٥ — الجزء الاول هامش (٢) ص ٥٦٣ وانظر الزمخشرى الكشاف جـ ١ ص ٣٩٨ (الآية ٨٥ سورة يوسف) .

(٢) مغنى اللبيب : الطبعة الاولى بالمطبعة الازهرية سنة ١٣١٧هـ جـ ٢ ص ١٥٥ وانظر محمد بن حسن الرضى شرح الكافية جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٣) الشيخ محمد الامير : حاشيته بهامش مغنى اللبيب — الطبعة الاولى بالمطبعة الازهرية ١٣١٧هـ جـ٢ ص ١٥٩ .

تنبيه ، لان من قواعدهم المقررة أنه لايتوالى حرفان بمعنى واحد لغير توكيد (١) ٠

وأما مثال اضمار الحرف فى قول بعضهم (ألا أيهذا الزاجرى أشهد الوغى) (٢) ٠ يريد أن أشهد الوغى ، فقد جاء فى المزهر نقلا عن ابن فارس (٣) ٠

والرفع هو الاشهر فى هذا المثال ، ولكن روى أشهد بالنصب مثل قوله تعالى « قل أفغير الله تأمرونى أعبد » قراءة الحسن ٠ ومثل تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ٠ وحذف الحرف فى الامثلة السابقة شاذ ، لانه فى غير مواضع اضمار أن جوازا ووجوبا ٠ والامثلة كلها مسموعة لايجوز القياس عليها عند البصريين ٠ وذهب الكوفيون الى جواز القياس عليها ٠ ويرى بعض النحاة أن الذى حسن النصب هو وجود أن فى المعطوف وهو أن أحضر ٠ ورواية الرفع هى رواية البصريين (٤) ٠

ولم يشر الرافعى الى الحذف الشاذ فى بعض الامثلــة التى ذكرها ، ونقل ما أتى به السيوطى ، والتحقيق يفرض مــراعاة كل ما قيل ، وملاحظة كل الوجوه ، حتى لايظن أنه ليس هناك الا الوجه الذى ذكره سبيلا الى التمدن اللغوى ٠

وابن جنى يجعل الحذف من شجاعة العربية ٠ ويقرر أن العرب قد حذفت الجملة ، والمفرد ، والحرف ، والحركة ٠ وليس شىء من ذلك الا عن دليل عليه ٠ والا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب

---

(١) محمد محيى الدين عبد الحميد : منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ــ مع كتاب ابن عقيل ج ١ ص ٢٦٧ ٠

(٢) من معلقة طرفة بن العبد ٠ وفى رواية احضر الوغى ٠٠ وان اشهد اللذات هل انت مخلدى ؟ وفى رواية اخرى : الا ايهذا اللاحى ان اشهد الوغى ٠٠ وان احضر اللذات هل انت مخلدى ؟ (انظر هامش ص ١٠٤ من كتاب الصاحبى لابن فارس) وانظر امالى ابن الشجرى ج ١ ص ٨٣ (الطبعة الاولى فى مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٤٩ هـ) ٠

(٣) السيوطى المزهر ج ١ ص ٣٣٧ وابن فارس الصاحبى ص ١٩٧

(٤) عبد السميع شبانة دراسات فى النحو : الطبعة الاولى ١٩٦٢ دار الانوار ص ١٠٧ ــ ١٠٨ ٠

فى معرفته (١) • ويمكننا أن نقول فى الحذف ان العرب أكثروا من حذف ما تقوم عليه القرينة • وباستقراء مواضع الحذف يتقرر أصل يمكن اطراده ، وهو صحة الحذف لدليل (٢) ؛ وندرك ايثار التخفيف ، والثقة بفهم المخاطب •

٣ ــ « ذكر الواحد والمراد الجمع كقوله تعالى (هؤلاء ضيفى) وقوله (فانهم عدولى) والمراد الجماعة • وذكر الجمع والمراد واحد أو اثنان كقوله : (ان يعف عن طائفة) وهو يريد واحدا • وقوله •• (فقد صغت قلوبكما) وهما قلبان • ومنها صفة الجمع بصفة الواحد كقوله تعالى (والملائكة بعد ذلك ظهير) • وصفة الواحد أو الاثنين بصفة الجمع كقول العرب ثوب أهدام وجاء الشتاء وقميصى أخلاق » (٣) •

وقد وضع ابن قتيبة هذا كله فى باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، (٤) ولكن الرافعى آثر ما صنعه السيوطى (٥) •

ويرى ابن فارس أنه ان عبر عن واحد بلفظ جماعة ، وعن اثنين بلفظ جماعة فذلك كله مجاز (٦) ، ولاريب فى أن ذلك اتساع •

ومن المهم أن نشير الى أن المناسبة ثابتة ، وان بدت مخالفة ظاهر اللفظ معناه فالواحد فى المثال الاول يعد مناسبا لان أصل الضيف مصدر ، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى عامة كلامهم (٧) • يقول الراغب الاصفهانى (٨) : « ورجل عدل يقال فى

---

(١) الخصائص جـ ٢ ص ٣٦٠ وانظر الحذف وانواعه ص ٣٦٠ ــ ٣٨١ •

(٢) انظر ابن هشام مغنى اللبيب جـ ٢ ص ١٤٢ الحذف • والثعالبى فقه اللغة ص ١٦٢ ــ ١٦٣ طبعة الحجر ١٢٨٤ هـ وابن الشجرى الامالى ٣١٩/١ وما بعدها ، ٢/٢ وما بعدها •

(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٢ •

(٤) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٢١٨ ــ ٢٢١ •

(٥) المزهر جـ ١ ص ٣٣٣ •

(٦) الصاحبى ص ١٦٠ •

(٧) الراغب الاصفهانى : المفردات ص ٣٠٢ •

(٨) نفس المصدر ص ٣٢٨ •

الواحد والجمع . قال الشاعر فهم رضاوهم عدل (١) . وأصله مصدر كقوله : وأشهدوا ذوى عدل منكم أى عدالة » . فالمصدرية هى التى أعطت وجها للمناسبة وأما عدو فى المثال الثانى فان ابن سيده يقول (٢) : « والعدو ضد الصديق يكون للواحد والاثنين والجميع والانثى والذكر بلفظ واحد . وفى التنزيل (فانهم عدولى) .

قال سيبويه عدو وصفه ولكنه ضارع الاسم : وقد يثنى : ويجمع ، ويؤنث والجمع أعداء » والزمخشرى يرى أن « العدو والصديق يجيئان فى معنى الوحدة والجماعة . قال :

وقوم علـى ذوى مـئره
أراهـم عـدوا وكانوا صـديقا

ومنه قوله تعالى : « وهم لكم عدو » شبها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل » (٣) . « ويذكر الفيروزبادى أنه « يستوى فى العدو الواحد والجمع والذكر والانثى . وقد يثنى ، ويجمع : ويؤنث فى بعض اللغات » (٤) .

أما محمد بن حسن الرضى فيرى أنه قد يقع المفرد موقع الجمع كقوله تعالى : « ويكونون عليهم ضدا » ؛ وقوله : « وهم لكم عدو » . وذلك لجعلهم كذات واحدة فى الاجتماع والترادف كقوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كنفس واحدة » (٥) .

وأما قوله فى ذكر الجمع والمراد واحد « ان يعف عن طائفة » . فان الراغب الاصفهانى يقول (٦) : « والطائفة اذا أريد بها الجمع

---

(١) انظر ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٠ وابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ٢٠٢ .

(٢) المحكم : تحقيق عبد الستار فراج الجزء الثانى ص ٢٢٩ .

(٣) الكشاف طبعة ١٢٨١ هـ دار الطباعة بولاق جـ ٢ ص ١١١ (سورة الشعراء) .

(٤) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٤ ص ٣١ تحقيق محمد على النجار القاهرة ١٩٦٩ . المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

(٥) الرضى : شرح الكافية جـ ٢ ص ١٩٧ .

(٦) المفردات ص ٣١٥ .

فجمع طائف ، واذا أريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعا ويكنى به عن الواحد . ويصح أن يجعل كراوية وعلامة ، ونحو ذلك . وقوله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » . قال بعضهم : قد يقع ذلك على واحد فصاعدا ، وعلى ذلك قوله « وان طائفتان من المؤمنين — اذ همت طائفتان منكم » . والامر أصبح واضحا ويزيده وضوحا قول اللسان (١) : « والطائفة من الشىء جزء منه،وفى التنزيل العزيز:«وليشهدعذابهما طائفة من المؤمنين»قال مجاهد الطائفة الرجل الواحد الى الالف . وقيل الرجل الواحد فما فوقه . وروى عنه أيضا أنه قال أقله رجل . وقال عطاء أقله رجلان يقال طائفة من الناس ، وطائفة من الليل . وفى الحديث « لاتزال طائفة من أمتى على الحق » . الطائفة الجماعة من الناس ، وتقع على الواحد كأنه أراد نفسا طائفة . وسئل اسحق بن راهويه عنه فقال الطائفة دون الالف .. » . ويقول ابن قتيبة (٢) : « وقال قتادة فى قوله تعالى (ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) التوبة (٦٦) : كان رجل من القوم لايمالئهم على أقاويلهم فى النبى صلى الله عليه ، ويسير مجانبا لهم فسماه الله طائفة وهو واحـــد » .

وفى الحمل على المعنى ذكر ابن جنى أمثلة فى الواحد والجماعة منها قوله تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » . « فأفرد على لفظ من ثم جمع من بعد . وقال عبيد :

فالقطبيات فالذنوب .

وانما القطبية ماء واحد معروف . وقال الفرزدق :

فياليت داري بالمـــدينة أصـــبحت
بأجفار فلـــج أو بسيف الكواظـــم

يريد الجفر وكاظمة .. » (٣) .

---

(١) لسان العرب لابن منظور طبعة مصورة عن طبعة بولاق : تراثنا نشر المؤسسة المصرية العامة للتاليف والانباء والنشر ج ١١ ص ١٣٠
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٢١٨ .
(٣) ابن جنى الخصائص ج ٢ ص ٤١٩ — ٤٢٠ .

وأما قوله تعالى : « فقد صغت قلوبكما » . وهما قلبان فهو من ذكر الجمع والمراد اثنان ؛ وانما عبر بالجمع مع أن المراد التثنية . لان التثنية فى الحقيقة جمع لغوى (١) ؛ ولانه مما لايقع فيه لبس ولا اشكال ، فمن المعلوم ألا يكون للانسان الا قلب واحد (٢) . وقلنا ان التثنية جمع لغوى « لان الجمع فى اصطلاحهم يطلق على الاثنين كما يطلق على مازاد على الاثنين . ويؤيد هذا شواهد كثيرة فصيحة فى مقدمتها القرآن . قال تعالى : « وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . وقوله تعالى : « ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما » . وقوله تعالى : « والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . وقول أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء أبنائه الخمسة الذين ماتوا بالطاعون :

العين بعدهمو كأن حداقها
سملت بشوك ؛ فهى عورا تدمع

فأطلق الجمع فى قوله : حداقها — وهى جمع : « حدقة » — وأراد الاثنين .. » (٣) .

وفى شرح الكافية ان كثيرا ما يجىء المثنى بصيغة الجمع (٤) نحو قوله « صغت قلوبكما » . وصرح النحاة بأن كل مثنى فى المعنى مضا فالى متضمنه يجوز فيه الافراد والتثنية والجمع والافضل

---

(١) حاشية الخضرى على ابن عقيل : الطبعة الاولى بالمطبعة الازهرية المصرية سنة ١٣٠٦ هـ ج ٢ ص ٥٦ وانظر امالى ابن الشجرى ج ١ ص ١٣ .

(٢) انظر امالى ابن الشجرى ج ١ ص ١٣ وفى أمالى ابن الشجرى أيضا ج ١ ص ١٢ قال سيبويه وسألته يعنى الخليل عن قولهم ما احسن وجوههما وهم يريدون اثنين فقال لان الاثنين جميع . وهذا بمنزلة قول الاثنين نحن فعلنا ، ولكنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما يكون مفردا وبين ما يكون شيئا من شىء . انظر تفسير ابن الشجرى ذلك ص ١٣ .

(٣) عباس حسن : النحو الوافى : الطبعة الخامسة دار المعارف بمصر ج ١ رقم ١ من هامش ص ١١٩ . وانظر (ز) من ص ١٦٠ ورقم ٢ من هامش ص ١٣٧ وانظر الرضى شرح الكافية ١٩٦/٢ وشرح الاشمونى ج ٣ ص ٥٦ .

(٤) الرضى شرح الكافية ٨/٢ وانظر امالى ابن الشجرى ج ١ ص ١٢ — ١٣ .

الجمع نحو المثال السابق•وانما فضل الجمع على الثنية لان المتضايفين كالشيء الواحد ، فكرهوا الجمع بين تثنيتهما ، ولان المثنى جمع فى المعنى ، وفضل الجمع على الافراد لان الافراد ليس كذلك ، فهو أقل منه منزلة فى الدلالة على المثنى (١) •

وأما صفة الجمع بصفة الواحد كقوله تعالى : « والملائكة بعد ذلك ظهير » • فان ظهيرا على فعيل يستوى فيـــه المذكر والمـــؤنث والمفرد والمثنى والجمع بسبب كونه على زنة المصدر مثل الـــذميل والصهيل • والمصدر يخبر به عن الواحد والمثنى والجمـــع بلفظ واحد •• ومن عادة العرب أن يعطوا الشيء الذى يشبه شـــيئا حكم ذلك الشيء تحقيقا لمقتضى المشابهة ، وقد وردت صيغة فعيل هنـا مخبرا بها عن الجماعة (٢) •

ومثل ظهير فى معنى ظهراء قول الشاعر :

يا عـــاذلاتى لاتـــزدن مـــلامتى
ان العـــــواذل لسن لى بأمـــــير

يعنى لسن بأمراء(٣) • وقوله تعالى : « وحسن أولئك رفيقا » • أي رفقاء (٤) وفعيل يشبه فعولا لانه صفة مثله وثالثه حرف مد ، وقد استعملوا فعو لاللكثرة لانه على لفظ « فعول » الذى يقع مصـــدرا نحو القبول والولوع (٥) •

وصفه الواحد أو الاثنين بصفة الجمع كقول العرب ثوب أهدام وجاء

---

(١) عباس حسن : النحو الوافى ج ١ رقم ١ من هامش ص ١١٩ — ١٢٠ وانظر شرح الكافية ١٩٦/٢ وحاشية الصـــبان ٥٦/٣ وشرح الاشمونى ٥٦/٣ وحاشية الخضرى ٥٦/٢ .

(٢) محمد محيى الدين عبد الحميد منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ج ١ هامش ص ١٩٦ .

(٣) الجوهرى تاج اللغة وصحاح العربية طبعة ١٢٨٢ هـ ج ١ ص ٣٥٦ وابو منصور الازهرى : تهذيب اللغة ج ٦ ص ٢٤٧ . وانظر ابن قتيبة تاويل مشكل القرآن ص ٢٢٠ .

(٤) أبو منصور الازهرى تهذيب اللغة ج٦ ص ٢٤٨ وأبو على الفارسى الحجة ج ١ ص ١٦٩ .

(٥) كتاب فى أصول اللغة — مجمع اللغة العربية القاهرة ١٩٦٩م ص ٧٨ .

الشتاء وقميصى أخلاق من الامور التى يتحقق فيها نظام القرينة • « وصيغة أفعال تقوى شبهها بلفظ المفرد حتى قال سيبويه ان لفظه مفرد ولذا كثر وصف المفرد به فى نحو : برمة أعشار ، وثوب أسمال ، وقميصى أخلاق قال الراجز : جاء الشتاء وقميصى أخلاق • وكذلك نطفة أمشاج ، وقد رجع الضمير اليه مفردا مذكرا فى قوله تعالى « وان لكم فى الانعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه » (١) •

ويرى الجوهرى أنهم يقولون ثوب أخلاق اذا كانت الخلوقة فيه كله ، كما قالوا برمة أعشار (٢) •• وفى الصاحبى « ويقولون أرض سباسب يسمون كل بقعة منها سبسبا لاتساعها » (٣) •

ويقرر ابن جنى أن قول مزاحم العقيلى :

لظل رهينا خاشع الطرف حطه
تخلب جدوى والكلام الطرائف

من وصف المفرد بالجمع ، وذلك وصف على المعنى كما حكى أبو الحسن عنهم من قولهم : ذهب به الدينار الحمر والدرهم البيض • وكما قال :

تراها الضبع أعظمهن رأسا

فأعاد الضمير على معنى الجنسية لاعلى لفظ الواحد ، لما كانت الضبع هنا جنسا (٤) •

٤ — « ان تخاطب العرب الشاهد ثم تحول الخطاب الى الغائب، وتخاطب الغائب ثم تحوله الى الشاهد • وهو الالتفات المعروف فى

---

(١) د• محمد بدرى المختون — دراسة نظرية تطبيقية فى علمى الصرف والعروض — القسم الاول — مكتبة الشباب — مطبعة الرسالة ١٩٦٦ م ص ١٤٠ •

(٢) تاج اللغة وصحاح العربية — طبعة المطبعة الكبرى ١٢٩٢ هـ ج ٢ ص ٨١ •

(٣) ابن فارس الصاحبى ص ١٨١ — ١٨٢ وانظر اللسان ٢٤٩/٦ ، ٨٦/١٦ •

(٤) ابن جنى الخصائص ج ١ ص ٢٥ — ٢٦ •

البديع • وأن تخاطب المخاطب ثم ترجع الخطاب الى غيره نحو قوله تعالى : « فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » الخطاب الاول للنبى صلى الله عليه وسلم وصحابته ، والثانى للمشركين • والرجوع من الخطاب الى الغيبة ، ومن الغيبة الى الخطاب بدون تغيير فى المعنى كقوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم أراد بكم • وقوله (وسقاهم ربهم شرابا طهورا ان هذا كان لكم جزاء) • ومعناه كان لهم • وقد جاء فى الشعر أيضا كما رواه ابن الانبارى فى الاضداد » (١) • وقريب من هذا النوع أن يبتدىء بشىء ثم يخبر عن غيره كقوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن) فخبر عن الازواج بلفظ يتربصن ، وترك الذين (٢) •

وأمثلة الالتفات تعد من قبيل اخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وقد جعله ابن قتيبة فى باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه (٣) •

والالتفا تعند جمهور علماء المعانى هو : « التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة التكلم ، والخطاب ، والغيبة — بعد التعبير عن هذا المعنى بطريق آخر من هذه الطرق • ومن هذا التعريف يعلم أن لابد فيه عندهم من تعبيرين ، وأن يكون التعبير الثانى على خلاف مايقتضيه ظاهر الكلام ، وان وافق ظاهر المقام •• » (٤) والالتفات عند السكاكى هو « التعبير عن المعنى بطريق مخالف لمقتضى الظاهر من الطرق الثلاثة المتقدمة • سواء سبقه تعبير آخر بطريق أخرى من هذه الطرق •• أو لم يسبقه تعبير آخر أصلا كما فى مثل قول الشاعر :

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٢ وانظر ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٣ والسيوطى المزهر ج ١ ص ٣٣٤ •

(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٢ — ٢٣٣ والسيوطى المزهر ج ١ ص ٣٣٤ •

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٣ — ٢٢٤ •

(٤) حامد عونى مذكرة البلاغة الطبعة الثانية دار الكتاب العربى ص ١٥٣ وانظر الايضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى شرح د. محمد عبد المنعم خفاجى نشر دار الكتاب اللبنانى ١٩٧١ ج ١ ص ١٥٧

الـهى عبــــدك العــــاصى أتاكـــا
مقـــرا بالـذنوب وقـــد دعـــاكا

فان فيه التفاتا عند السكاكى فى قوله : « عبدك العاصى أتاكا » لانه تعبير عن المعنى بما يخالف مقتضى الظاهر ؛ اذ مقتضاه أن يعبر بضمير التكلم لان المقام له ، فيقال : « أنا العاصى أتيتك » • ولا يعتبر التفاتا عند الجمهور لعدم وجود تعبير سابق عليه ؛ كما هو الشرط عندهم » (١) •

والرافعى يهتم بعملية اللفت فجأة عن المعنى الظاهر ، ثم البغت بروح الكلام (٢) وما تأتى به من هزة الطرب ، والمتعة واللذة ، والاحداث والتجديد والطرافة والنشاط والجمال والحلاوة والظرف (٣) ويصرح بأن ذلك الذى ذكره من السنن هو الالتفات المعروف فى البديع (٤) • وبعض الباحثين يرى أن المقام « قد يقتضى مزيد اصغاء السامع ، واسترعاء اهتمامه لخطر شأنه ، كأن يكون المقام مدحا فى عظيم أو ادلاء بحجة ، أو نحو ذلك • ومن هذه الناحية يكون من مباحث علم المعانى ، فتسمية ذلك النقل من طريق الى طريق التفاتا عند علماء المعانى لاتفاق تسميته بهذا الاسم عند علماء البديع » (٥) •

وأما قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن » وذكر أنه خبر عن الازواج بلفظ يتربصن وترك الذين —

---

(١) حامد عونى مذكرة البلاغة ص ١٥٤ وانظر الايضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى جـ ١ ص ١٥٧ .

(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣١ وانظر الايضاح للخطيب القزوينى جـ ١ ص ١٦٠ .

(٣) ويرى ابن الاثير أن الانتقال من أسلوب الى أسلوب لايكون الا بفائدة أو قضية غير أنها لاتحد بحد ولا تضبط بضابط لكن يشار الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها . انظر نقد رأى الزمخشرى فى كتابه المثل السائر طبعة بولاق ١٢٨٢ ص ٢٥٤ .

(٤) تاريخ آداب العرب ص ٢٣٢ .

(٥) حامد عونى مذكرة البلاغة ص ١٥٩ .

فقد قيل ان يتربصن « خبر عن الذين والرابط محذوف أى لهم أو بعدهم ، ورجح الاول بقلة الاضمار وبما فى الكلام من الايماء الى ان العدة حق المتوفى ، وقيل خبر لمحذوف أى أزواجهم يتربصن والجملة خبر الذين • وبعض البصريين قدر مضافا فى صدر الكلام أى أزواج الذين وهن نساؤهم • وفيه أنه لايبقى ليـذرون أزواجا فائدة جديدة يعتد بها • ويروى عن سيبويه أن الذين مبتدأ والخبر محذوف أى فيما يتلى عليكم حكم الذين الخ• وحينئذ يكون جملة يتربصن بيانا لذلك الحكم وفيه كثرة الحذف • وذهب بعض المحققين الى أن الذين مبتدأ ويتربصن خبره،والرابط حاصل بمجرد عود الضمير الى الازواج ، لان المعنى يتربص الازواج اللاتى تركوهن • وقد أجاز الاخفش والكسائى مثل ذلك ولولا أن الجمهور على منعه لكان من الحسن بمكان (١) » •

٥ ــ نسبة الفعل الى الاثنين وهو لاحدهما كقوله : « مرج البحرين يلتقيان » الى قوله : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » • وانما يخرجان من الملح لا العذب • ونسبته الى الجماعة وهو لاحدهم كقوله : « واذ قتلتم نفسا فادار أتم فيها » • والقائل واحد • والى احد اثنين وهو لهما كقوله : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » (٢) وهذه الامور فى باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه عند ابن قتيبة أيضا (٣)• وقد نقلها الرافعى من المزهر الذى أخذها من الصاحبى (٤) • حيث نجدها فيه فى بابين •

ويقول الزمخشرى (٥) « فان قلت لم قال منهما ، وانما يخرجان من الملح (قلت) لمـا التقيا وصارا كالشىء الواحد جاز أن يقال

(١) محمود الالوسى روح المعانى الطبعة الاولى بالمطبعة الكبرى الميرية ببولاق ١٣٠١هـ الجزء الاول ص ٤٣٩ ــ ٤٤٠ .

(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٣ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ .

(٤) ابن فارس الصاحبى ص ١٨٥ ــ ١٨٦ باب الشيئين ينسب الفعل اليهما وهو لاحدهما ــ باب نسبة الفعل الى أحد اثنين وهو لهما . والسيوطى : المزهر جـ ١ ص ٣٣٤ .

(٥) الكشاف : طبعة ١٢٨١هـ دار الطباعة بولاق جـ ٢ ص ٣٦٩ .

يخرجان منهما ، كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ، ولكن من بعضه . وتقول خرجت من البلد ، وانما خرجت من محلة الى محلة بل من دار واحدة من دوره . وقيل لايخرجان الا من ملتقى الملح والعذب » .

ويرى ابن جنى أنه يحتمل أن يكون الكلام محمولا على حذف المضاف والتقدير يخرج من أحدهما (١) ، لا منهما . وقال أبو الحسن وزعم قوم أنه يخرج من العذب أيضا (٢) .

وفى كتاب الله جل ثناؤه : « فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما » الكهف (٦١) . وروى فى التفسير أن الناسى كان يوشع بن نون ، ويدل على ذلك قوله لموسى صلى الله عليه فانى نسيت الحوت (٣) .

أما قوله تعالى « والله ورسوله أحق أن يرضوه » وهو من نسبة الفعل الى أحد اثنين ، وهو لهما . فعلى تقدير أن يكون التركيب المذكور جملة واحدة ، وأن توحيد الضمير انما هو لعدم التفاوت بين رضا الله ورضا رسوله واعتبارهما فى حكم مرضى واحد . وقيل انه من حذف المسند على تقدير « والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، فقد حذف المسند الى رسوله لاحدى نكات الحذف (٤) ..

وفى قول الشاعر :

ان شرخ الشباب والشعر الاسود
مالم يعاص كان جنونا

---

(١) ابن جنى : الخصائص ج ١ ص ٢٩٣ .
(٢) نفسه ج ١ هامش رقم (٥) ص ٢٩٣ .
(٣) ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن ص ٢٢١ وانظر ابن فارس الصاحبى ص ١٨٥ والثعالبى : فقه اللغة ص ١٧٥ .
(٤) الايضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ج ١ ص ١٦٩ــ١٧٠ ومذكرة البلاغة لحامد عونى ص ١٧٤ وانظر امالى ابن الشجرى ج ١ ص ٣١٠ وراجع أيضا ص ٢٩٦ .

قال ابن الشجرى (١) : « قال لم يعاص فافرد الضمير وان كان لاثنين ، وذلك لا نكل واحد منهما بمنزلة الآخر فجريا مجرى الواحد . ألا ترى أن شرخ الشباب هو اسوداد الشعر ؟ ولولا أنهما لاصحابهما صارا بمنزلة المفرد كان حق الكلام أن يقال يعاصيا » .

٦ — أن تأمر الواحد بلفظ أمر الاثنين كقول العرب افعلا ذلك ، ويكون المخاطب واحدا . وكان الفراء يرى فى أصل ذلك أن الرفقة عند العرب أدنى ما تكون ثلاثة نفر ، فيجرى كلام الواحد على صاحبيه ، ولذا كان شعراؤهم أكثر الناس قولا ياصاحبى وياخليلى » (٢) .

وما قاله ابن قتيبة فى باب مخالفة ظاهر اللفظ أدق وأشمل ، ففى رأيه أن من هذا الباب : « أن تأمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق أمرك الاثنين فتقول افعلا . قال الله تعالى : « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد » ق ٢٤ .. الخطاب لخزنة جهنم أو زبانيتها (٣) . قال الفراء : والعرب تقول ويلك ارحلاها وازجراها . وأنشد لبعضهم:

فقلت لصاحبى لاتجسانا
بنزع أصوله واجتزشيحا (٤)

قال الشاعر :

فان تزجرانى يابن عفان أنزجر
وان تدعانى أحم عرضا ممنعا » (٥)

---

(١) امالى ابن الشجرى جـ ١ ص ٣٠٩ . والقائل هو حسان بن ثابت انظر ديوانه ٤١٣ وانظر اللسان شرخ والحيوان للجاحظ طبع الحلبى ١٣٥٨ — ١٣٦٦ جـ ٣ ص ١٠٨ ، جـ ٦ ص ٢٤٤ .

(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٣ وانظر السيوطى المزهر جـ ١ ص ٣٣٤ ٣٣٥ .

(٣) فى فقه اللغة للثعالبى (فصل فى امر الواحد بلفظ امر الاثنين) ص ١٥٧ ان قوله عز وجل ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد هو خطاب لمالك خازن النار . وراجع قولا آخر فى نفس الآية ونفس المصدر ص ١٥٧ .

(٤) فى الصاحبى ص ١٨٦ (واجدز) وفى اللسان ان المعنى لاتجسنا عن شىء اللحم بأن تتلع اصول الشجر بل جز ما تيسر من قضبانه وعيدانه ، واسرع لنا فى شيه . قال : ويروى لاتحبسانا وقيل فى معناه ان العرب ربما خاطبت الواحد بلفظ الاثنين .

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

وبعد ذكره الاصل عند الفراء يقول (١) : « وقال غير الفراء قال النبى صلى الله عليه وسلم الواحد شيطان ، والاثنان شيطانان والثلاثة ركب (٢) . وتوعد معاوية روح بن زنباع فاعتذر روح فقال معاوية خليا عنه .

اذا الله سنى عقــد شىء تيسرا

وقوله : سنى ، أى فتح . قالوا وأدنى ما يكون الآمر والناهى بين الاعوان اثنان ، فجرى كلامهم على ذلك ، ووكل الله عز وجل بكل عبد ملكين ، وأمر فى الشهادة بشاهدين » .

ومن المحققين من يرى أنه قد يقدم افعلا مقام افعل على تأويل افعل افعل اقامة لتكرير الفعل مقام تثنية الفاعل للملابســة التى بينهما (٣) .

٧ ــ « أن تأتى بالفعل بلفظ المــاضى وهو حاضر أو بلفظ المستقبل وهو ماض كقوله تعالى (أتى أمر الله) . أى يأتى (واتبعوا ما تتلو الشياطين) أى ما تلت الشياطين » (٤) .

وهذا من الخروج عن مقتضى الظاهر . أما الاول فنكتته التنبيه على تحقق الـــوقوع ، وأن ما هو للوقوع كالـــواقع . يقـــول الزمخشرى (٥) : « اتى أمر الله » الذى هو بمنزلة الآتى الواقع ، وان كان منتظرا لقرب وقوعه » . وجعل المتوقع الذى لابد مــن وقوعه كالواقع له أمثلة كثيرة (٥) .

وأما الثانى فنكتته استحضار الصورة العجيبة ، لان مقتضى الظاهر فى المثال الثانى أن يقال « ما تلت الشياطين » . لان هــذا

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

(٢) الرضى : شرح الكافية ٢/١٩٧ .

(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٣ وانظر تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٧ والمزهر ج ١ ص ٣٣٥ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ٤٣٠ .

(٥) انظر ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٧ والثعالبى : فقه اللغة ص ١٥٧ ــ ١٥٨ وحامد عونى مذكرة البلاغة ص ١٦٩ .

واقع فعلا ، ولكن عبر بلفظ المستقبل على خلاف مقتضى الظاهر لقصد استحضار الصورة ، وكأنها واقعة . ولهذا أيضا أمثلة كثيرة (١) .

والتعبيران فى كلتا الصورتين من قبيل مجاز التشبيه (٢) .

والحامل على هذا هو قصد المبالغة . « وهذا التصرف — وان كان من وظيفة البيان — يعد من وظيفة علم المعانى من حيث ان الداعى اليه التنبيه على تحقيق الوقوع فى الاول ، واستحضار الحال الماضية فى الثانى ، فلا اشتباه » (٤) .

٨ — « أن تأتى بالمفعول بلفظ الفاعل نحو سر كاتم أى مكتوم ، وأمر عارف أى معروف ، وبالفاعل على لفظ المفعول كقولهم بيع مغبون ويكون المعنى غابنا » (٤) ، و « اقامة المصدر مقام الامر نحو فضرب الرقاب واسم الفاعل مقام المصدر كقوله : ليس لوقعتها كاذبة أى تكذيب . واسم المفعول مقام المصدر نحو بأيكم المفتون أى الفتنة » (٥) . وقد ذكر مسألة الاقامة فى موضع آخر ولكننا آثرنا أن نأتى به هنا فهو مناسب للتبادل بين اسم الفاعل والمفعول .

وبعد ذكر المحاذاة أتى بما نفضل أن يكون موضعه هنا : وهو «اتيانهم بالمصدر من غير الفعل لان المعنى واحد كقولهم اجتوروا تجاورا وتجاوروا اجتوارا ، وانكسر كسرا وكسر انكسارا . وعليه قوله (وتبتل اليه تبتيلا) . ومجىء صفات المؤنث على فاعل كقولهم أمرأة بادن أى بادنة ، وجارية عاتق بمعنى صغيرة . ومجىء فاعل فى المؤنث بمعنى المفعول كقولهم دابة حاسر أى حسرها السير وغلالة رادع أى مردعة بالطيب والزعفران فى مواضع منها .. » (٦) .

---

(١) انظر ابن فارس : الصاحبى ص ١٨٦ — ١٨٧ .
(٢) حامد عونى : مذكرة البلاغة ص ١٧٠ .
(٣) نفسه وانظر الايضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزينى ج ١ ص ١٦٤ .
(٤) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٣ .
(٥) نفسه ص ٢٣٤ .
(٦) نفسه

وماصنعناه ينأى عن الفصل بين أمور من حقها أن تتقارب فى الدرس • ومما يجدر ذكره أن الصحابى ذكر فى باب التعويض أيضا بعض الامثلة السابقة فمن التعويض عنده ـ وهو اقامة الكلمة مقام الكلمة ـ اقامة المصدر مقام الامر نحو فضرب الرقاب والفاعل مقام المصدر نحو ليس لوقعتها كاذبة أى تكذيب•والمفعول مقام المصدر نحو بأيكم المفتون ، أى الفتنة والمفعول مقام الفاعل نحو حجابا مستورا أى ساترا (١) •

ويرى ابن قتيبة أن مجىء الفاعل على لفظ المفعول قليل كقوله : « انه كان وعده مأتيا » (مريم ٦١) أى آتيا (٢) • ويذكر امثلة كثيرة يأتى فيها المفعول بلفظ الفاعل (٣) •

واذا درسنا سر نيابة كل لفظ منهما عن الآخر فاننا نجد آراء مختلفة ، فمن الآراء من يقرر أن الصيغتين الثلاثيتين لاسمى الفاعل والمفعول تساويا فى نيابتهما عن غيرهما . فلا غرابة فى نيابة كل منهما عن الاخر (٤) • والفارق بينهما فى الصياغة من غير الثلاثى قد يكون تقديريا لايظهر فى النطق لعارض الاعلال بالقلب أو الادغام « فالكلمة حينئذ صالحة فى ذاتها للوصفين وذلك اذا كان الفعل على وزن افتعل أو انفعل الاجوفين نحو اختار وانقاد ، أو المضعفين نحو امتد وانجر أو فاعل أو افعل أو افعال المضعفات نحو حاد واحمر واحمار فالمدار على القرينة ، ويختلف الوزن بالتقدير » (٥) •

---

(١) ابن فارس الصاحبى ص ١٩٩ — ٢٠١ وانظر المزهر ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٩ وانظر الصاحبى ص ١٨٨ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٨ — ٢٢٩ وانظر الصاحبى ١٨٧ — ١٨٨ وفقه اللغة للثعالبى ص ١٥٨ .

(٤) محمد الطنطاوى : بغية النجباء فى تصريف الاسماء — دار الصاوى للطبع والنشر الطبعة الاولى ١٩٣٩ ص ٨٩ وراجع صفحات ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ وانظر حاشية الصبان على شرح الاشمونى . طبع دار الكتب العربية جـ ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٥ .

(٥) محمد الطنطاوى : بغية النجباء فى تصريف الاسماء ص ٨٨ .

والاشتقاق له اعتبار فى النيابة (١) . ولكن الرضى فى شرح الكافية يذكر الاولى فيقول (٢) : « قالوا وقد جاء فاعل بمعنى مفعول نحو ماء دافق أى ماء مدفوق ، وعشية راضية أى مرضية . والاولى أن يكونا على النسب كنابل وناشب ، اذ لا يلزم أن يكون فاعل الذى بمعنى النسب مما لافعل له كنابل بل يجوز أيضا كونه مما جاء منه الفعل فيشترك النسب واسم الفاعل فى اللفظ . وكذا قيل يكون اسم الفاعل بوزن المفعول كقوله تعالى (انه كان وعده مأتيا أى آتيا) . والاولى أنه من اتيت الامر أى فعلته . فالمعنى أنه كان وعده مفعولا كما فى الآية الاخرى » . والآية الاخرى « انه كان وعده مفعولا » ، ومأتى باق على ظاهره .

وفى حاشية الصبان (٣) : « وقد يجىء اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول والعكس نحو عيشة راضية ونحو انه كان وعده مأتيا ، أى مرضية ، وآتيا . وقيل الاول مجاز عقلى أى راض صاحبها . والثانى من قولهم أتيت الامر أى فعلته » .

أما أمر عارف أى معروف فهو فاعل بمعنى مفعول ولكن الازهرى يقول (٤) : « لم أسمع « أمر عارف » أى معروف لغير الليث والذى حصلناه للائمة : رجل عارف أى صبور . قال أبو عبيد (٥) وغيره يقال : نزلت به مصيبة فوجد صبورا عارفا .. » . وأما سر كاتم أى مكتوم فهو عن كراع (٦) . واقامة المصدر مقام الامر نحو فضرب الرقاب لان حذف العامل واجب مع مصدر آت بدلا من فعله ، أى عوضا من اللفظ بفعله ، لدلالة القرينة عليه ، ولانه لايجوز

---

(١) محمد الطنطاوى : تصريف الاسماء الطبعة الخامسة ١٩٥٥م مطبعة وادى الملوك ص ١٤٣ .

(٢) ٢٣١/٢ .

(٣) جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٤) تهذيب اللغة جـ ٢ تحقيق محمد على النجار الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ص ٣٤٤ وانظر لسان العرب جـ ١١ ص ١٤١ (الطبعة المصورة) .

(٥) فى لسان العرب « عبيدة » انظر جـ ١١ ص ١٤١ .

(٦) لسان العرب جـ ١٥ ص ٤١٠ (الطبعة المصورة) .

الجمع بين البدل والمبدل منه • والحذف فى هذا المثال لان المصدر واقع فى الامر ، كقول الشاعر :

على حـــين ألهى الناس جل أمـــورهم
فنـــدلا زريق المـــال ندل الثعالب (١)

فندلا بدل من اللفظ باندل • والاصل اندل يازريق المـــال أى اختطفه ، والاصل فى « فضرب الرقاب » فاضربوا الرقاب (٢) •

والمصدر لايقوم مقام الامر فقط ، بل يقول مقام غيره أيضا كما ذكر النحاة (٣) • ويمكن القول بأن الحذف الواجب على نوعين واقع فىالطلب ، وواقع فى الخبر ، والنوع الثانى هو مادل على عاملـــه قرينة وكثر استعماله (٤) • والواقع فى هذين النوعين هو المصدر • وهناك حذف العامل جوازا لدلالة القرينة عليه ، كما أن هناك حذفا يمتنع كحذف عامل المصدر المؤكد ، لانه انما جيء به لتقوية عامله وتقرير معناه ، والحذف ينافى ذلك • ونازع فى ذلك بعض العلماء (٥) • وبين بعضهم ما قيل فى الرد عليه ذاكرا ما أثبته تحقيق الامر (٦) •

والذى يهمنا أن النوع الاول فى الحذف الواجب مقيس على الصحيح بشرط أن يكون له فعل من لفظه ، وأن يكون مفردا منكرا بخلاف النوع الثانى فسماعى على الصحيح الا ماذكر من الواقع تفصيلا ومكررا وذا حصر ومؤكدا للجملة وذا تشبيه ، فقياسى ، وكذا من السماعي ما كان من الاول لا فعل له من لفظه كويحه وويله أو لم يكن مفردا منكرا (٧) •

---

(١) حاشية الصبان على شرح الاشمونى + شرح الاشـــمونى بالهامش مطبعة دار الكتب العربية ١٣٢٩هـ جـ ٢ ص ٧٦ — ٨٧ .
(٢) شرح الاشمونى جـ ٢ ص ٨٧ وانظر امالى ابن الشجرى جـ ١ ص ١٦٢ .
(٣) نفسه جـ ٢ ص ٨٦ — ٨٧ . وانظر راى ابن عصفور فى نفس المرجع ص ٨٧ .
(٤) نفسه جـ ٢ ص ٨٧ .
(٥) نفسه جـ ٢ ص ٨٦ .
(٦) حاشية الصبان جـ ٢ ص ٨٦ .
(٧) حاشية الصبان جـ ٢ ص ٨٦ — ٨٧ .

والمصدر الذى أتى بدلا من اللفظ بفعله يعمل ، ولكن اختلف فيه . « فقيل لا ينقاس عمله ، وقيل ينقاس فى الامر والدعاء والاستفهام فقط ، وقيل والانشاء نحو حمدا الله والوعد نحو قالت نعم وبلوغا بغية ومنى . والتوبيخ نحو وفاقا بنى الاهواء والغى والهوى (١) » . ومن اقامة اسم الفاعل مقام المصدر قوله تعالى : « ليس لوقعتها كاذبة » « هى واقعة وغير منتف كونها ، والكاذبة ظاهره وجعله صفة لموصوف محذوف قدره الزمخشرى « نفس كاذبة» أى لايكون حين تقع نفس تكذب لان كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة .. وقدره ابن عطية « حال كاذبة » (٢) . ويقول أبو على الفارسى فى « ليس لوقعتها كاذبة » « هى واقعة وغير منتف كونها ، والكاذبة يشبه أن يكون مصدرا كالعاقبة والعافية ونحو ذلك (٣) » . وقيل ان كاذبة كالطاغية فى قوله تعالى : « فأهلكوا بالطاغية ، والهاء للمبالغة كرجل راوية (٤) . ويرى أبو على الفارسى أن قوله تعالى : « فأهلكوا بالطاغية » يحتمل ضربين أحدهما ان يكون مصدرا كالعافية والعاقبة أى بطغيانهم.والآخر أن يكون صفة ، أى بالريح الطاغية(٥).

وفى اقامة اسم المفعول مقام المصدر جاء الرافعى بقوله تعالى « بأيكم المفتون » أى الفتنة . وقد قيل غير ذلك . ومنه أن المعنى فستبصر ويبصرون فى أى الفريقين المجنون أى فى فرقة الاسلام أو فى فرقة الكفر أقام الباء مقام فى أوجاءت الباء زائدة . قال ابن برى اذا كانت الباء زائدة فالمفتون الانسان ، وليس بمصدر ، فان جعلت الباء غير زائدة فالمفتون مصدر بمعنى الفتون . وجماع الامر أن فى المفتون قولين للنحويين (٦) .

---

(١) حاشية الصبان على شرح الاشمونى ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) البحر المحيط : ابو حيان الاندلسى الطبعة الاولى مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ ج ٨ ص ٢٠٣ وانظر الزمخشرى الكشاف ج ٢ ص ٣٧١ — ٣٧٢ .

(٣) الحجة ج ١ ص ٢٥٠ .

(٤) البحر المحيط ابو حيان الاندلسى ج ٨ ص ٣٢١ .

(٥) الحجة ج ١ ص ٢٧٦ .

(٦) لسان العرب . طبعة مصورة ج ١٧ ص ١٩٥ وانظر الزمخشرى الكشاف ج ٢ ص ٤١٤ . وشروح الشافية طبع المطبعة العامرة ١٣١٠هـ ج ١ ص ٦٨ .

ولابد أن نشير الى أن اقامة اسمى الفاعل والمفعول مقام المصدر من باب التبادل بين هذين النوعين وبين المصدر : لما بينهما من علاقة الاشتقاق ومن المعلوم أن لكل من المصدر وهذين النوعين صيغا قياسية خاصة به وأن معنى المصدر قد أريد فى بعض الاحيان من صيغتيهما ، كما أريد من صيغة معنياهما ، والقرائن توجب ملاحظة ذلك ، فجاء المصدر على صيغتيهما كما فهم معنياهما من صيغته (١) • يقول الزمخشرى (٢) : « وقد يرد المصدر على وزن اسمى الفاعل والمفعول كقولك قمت قائما ، وقوله : ولا خارجا من فى زور كلام (٣) •

وقوله كفى بالنأى من أسماء كاف (٤) •

ومنه الفاضلة والعافية والكافية والدالة والميسور والمعسور والمرفوع والموضوع والمعقول والمجلود والمفتون فى قوله تعالى (بأيكم المفتون) • ومنه المكروهة والمصدوقة والمأوية ، ولم يثبت سيبويه الوارد على وزن مفعول ، والمصبح والممسى والمجرب والمقاتل والمتحامل والمدحر ج•• » • ويذكر أمثلة أخرى . وشواهد تدعم كلامه (٥) ويأتى غيره بأمثلة أخرى تفيد التبادل بين المصدر واسم الفاعل ، ولكنه يذكر أن المصدر ورد بزنة اسم الفاعل قليلا ، وفهم معنى اسم الفاعل ، من المصدر كثيرا • كقولهم رجل عدل وصدق وزور ونوم وماء غور • ولم يرد التبادل بينهما فى غير الثلاثى ،

---

(١) محمد الطنطاوى : تصريف الاسماء الطبعة الخامسة ص ٩٢ .

(٢) المفصل : الطبعة الاولى ١٣٢٣هـ مطبعة التقدم نشر محمد امين الخانجى ص ٢٢٠ — ٢٢٢ .

(٣) قاله الفرزدق : وصدره : « على حلفة لا اشتم الدهر مسلما » . انظر المحكم والمحيط الاعظم فى اللغة لابن سيده تحقيق ابراهيم الابيارى الطبعة الاولى نشر الحلبى بمصر ١٩٧١م ج ٥ ص ٣ . والخصائص لابن جنى جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٤) قاله بشر بن ابى خازم الاسدى . وعجزه : وليس لحبها ان طال شاف وفى رواية أخرى : وليس لنأيها اذ طال شاف . انظر المفصل هامش ص ٢٢٠ والخصائص جـ ٢ ص ٢٦٨ .

(٥) المفصل ص ٢٢٠ — ٢٢٢ .

وندر فهم معنى اسم الفاعل من المصدر (١) • كما فى قول الخنساء :

ترتـــع ما رتعت حتى اذا ادكـــرت
فانمـــا هى اقبـــال وادبـــار (٢)

وفى تهذيب اللغة (٣) أنه جاءت مصادرة كثيرة على فاعلة ، وهذا يخالف ما سبق ويرى ابن جنى أنه من تجاذب الاعراب والمعنى ماجرى من المصادر وصفا نحو قولك هذا رجل دنف وقوم رضا ورجل عدل • فان وصفته بالصفة الصريحة قلت رجل دنف وقوم مرضيون (٤) •

والتبادل بين المصدر واسم المفعول قد وقع فى الثلاثى ، فجاء المصدر بزنة اسم المفعول عند الجمهور،وان كان قليلا عند بعضهم (٥)•

ويمتنع عند سيبويه مجىء المصدر على وزن مفعول ، وما جاء أبقاه اسم مفعول بالتأويل فالميسور والمعسور صفتان للزمان على حذف الجار واتصال الضمير والاصل زمان ميسور فيه ومعســور فيه (٦) • « والمعقول بمعنى المحبوس المشدود صفة للعقل اذ قال كأنه عقل له شىء أى حبس له لبه وشدد) • والمفتون اما أن تجعل الباء فى بأيكم زائدة أو أصيلة بمعنى (فى) •• والحق مع الجمهور لـما فى هذه التأويلات من تكلف » (٧) •

وفهم معنى اسم المفعول من المصدر يعد كثـيرا •• ومعلوم اشتراك المصدر الميمى مع اسم المفعول على سبيل الاصالة فى غير

---

(١) محمد الطنطاوى : تصريف الاسماء ص ٩٣ — ٩٤ وتراجع شروح على الشافية جـ ١ ص ٦٨ وروح المعانى للالوسى الطبعة الاولى بالمطبعة الكبرى ببولاق ١٣٠١هـ جـ ٨ ص ٣١٢ .

(٢) البغدادي خزانه الادب . اشراف محمد محيى الدين عبدالحميد — دار العصور جـ ١ ص ٢٩١ الشاهد ٧٠ .

(٣) جـ ٣ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ وانظر الحجة لابى على الفارسى جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٤) الخصائص جـ ٣ ص ٢٥٩ .

(٥) محمد الطنطاوى تصريف الاســماء ص ٩٤ وشروح الشافية ٦٨/١ .

(٦) شروح الشافية جـ ١ ص ٦٨ .

(٧) محمد الطنطاوى : تصريف الاسماء ص ٩٤ — ٩٥ .

الثلاثى ، والتمييز بينهما بالقرائن (١) . « ولا يخفى أن اسمى الفاعل والمفعول يتضمنان الذات فيجريان عليها .. وأن المصدر لايتضمنها فلا يجرى عليها الا على ملاحظة تأويله بأحدهما حسب ما يتطلبه المقام ، أو تقدير مضاف قبله مطابق للذات . فلا داعى حينئذ الى التأويل فيه . وكـــلا الرأيين منقـــول عن البصريين والكوفيين .. أما علماء البلاغة فيبقونه على حاله دون ملاحظة أحد الوجهين السابقين لقصد المبالغة » (٢) .

وأما قول الرافعى : « ومنها اتيانهم بالمصدر من غير الفعل لان المعنى واحد كقولهم اجتوروا الخ » فانه جرى على ما ذكره ابن سيده فى باب ما جاء المصدر فيه من غير الفعل لان المعنى واحد (٣) « وذلك قولك اجتوروا تجـــاورا ، وتجـــاوروا اجتـــوارا لان معنى اجتوروا وتجاوروا واحد.ومثل ذلك انكسر كسرا وكسر انكسارا وكذلك كل فعلين فى معنى واحد ، ويرجعان الى معنى واحد ، اذا ذكرت أحدهما جاز أن تأتى بمصدر الآخر فتجعله فى موضع مصدره فمن ذلك قول الله تعالى : « وتبتل اليه تبتيلا » ومصدر تبتل تبتلا . وتبتيلا مصدر بتل فكأنه قال بتل .. وقد يجىء المصدر على خلاف حروف الفعل اذا كان الفعلان متساويين فى المعنى » (٤) .

وهذا الكلام لم يأخذ بمذهب من فرقوا بين المصدر واسم المصدر فالمصدر عندهم هو اسم دال على الحدث جار على فعله (٥) . ومعنى جريانه على الفعل ألا تنقص حروفه عن حروف فعله لفظـــا وتقديرا دون تعويض ، لان المصدر يجب اشتماله على حروف فعله لفظا أو تقديرا أو مع التعويض . فاشتماله لفظا نحو اخراج . والفعل أخرج . وتقديرا كقتال ، والفعل قاتل ، فان أصله قيتال بدليل النطق

---

(١) محمد الطنطاوى : تصريف الاسماء ص ٩٥ .
(٢) نفســه ص ٩٥ .
(٣) المخصص : الطبعة الاولى بالمطبعة الكبرى ببولاق ١٣٢٠هـ جـ ١٤ ص ١٨٦ — ١٨٧
(٤) المصدر السابق جـ ١٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ .
(٥) محمد الخضرى حاشيته على ابن عقيل الطبعة الاولى المطبعة الازهرية ١٣٠٦هـ جـ ١ ص ١٨٤ .

بها ، ومع التعويض نحو عدة وتكريم • فالتاء فى عدة عوض عن فاء الفعل • والتاء فى تكريم عوض عن الراء المكررة •

قال الصبان (١) : « وأما المدة التى قبل الآخر فليست للتعويض بدليل ثبوتها فى المصـــدر حيث لا تعويض كالانطلاق والاكـــرام والاستخراج • فعلم من ذلك أن العوض قد يكون آخرا ، وقد يكون أولا » •

فان دل الاسم على الحدث ، ونقصت حروفه عن حروف الفعل لفظا وتقديرا دون تعويض•فهو اسم مصدر نحو اغتسل غسلا وانكسر كسرا ونحو ذلك لخلو الاسم هنا لفظا وتقديرا من بعض ما فى الفعل •

وهم يعتبرون ذلك فرقا بين المصدر واسمه من جهة اللفظ ، أما من جهة المعنى فمدلول المصدر الحدث ، ومدلول اسم المصدر لفظ المصدر من حيث معناه • وقال بعضهم انهما سواء فى الدلالة على الحدث (٢) ، والفرق بينهما من جهة اللفظ فقط وغرض هذا المذهب من تجلية الفرق بين المصدر واسمه ألا يحدث ثمة اشتباه بينهما (٣) •

وبعض الباحثين يرى أن التفرقة بين المصدر واسمه ، انما هى فى اصطلاح المتأخرين من النحاة ، أما المتقدمون منهـم كسيبويه ، واللغويون ، فليس عندهم فرق بين مصدر واسم مصدر ، فكل مادل على الحدث فهو مصدر (٤) •

---

(١) حاشيته على شرح الاشمونى ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) محمـــد الخضرى حاشـــيته على ابن عقيـــل ج ١ ص ١٨٤ و الاشمونى شرحه : منهج السالك ج ٢ ص ٢١٤ والصبان حاشيته على شرح الاشمونى ج ٢ ص ٨٥ ومحمد الطنطاوى بغية النجباء فى تصريف الاسماء ص ٤٨ .

(٣) شرح الاشمونى ج ٢ ص ٢١٤ وانظر محمد الطنطاوى تصريف الاسماء ص ٤٤ ومحمد محيى الدين عبد الحميد : منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ج ٢ هامش ص ٩٨ .
وانظر اللسان ٤٤/١٣ .

(٤) احمد كحيل التبيان فى تصريف الاسماء مطبعة السعادة ص ٢١

ومجىء صفات المؤنث على فاعل يثبت الاستغناء عن علامة التأنيث فى بعض الصيغ • ويغلب فى اللغة العربية ترك التاء التى يؤتى بها لتمييز المؤنث من المذكر فى الصفات المختصة بالمؤنث ان لم يقصد فيها معنى الحدوث كحائض وطالق ومرضع لعدم الحاجة بأمن اللبس • فان قصد معنى الحدوث فالتاء لازمة كحاضت فهى حائضة وطلقت فهى طالقة وقد تلحقها التاء وان لم يقصد الحدوث(١)•وقد ذكرتبعض الصفات المشتركة بين المذكر والمؤنث • مجردة عن التاء (٢) • ويقول الرضى (٣) : « قال المصنف — يعنى ابن الحاجب — فى شرح كلامه ما معناه : أن أصل التاء فى الاسماء أن تكون فى الصفات فرقا بين مذكرها ومؤنثها ؛ وانما تدخل على الصفات اذا دخلت فى أفعالها ؛ فالصفات فى لحاق التاء بها فرع الافعال : تلحقها اذا لحقت الافعال • نحو قامت فهى قائمة ؛ وضربت فهى ضاربة •• » •

والكوفيون يرون أن التاء انما يؤتى بها للفرق بين صفات المذكر والمؤنث ؛ والصفات الخاصة بالمؤنث لاتحتاج الى التاء الفارقة • ورد عليهم بترك التاء فى عانس وضامر وهما صفتان مشتركتان (٤) •

أما سيبويه فيرى فى الصفات المجردة من التاء أنها صفات لمذكر مقدر مؤول بنحو انسان حائض أو شىء مرضع • كما أن ربعة أنث بالتاء ؛ وهو وصف مشترك بين المذكر والمؤنث ؛ وبهمة شجاع — لزمته التاء وهو وصف خاص بالمذكر لانها صفات لمؤنث مقدر أى نفس (٥) • ويرى الخليل أنها جردت عن التاء لتأديتها معنى

---

(١) محمد بن حسن الرضى شرح الكافية ١٨٣/٢ وانظر حاشية الصبان على شرح الاشمونى ٧٠/٤ •

(٢) نفس المصدر ١٨٣/٢ — ١٨٤ والصفات المشتركة مثل جمل ضامر وناقة ضامر ورجل عانس وامراة عانس • ورجل بادن وامراة بادن • انظر ابن سيده : المخصص : المطبعة الكبرى بولاق ١٣٢١هـ جـ ١٦ ص ١٢١ •

(٣) شرح الكافية ١٨٤/٢ •

(٤) نفسه •

(٥) نفسه وانظر التبيان فى تصريف الاسماء لاحمد كحيل ص ٨٤ •

النسب (١) كلا بن وتامر أى ذات حيض وذات طــلاق فى حائض وطالــق (٢) •

واعترض على الخليل بترك التاء فى مرضع ومنفطر فى قول الله تعالى : « والسماء منفطربه » • مع أن صيغة مفعل ومنفعل ليستا من باب النسب وبنحو عيشة راضية فهى عنده من باب النسب ؛ وقد لحقتها التاء (٣) •

ويذكر الرضى ما يطمئن اليه بعد أن تعقب الآراء السابقة فيقول (٤) : « والاقرب فى مثله أن يقال ان الاغلب فى الفرق بين المذكر والمؤنث بالتاء هو الفعل بالاستقراء ، ثم حمل اسم الفاعل والمفعول عليه لمشابهتهما له لفظا ومعنى كما يجىء فى بابهما فالحقا التاء للتأنيث كما يلحق الفعل ، ثم جاء مما هو على وزن الفاعل ما يقصد به مرة الحدوث كالفعل ومرة الاطلاق ، وقصدوا الفرق بين المعنيين ، فانثوا بتاء التأنيث ما قصدوا فيه الحدوث الذى الذى هو معنى الفعل كتأنيث الفعل لمشابهته له معنى ، بخلاف ما قصدوا فيه الاطلاق ليكون ذلك فرقا بين المعنيين » •

والوجه الذى يجمع بين رأى الخليل ورأى سيبويه فى ماجاء من صفات المؤنث على فاعل فى المخصص أن هذا الباب سقطت الهاء منه لانه لم يجر على الفعل (٥) • « والدليل على صحته أنا رأينا أشياء يشترك فيها المذكر والمؤنث يسقطون الهاء منها •• وذلك كثــير فى كلامهم ، وقد رأينا أشياء يشترك فيها المذكر والمؤنث بالهاء كقولك رجل فروقة وامرأة فروقة وملولة للذكر والانثى • ومما يدل على قوة قولهم أيضا أنا نقول امرأة حائضة غدا ومرضعة غدا فلا ينزعون الهاء لانه شىء لم يثبت وانما الاخبار عنه على لفظ الفعل ، وهــو

---

(١) شرح الكافية ١٨٤/٢ .
(٢) انظر المخصص ١٢١/١٦ والمحكم الطبعة الاولى تحقيــق د. عائشة عبد الرحمن ج ٣ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .
(٣) شرح الكافية ١٨٤/٢ — ١٨٥ .
(٤) نفس المصدر ١٨٥/٢ .
(٥) المخصص ج ١٦ ص ١٢٠ .

قولنا تحيض غدا ، وترضع غدا .. » (١) . والرأى الذى انتهى اليه الرضى هو الذى نفضله فى الاتيان بصفات المؤنث على فاعل .

وقد يجىء فاعل بمعنى مفعول ويقع صفة على المؤنث بغير هاء وذلك قليل . مثل دابة حاسر . حسرها السير وشاة شـافع للتى شفعها ولدها وغلالة رادع مردعة بالطيب والزعفران فى مواضع (٢) .

٩ ــ « وصف الشىء بما يقع فيه كقولهم ليلهم نائم اذا ناموا فيه ، وليلهم ساهر اذا سهروه » (٣) .

وهذا من المجاز العقلى الذى هو اسناد الفعل أو ما فى معناه الى شىء غير ما بنى الفعل أو ما فى معناه له لملابسة بتأول (٤) .

وليلهم نائم أو ساهر من الاسناد الى ظرف الزمان ، فقد أسند اسما الفاعل من نام وسهر المبنين للفاعل الى ضمير الظرف اسنادا مجازيا من اسناد ما هو فى معنى الفعل الى غير ما حقه أن يسـند اليه (٥) . وفى الصاحبى (٦) : ومن سنن العرب وصف الشىء بما يقع فيه أو يكون منه كقولهم « يوم عاصف » المعنى عاصف الريح قال الله جل ثناؤه « فى يوم عاصف » فقيل عاصف ، لان عصوف ريحه يكون فيه ، ومثله ليل نائم وليل ساهر » .

---

(١) نفس المصدر جـ ١٦ ص ١٢١ .
(٢) نفس المصدر جـ ١٦ ص ١٢١ ، ١٢٨ .
(٣) الرافعى تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٣٣ وانظر الصاحبى ١٨٨ والمزهر ١/٣٣٦ .
(٤) الايضاح فى علوم البلاغة للخطيب جـ ١ ص ٩٨ وكشـاف اصطلاحات الفنون للتهانوى تحقيـق : د. لطفى عبد البـديع ونشر المؤسسة المصرية ١٩٦٣ جـ ١ ص ٢٩٨ ومذكرة البلاغة لحامد عونى ص ٣١ .
(٥) انظر امالى ابن الشجرى جـ ١ ص ٣٠١ .
(٦) ص ١٨٨ وانظر البحر المحيط لابى حيان جـ ٨ ص ٣٢٠ وامالى ابن الشجرى جـ ١ ص ٣٠١ .

١٠ — « البسط بالزيادة فى حروف الاسم والفعل متى أمن اللبس بقرينة تقتضى ذلك كاقامة وزن الشعر ، وتسوية قوافيه • وعلى هذا قول بعضهم فى صفة الظلماء :

وليلـــة خامـــدة خمـــودا
طخيــاء تغشى الجـدى والفــرقودا

فجعل الفرقد كما ترى • ثم قال فيها (لو أن عمر اهم أن يرقودا) يريد يرقد • ومنها القبض محاذاة لذلك البسط • وهو النقصان من عدد الحروف كقولهم لاه ابن عمك أى لله ، ودرس المنأى المنازل » (١) •

ويفسر الصاحبى عملية البسط ، فيذكر أنه فى الفرقد زاد الواو وضم الفاء لانه ليس فى كلامهم « فعلول » ولذلك ضم الفاء (٢) • ويأتى ببعض الامثلة مثل :

أقول اذ خرت على الكلكال

أراد « الكلكل » • وفى بعض الشعر « فأنظـور » أراد « فانظر »، (٣) •

وينكر فى موضع آخر أن الاختلاف فى الزيادة وجه من وجوه اختلاف لغات العرب ، وأن تلك اللغات مسماة منسوبة الى أصحابها ، وهى وان كانت لقوم دون قوم فانها لمـا انتشرت تعاورها كل (٤) •

وقد ذكر ابن جنى فى باب مضارعة الحروف للحركات والحركات للحروف (٥) أنك متى أشبعت ومطلت الحركة أنشأت بعدها حرفا من جنسها • وأنه اذا احتاج الشاعر الى اقامة الوزن مطل الحركة ، وأنشأ عنها حرفا من جنسها • « وذلك قوله :

نفى الدراهم تنقاد الصياريف •

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ •
(٢) ابن فارس الصاحبى ص ١٩٣ •
(٣) نفسه ص ١٩٣ وانظر امالى ابن الشجرى ص ٢٢١ •
الصاحبى ص ٢١ — ٢٢ •
(٥) الخصائص ج ٢ ص ٣١٥ وما يليها •

وقوله ــ أنشدناه لابن هرمة :

وأنت من الغوائل حين ترمى
ومن ذم الرجال بمنتزاح

يريد : بمنتزح ، وهو مفتعل من النزح ؛ وقوله :

وأننى حيث ما يسرى الهوى بصرى
من حيث ما سلكوا أدنو فأنظور (١)

ويهتم ابن جنى بظاهرة اشباع الحركة فيتولد الحرف ، فيقول فى باب فى مطل الحركات (٢) : « واذا فعلت العرب ذلك أنشأت عن الحركة الحرف من جنسها • فتنشىء بعد الفتحة الالف ، وبعد الكسرة الياء ، وبعد الضمة الواو » • ويأتى بأمثلة تؤكد ذلك ومنها الامثلة السابقة • فمن اشباع الكسرة ومطلها ما جاء عنهم من الصياريف •• والالف المنشأة عن اشباع الفتحة كمنتزاح ومن مطل الضمة أنظور (٣) • ويدعو الرجل الى القياس على ما جاء (٤) مشيرا الى أهمية ذلك . وفى موضع آخر يقرر أن الشاعر اذا اضطر جاز له أن ينطق بما يبيحه القياس ، وان لم يرد به سماع (٥) • وفى باب فى هل يجوز لنا فى الشعر من الضرورة ما جاز للعرب أولا يقول : (٦) « سألت أبا على رحمه الله عن هذا فقال : كما جاز أن نقيس منثورنا على منثورهم فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم ، فما أجازته الضرورة لهم أجازته لنا وما حظرته عليهم حظرته علينا • واذا كان كذلك فما كان من أحسن ضروراتهم فليكن من أحسن ضروراتنا ، وما كان من أقبحها عندهم فليكن من أقبحها عندنا • وما بين ذلك بين ذلك » •

وبعض الباحثين يرون أن النقصان من عدد الحروف أو سقوط بعض أصوات الكلمات ــ يعد من مظاهر الاقتصاد فى الجهد العضلى •

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٣١٥ ــ ٣١٦ وانظر ج ٣ ص ١٢١ ، ١٢٤
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ١٢١ .
(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ١٢١ ــ ١٢٤ وانظر مغنى اللبيب لابن هشام ج ٢ ص ٣٥ .
(٤) الخصائص ج ٣ ص ١٢٤ .
(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٣٩٦ .
(٦) نفس المصدر ج ١ ص ٣٢٣ ــ ٣٢٤ .

« ولكنه على كل حال يحقق الغرض بين المتكلم والسامع ، ولا يخل بهدف الكلام وهو الفهم • فقد ينطق البدوى دون تمهل فى نطقه ودون انتظار لنهاية الكلمات ، فتصدر عنه الكلمات مبتورة الآخر • وهو لايحفل بهذا لان كل ما يرمى اليه هو افهام السامع وقد وصل الى غرضه مع اقتصاد فى الجهد وبطريقة أيسر وأسرع • وهذا هو السر فيما روى لنا من ترخيم فى النداء وفى تلك اللهجة التى سماها القدماء قطعة طيىء •• » (١) و « روى أن قبيلة طيىء كانت تميل الى قطـع اللفظ قبل تمامه فيقولـون « يا أبا الحكـا » ويريدون يا أبا الحكم • وهذه الصفة تشارك الترخيم فى أنها حذف آخـر الكلمة ، الا أن الحذف فى الترخيم وارد على آخر الاسم المنادى أما هنا فقد يرد على كل كلمة ، اسما كانت أو فعلا • منادى أو غير منادى • وقد روى القدماء البيت الآتى مثلا لقطعة طيىء :

درس المنـا بمتالـع فأبـان
فتقـادمت بالحـيس والسربان

أى المنـازل •

كما رووا قول الشـاعر :

تضـل منـه ابلى بالهـوجل
فى لجـة أمسـك فلانا عن فـلى

أى عن فلان » (٢) • ويرى الخليل بن أحمد أن العر بـتقول ذلك كثيرا وتستخدمه ليتم القياس (٣) والرافعى أتى بمثالين للحذف أولهما وقع فيه الحذف فى الاول وثانيهما وقع فيه الحذف فى الثانى • وفى الصاحبى أمثلة القبض ، وذكر للترخيم ، وحكم بأن هذا كثير فى أشعارهم وقوله (٤) « وما أحسب فى كتاب الله جل ثناؤه منه ، الا أنه روى عن بعض القرأة أنه قرأ « ونادوا يا مال » • أراد يا مالك والله أع لمبصحة ذلك » •

---

(١) د. ابراهيم انيس : اللهجات العربية . نشر دار الفكـر العربى ص ٧٩ — ٩٨ •
(٢) نفسـه والصفحة •
(٣) العين للخليل بن احمد ج ١ ص ١٩٦ •
(٤) الصاحبى : ١٩٤ — ١٩٥ •

وابن جنى يرى أنهم يحذفون بعض الكلم استخفافا ، حذفا يخل بالبقية ، ويعرض لها الشبه • ويعرض أمثلة مثل قول علقمة :

كأن ابريقهم ظبى على شرف
مقدم بسبا الكتان ملثوم

أورد بسبائب . ويقول لبيد :

درس المنا بمتالع فأبان

أراد المنازل (١) • ويشير صاحب الخصائص الى أن الحرف الواحد يغنى عن الكلام الكثير المتناهى فى الابعاد والطول ، ويؤكد أن العرب الى الايجاز أميل وعن الاكثار أبعد (٢) • ويذكر قول علقمة وقول لبيد فى فصل فى التحريف (٣) جاعلا القولين من التحريف المسموع غير المقيس الذى جاء فى غير الاضافة ، ويأتى بأمثلة أخرى منها ما غيرت فيه الكلمة بأن زاد القائل فيها حرفا • كقول العبد :

وما دمية من دمى ميسنان معجبة نظرا واتصافا •

أراد : ميسان فغير الكلمة بأن زاد فيها نونا ، فقال ميسنان (٤) •

وفى المزهر : « أن كل ضرورة ارتكبها شاعر فقد أخرجت الكلمة عن الفصاحة • وقد قال حازم القرطاجنى فى منهاج البلغاء : الضرائر الشائعة منها المستقبح وغيره ، وهو مالا تستوحش منه النفس كصرف مالا ينصرف • وقد تستوحش منه فى البعض كالاسماء المعدولة ، وأشد ما تستوحشه تنوين أفعل منه ومما لا يستقبح قصر

---

(١) ابن جنى : الخصائص جـ ١ ص ٨٠ — ٨١ . وفى المخصص جـ ١٥ ص ١٦٧ بعد أن أورد ابن سيده عجز بيت علقمة قوله : « قيل انه اراد السبائب فحذف ، وهو من شاذ الحذف . وقيل ان السباهى السبائب ،وليس على الحذف » .

(٢) ابن جنى : الخصائص جـ ١ ص ٨٢ — ٨٣ وانظر ايضا ص ٣٠ شاهد الاستغناء بالحرف عن الجملة ، وراجع الهامش (٤) نفس الصفحة .

(٣) ابن جنى الخصائص جـ ٢ ص ٤٣٧ والتحريف عنده من شجاعة العربية انظر ٢/٣٦٠ .

(٤) نفس المصدر جـ ٢ ص ٤٣٧ ويرى ابن جنى فى الجزء الاول ص ٢٨٢ أن زيادة النون ضرورة . وهذا تحريف يتعجرف عار من الصنعة

الجمع الممدود ، ومد الجمع المقصور ، وأقبح الضرائر الزيادة المؤدية لما ليس أصلا فى كلامهم ، كقوله : أدنوفأ نظور ، أى انظر • والزيادة المؤدية لما يقل فى الكلام ، كقوله : فاطأت شيمالى ، أى شمالى • وكذلك النقص المجحف كقوله :

درس المنا بمتالع فأبانا (١) •

أي المنازل • وكذلك العدول عن صيغة الى أخرى كقوله •

جدلاء محكمة من نسج سلام •

أى سليمان • انتهى » (٢) •

١٠ ــ « المحاذاة وذلك أن تجعل كلاما بحذاء كلام فيؤتى به على وزنه لفظا وان كانا مختلفين فى أصل الوزن • وهذا النوع يسمى الازدواج أيضا كقولهم : انه ليأتينا بالغدايا والعشايا ، فجمعوا الغداة ، وهى من الواو على غدايا محاذاة للفظ العشايا ، وهى جمع العشية • وقول بعضهم : (هتاك أخبية ولاج أبوبة) ، فجمع الباب على أبوبة ليشاكل لفظ الاخبية » (٣) •

والمحاذاة من سنن العرب وبابها واسع كثير فى كلام العرب ، يحافظون عليه ، ويدعون غيره اليه ، مؤثرين المحاكاة والمناسبة بين الالفاظ ، تاركين لطريق القياس (٤) • وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل ما اسمك فقال غيان ، فقال بل رشدان • وانما قال النبى عليه السلام رشدان على هذه الصيغة ليحاكى به غيان (٥) •

---

(١) هكذا جاء فى المزهر ١٨٩/١ .

(٢) السيوطى المزهر جـ ١ ص ١٨٨ ــ ١٨٩ ونسب هذا الى الشيخ بهاء الدين السبكى .

(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٣٤ وانظر ابن فارس الصاحبى ص ١٩٥ ــ ١٩٦ والسيوطى المزهر جـ ١ ص ٣٣٩ ــ ٣٤٢ .

(٤) انظر المزهر جـ ١ ص ٣٣٩ ــ ٣٤٢ وتاج العروس جـ ٢ ص٣٥٦ المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٦هـ .

(٥) تاج العروس جـ ٢ ص ٣٥٦ .

وورد عنه « ارجعن مأزورات غير مأجورات » • ومأزورات من الوزر ، والمستعمل موزورات فجاء به هكذا لاجل المناسبة (١) •

وورد عنه غير ذلك مما يثبت أن ظاهرة المحاذاة مراعاة فى كثير من المواضع • وفى قولهم : « الغدايا والعشايا » ، لايقال الغدايا اذا أفردت عن العشايا لانها الغدوات (٢) • ولولا المحاذاة لـم يجز تكسير فعلة على فعائل . وابن الاعرابى يحكى أن الغدايا جمع غدية ، ولم يقل ذلك أحد غيره . لان الغدايا اتباع كما حكاه جميع أهـل اللغة (٣) •

أما الباب فقياسه أفعال لانه فعل معتل العين . وجمعـه على أبوبة للازدواج ولولا ذلك لم يجز افراده • يقول أبو على الفارسى (٤) فى تشاكل الالفاظ وتشابهها : « واذا كانوا قد استجازوا لتشاكل الالفاظ وتشابهها أن يجروا على الثانى طلبا للتشاكل مالا يصح فى المعنى على الحقيقة فان يلزم ذلك ويحافظ عليه فيما يصح فى المعنى أجدر وأولى . وذلك نحو قوله :

ألا لايجهـــلن أحـــد علينـــا
فنجهـل فوق جهـل الجاهلينـــا

وفى التنزيل : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، والثانى قصاص وليس بعدوان . وكذلك « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وقوله : « فيسخرون منهم سخر الله منهم » ونحو ذلك فأن يلزم التشاكل فى اللفظ مع صحة المعنى أولى • ومما يؤكد ذلك قوله : « من العين الحير » (٥) • وقول أم تأبط شرا : تلفه هوف » (٦) •

---

(١) الخفاجى : سر الفصاحة تحقيق على فودة المطبعة الرحمانية ١٩٣٢م الطبعة الاولى ص ١٦٩ .

(٢) انظر لسان العرب الطبعة المصورة جـ ١٩ ص ٣٥٣ (غدا) .

(٣) نفســه والصــفحة .

(٤) الحجة جـ ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٥) من العين الحير بكسر الحاء اتباعا للعين ، ورد فى بيت من الرجز رواه صاحب اللسان « حور » : عيناء حوراء من العين الحـير . جمع حوراء — انظر اللسان جـ ٥ ص ٢٩٩ .

(٦) من قولها فى تأبينه : وا ابناه ليس بعلفوف تلفه هوف حشى من صوف . رجل علفوف : جاف كثير اللحم . والهيف كسيف الريح الحارة اللسان هوف ، هيف ١١/٢٦٦ — ٢٦٧ .

ويقول أيضا فى ضرب آخر من تشاكل اللفظ (١) : « ومما يقوى قول من قال : قيل أن هذه الضمة المنحو بها نحو الكسرة قد جاءت فى نحو قولهم : شربت من المنقر (٢) . وهذا ابن عور وابن بور فأمالوا هذه الضمات نحو الكسرة لتكون أشد مشاكلة لما بعدها وأشبه به وهو كسر الراء ، فاذا أخذوا بها لتشاكل اللفظ وحيث لايميز معنى من معنى آخر فأن يلزموا ذلك حيث يزيل اللبس ويخلص معنى من معنى أجدر وأولى » .

ويقرر بعض الباحثين أنه فى الامكان أن تفرد كلمات الغدايا ومأزورات وغيرهما خارج مجتمعاتها . « بما هى مصطلح خلق خلقا جديدا خاصا لا شأن له بالاسم العادى ، وان اشتق من أصوله ، فسلامته انما يحددها مطابقته لصفات واتساقه مع تصانيف .. فالغدايا وما على شاكلتها استخدامها بهذه الصورة المغايرة للموروث اللغوى فى عمومه فيه ظلال الحديث النبوى دون ذكر الحديث » (٣) .

وجماع الامر انهم يجعلون للمحاذاة أو الازدواج حكما لم يكن قبل ذلك . ويقدرون الضرورة التى تشبه أحيانا ضرورة الشعر (٤) . ويذكرون ضروبا مختلفة يدخلونها فى هذا الباب مثل كتابة المصحف والجزاء عن الفعل بمثل لفظه (٥) ومشاكلة بعض اللهجات وغير ذلك (٦) .

١١ — « قلب الكلام تفننا كقول العباس بن مرداس (فديت بنفسه نفسى ومالى ، أى فديت نفسه بنفسى ومالى . وقول الاعشى فى قلب الاعراب :

---

(١) الحجة ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) قال سيبويه : وشربت من المنقر — والمنقر الركية الكثيرة الماء الكتاب ٢/٢٧٠ .

(٣) د. محمد بدرى عبد الجليل : المجاز واثره فى الدرس اللغوى ص ٢٤٣ .

(٤) المحكم والمحيط الاعظم لابن سيده ج ٤ ص ٦١ — ٦٢ .

(٥) انظر الصاحبى ص ١٩٥ — ١٩٦ والمزهر ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٦) ابن منظور لسان العرب ج ٥ ص ١١٦ وانظر ابن هشام مغنى اللبيب ج ١ ص ٤٧ .

ما كنت فى الحـــرب العـــوان مغمـــرا
اذ شب حـــر وقـــودها أجـــزالها

وانما هو اذ شب حر وقودها أجزالها . ولكن روى القصيدة بالفتح » (١) وقد ذكر ابن قتيبة أنواعا أخرى من القلب فى باب المقلوب (٢) . وجعل ابن فارس القلب يكون فى الكلمة ؛ ويكون فى القصـــة (٣) .

ويرى ابن أبى الاصبع أن عروة بن الورد عندما قال :

« فانى لـــو شـــهدت أبا ســـعاد
غـــداة غـــد بمهجتـــه يفـــوق
فـــديت بنفســـه نفسى ومـــالى
ومـــا آلـــوه الا مـــا أطيـــق

فانه أراد أن يقول فديت نفسه بنفسى ومالى ؛ فألجأته ضرورة الوزن الى قلب المعنى كما ترى . ومهما كان الشعر سليما من مثل هذا كان الشعر الذى ائتلف معناه مع وزنه » (٤) .

والسكاكى ومن تبعه قبل القلب مطلقا (٥) « سواء تضـــمن اعتبارا لطيفا أولا . وعللوا ذلك بأن قلب الكلام يحوج الى التنبيه للاصل ، وذلك مما يورث الكلام ملاحة وظرفا . ورده قوم مطلقا لانه عكس المطلوب ونقيض المقصود ؛ وحمل ما ورد منه على التقديم والتأخير .

والحق التفصيل : وهو أنه ان تضمن اعتبارا لطيفا ومغـــزى طريفا غير الملاحة التى أورثها القلب قبل .. وان لم يتضمن القلب اعتبارا لطيفا زائدا على مجرد ما أفاده من ظرافة رد لانه خروج عن

---

(١) الرافعى تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٣٥ .
(٢) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ١٤٢ — ١٥٦ .
(٣) الصاحبى ص ١٧٢ . ويقول عن القلب فى الكلمة « وليس من هذا فيما أظن من كتاب الله جل ثناؤه شىء » .
(٤) ابن أبى الاصبع المصرى : تحرير التحبير تحقيق د. حفنى محمد شرف . نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٢٣ .
(٥) الايضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ص ١٦٥ .

مقتضى الظاهر من غير نكتة يعتد بها ؛ ولانه يفهم خلاف المراد » (١) •
وليس على هذا الرأى المفصل — فى فديت بنفسه نفسى ومالى الخ —
اعتبار لطيف (٢) •

ويرى ابن قتيبة فيما قلب على الغلط أنه لايجوز « لاحد أن يحكم به على كتاب الله عز وجل لو لم يجد له مذهبا لان الشعراء تقلب اللفظ ، وتزيل الكلام على الغلط ، أو على طريق الضرورة للقافية أو لاستقامة وزن البيت •• والله تعالى لايغلط ولايضطر » (٣)•

مآخذنا على الرافعى فى نظام القرينة :

مهما اجتهد النشاط الانسانى فى الاتيان بشتى الاستعمالات الفنية والنفسية فانه من المعروف أن النظام اللغوى يعتمد على القرائن المقالية والعقلية والحالية وغيرها ليحقق وضوح المعنى ، ويمنع اللبس • والقرائن تجتمع متضافرة لتقوم بمهمتها ، ولاتترك واحدة منها بمفردها للدلالة على عمل ما (٤) •

والرافعى عندما أتى بنظامه الثالث جعله نظام القرينة ، وكان الادق والانسب أن يسميه نظام القرائن لان القرينة الواحدة لاتقوم وحدها بتوضيح المعنى وازالة اللبس الا اذا تساهلنا وراعينا التجوز ونحن فى محاولة الكشف عن المعنى اللغوى لابد أن نراعى المعنى الوظيفى وهو وظيفة الجزء التحليلى فى النظام أو فى السياق على حد سواء ، والمعنى المعجمى للكلمة : والمعنى الاجتماعى أو معنى المقام ، ولابد أن نأخذ بالقيم الخلافية التى بدونها لايكون اللبس مأمونا ، ولا الكلام مفهوما ونعتبر الانظمة التى تترابط فى مسرح الاستعمال اللغوى ؛ وهى (النظام الصوتى والصرفى والنحوى) (٥) •

---

(١) مذكرة البلاغة حامد عونى ص ١٦٣ — ١٦٥ .
(٢) نفس المرجع ص ١٦٦ وانظر الايضاح للخطيب ص ١٦٥—١٦٦
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٥٤ — ١٥٦ .
(٤) انظر د. تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٩٢ ، ٢٣٢ .
(٥) نفسه ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ .

وقد وصف الرافعى القرينة بأنها أضعف أثر يشير الى وجه الكلام ومذهبه ؛ ويهدى الى طريق المعنى فيه ؛ ولسنا معه فى الحكم بأنها أضعف أثر ؛ « لان الكلام وهو مجلى السياق لابد أن يحمل من القرائن المقالية (اللفظية) والمقامية (الحالية) ما يعين معنى واحدا لكل كلمة فالمعنى بدون المقام (سواء أكان وظيفيا أم معجميا) متعدد ومحتمل لان المقام هو كبرى القرائن » (١) • ونحن نعلم أنه لايكفى « مجرد فهم النظام الصوتى للغة ما لان نفهم مقالا بهذه اللغة ، بل لايكفى لذلك حتى فهمنا للنظام الصرفى أو النحوى للغة المذكورة ، بل لايكفى أيضا أن نفهم المعنى المعجمى لحشد كبير من كلمات هذه اللغة أيضا لان نفهم المعنى فهما كاملا مادام المقام غير مفهوم » (٢) •

وقد اطمأن الرافعى الى ما نقله فى نظامه ، وفاته أن يشير الى آراء العلماء فيما أتى به ، وأن ينبه على ما قضى به التحقيق ، وأعتقد أن ذلك واجب البحث ؛ فليس كل ما جاء به يحمل سمة نظامه أو يخضع لوجه أو قول واحد على النحو الذى ذكره ؛ لاننى وجدت آراء مختلفة ، وأقوالا متعددة لا محيص من التعرض لها كما يقضى الحق والانصاف •

ولن أعود الى تكرير ما ذكرته . وانما حسبى أن أشير الى السنة الاخيرة وهى القلب فما استشهد به لم يجد فيه البلاغيون اعتبارا لطيفا . وقضى عليه بعض الباحثين بما يرد قول الرافعى انه من صناعة التمدن ، وطريق التفنن ، ودليل النبوغ •

---

(١) نفســـه ص ٣٩ •
(٢) نفســـه ص ٤١ •

خـــاتمة

أما بعد ، فقد حاول هذا البحث بكل ما استطاع أن يقدم أسرار النظام اللغوى عند الرافعى فى ظل منهج علمى مترابط ، ليجلى أهم جهود الرجل فى دراسة العربية ، ويحقق ما رجاه • ولم يكن يستطيع الانطلاق الى أهدافه قبل أن يقدم الرافعى فى صفحات تبرز العوامل التى أثرت فيه ، ودفعته الى الشغف بالعربية ، والنهوض بقـــوة لمواجهة كل محاولات التآمر عليها ، والـــرد على من يكيدون لها ، ويسعون للنيل من العقيدة ، معلنا أنه رسول لغوى بعث للدفاع عن القرآن ، ولغته ، وبيانه ، ثم تبين أهم ما ألفه لخدمة اللغة •

ولقد أدرك البحث أنه لايمكن تجلية نظرية الرافعى التى اعتمد عليها فى أسرار النظام اللغوى قبل توضيح رأيه فى أمرين لهما أثر كبير فيما حققه ، وهما أصل اللغة وكمال اللغة فكان الفصل الاول الرافعى وأصل اللغة وكمالها • وفى الامر الاول بينا رأى الرافعى فى النظريتين اللتين شغلتا المفكرين ، ثم وضحنا مذهبه الذى يقرر أن اللغة بنت الاجتماع ، وهى كلها حكاية للطبيعة ، وفى ضوء ذلك ، ذكرنا موقفه من بدء اختراع اللغة ومرحلة المقاطع الثنائية ، ومرحلة ارتجال المقاطع الثلاثية حتى اهتدى الانسان الى أصل الوضـــع ، وعرضنا الاشياء التى دعم بها مذهبه ورأيه فى اختلاف اللغـــات ، وحقيقة معنى اللغة •

ووجد البحث أنه لابد من تحقيق ما قاله ، وذكر رأى البحث اللغوى الحديث فى أصل اللغة ، ونتيجة لذلك وصلنا الى أن الرافعى تأثر بابن جنى واهتم بما ذكره ، واستفاد من جهود جورجى زيدان فى دعمنظرية المحاكاة بالامثلة التى عرضها عن بعض الشعوب ، والتنوع الذى جاء تبعا لاحتياجات الانسان ، والدلالة الحية والدلالة المعنوية ، وغير ذلك ، كما بينا رأى بعض الباحثين فى الاعتماد على نظرية المحاكاة وموقف الرافعى من النقد الذى وجه اليها ، واسرافه

فى جعل اللغة كلها حكاية للطبيعة ، وان كان جهده قد نجح فى تقريب تصور نشأة اللغة ، وجعل النظرية أدنى الى طبائع اللغويات ، مشيرين الى أهم ما استخلصناه من الموازنة بين أحدث النظريات ، ونسق الرافعى فى نظرية المحاكاة ، ومنتهين الى أن ما قاله من أن اللغة تابعة لاحوال الاجتماع فى القبض والبسط — لايختلف عما قاله البحث الحديث ، وهو أن اللغة أداة اجتماعية يوجدها المجتمع للرمز الى عناصر معيشته وطرق سلوكه •

وأما الامر الثانى فقد أثبتنا فيه أن الاديب الباحث أسرف فى تعظيم اللغة ، وبلغ مستوى لم يبلغه الذين عرفوا بالمبالغة فى هذا ، وأومأنا الى أسباب ذلك ، ذاكرين ما وقع فيه من نأى عن قوانين اللغات ، وبعد عن باب الاجتماع اللغوى ، ومبينين الرأى الصحيح الذى يعتصم به ابن حزم فى قضية التفضيل والتعظيم ، والموقف السليم الذى ينبغى أن يقفه اللغوى الحديث •

والفصل الثانى : نظرية المناسبة وأسرار النظام اللغوى ، بيّنا فيه أن أسرار النظام اللغوى تقوم على نظرية المناسبة ، وأن هذه النظرية هى سبب التمدن ، ثم كشفنا سر ايمانه الشديد بها ، والفرق بين جهده وجهد من سبقوه موضحين آراء فلاسفة اليونان والرومان والمذاهب المختلفة الاخرى ، وما ذكره المحققون فى الرد عليها ، وآراء المحدثين ، والامور التى اعتمدوا عليها • وتبين لنا أن لهم أربعة مذاهب مختلفة فصلناها وشرحنا اعتماد الرافعى على المناسبة فى كشف الاسرار ومظاهر سيطرتها على درسه ، وحددنا أنواعها ، والادلة والامثلة التى تدعم وجهها ، مشيرين الى تمدن العرب اللغوى ووجوهه ، وأن وجه المناسبة يسود فلسفة التمدن ، وانتهينا الى الضروب التى تفسر أسرار النظام اللغوى ، وهى نظام الالفاظ بالمعانى ، ونظام المعانى بالالفاظ ، ونظام القرينة ، مؤكدين قيامها على نظرية المناسبة ، مما يحقق الترابط ، ويوجه الدرس اللغوى الى منهج شامل ، ولكننا أخذنا على الرافعى موقفه من تجاهل الاعراب والتصريف والاحكام الظاهرة فى أسرار النظام ، وخالفناه فيما ذهب اليه ، لان قواعد النحو والتصريف تعين على ادراك الفروق والاسرار ، واللغة منظمة عرفية للرمز الى نشاط المجتمع ، وهى

مكونة من أنظمة هى النظام الصوتى . والنظام الصرفى ، والنظام النحوى . وهذه الانظمة تترابط فى مسرح الاستعمال اللغوى .

وقد فصلنا القول فى نظام الالفاظ بالمعانى فى الفصل الثالث . فتحدثنا عن المقصود بهذا النظام عند الرافعى ، وهو مساوقة الصيغ اللفظية للمعانى الموضوعة لها . واستعرضنا الامور التى تقوم عليها تلك المساوقة ، وبينا أنه من أشد أنصار الثنائية ، وقمنا باثبات غلوه فى الاشتقاق ، وايثاره العاطفة ، وعدم اهتمامه بالفصل بين أنواعه ، وخطئه فى نسبة القول بأن المعانى سلائل مرتبة الى ابن جنى ، وذهبنا الى أن استعماله الادبى للكلمة وثق بين الاصوات والمدلولات عنده ، ثم بينا الامور التى تحقق مساوقة الصيغ اللفظية للمعانى ، وهى تسعة . عول فيها الرافعى على ابن جنى ، واقتضى ذلك أن نقوم بتحقيقها ، وتقرير الحق والصواب ، وتبيين ما يؤخذ على الرافعى بالتفصيل . وموقف أنصار المذهب الثالث فى نظرية المناسبة مما ذكره ، وأثر الدراسة الصوتية التى قام بها ابن جنى ، وموقف ابن قتيبة من الاسماء المتقاربة فى اللفظ والمعنى ، ورأى ابن السيد البطليوسى فى أمر المناسبة وحرص الرافعى على الا تتصدع نظريته ، أو تفقد قوة السيطرة والضبط ، وأثبتنا بعض ما يخالف ما ارتضاه ، وانتهينا الى القضاء بأن ما نقله لايكفى لاقامة نظرية عامة تشمل ألفاظ العربية كلها ، منبهين على الاحتياج الى توسيع أفق الملاحظة والاستقراء ، وداعين الى الفطنة فى التحرى ، وتقدير أن العربية تختلف عن غيرها فى قيمة الحرف الدلالية ، وأن مسلك الرافعى لفت الانظار الى مثالية اللغة الرفعية ومناسبتها المجيبة ، ودعانا هذا الى ذكر رأى أنصار المثالية اللغوية ، ورأى من يرفضون المستوى الذى بلغه الرافعى فى المثالية المذكورة .

أما الفصل الرابع نظام المعانى بالالفاظ فقد وضحنا فيه اختلافه عن النظام السابق لان الالفاظ فيه هى التى تسوس المعانى وتنزلها فى منازلها وتضعها على أقدارها . ولاحظنا اعتماد الرافعى على عبارات مجازية ، وميله الى المبالغة والخضوع لما تتجه اليه النظرة الادبية ، ثم بينا تمسكه بأن اللغة عمل نفسى محض ،

وذهابه الى أن فيها حياة باطنة تشبه ما فى الانسان الراقى مما يسمى بالكمال ، وعرضنا الدليل الذى قدمه ، والموازنة التى حفلت بالاغراق فى التفضيل ، والغلو فى التعظيم ، والغموض الذى لاذ به أحيانا ، وموقف علم الوضع ، ورأى ابن جنى وغيره فى حكمة الوضع ، والعلل والاغراض ، وما قاله الرافعى فى طرق الوضع .

ونبهنا على أنه لم يشر الى العناصر التى يتألف منها المعنى ، وشرحنا تلك العناصر ، واقتضى الامــر أن نبين الآراء المختلفة فى المعنى مهتمين بما ذكره أولمـــان ، وبلو مفيلد ، وفيرث ، ثم تحدثنا عن تأكيد الرافعى أن اللغة عمل نفسى محض ، وعرضنا ما بدا لنا فى تفسير ذلك ، ووصلنا الى أنه نحا منحى نفسيا صرفا ، وآمن بأن الاحساس انما هو اللغة النفسية الصرفة ، وتشبث بموقفه فى كثير من المواضع ، ودفعنا الدرس الى الموازنة بين موقفه وموقف أولمان ، ومناقشة ما قاله ، واستعراض أهم آراء الباحثين فى اللغة ، فذكرنا رأى فندريس ، ووالترفــ ـ فارتبــورج ، ودى سوســـير ، وجسبرسن ، وهارولد بالمر ، وبلو مفيلد ، وغيرهم ، وقد استبان لنـــا أن شتى الآراء لم تذهب الى المستوى الذى ذهب اليه الرافعى فى اعتبار اللغة عملا نفسيا محضا ، وفيما ذكره من التعيين والتفصيل وتكافؤ النفس واللغة ، فقررنا أنه يمثل نظرة أدبية ، ورؤية نفسية خالصة ، ويرى أن الكلمات مصقولة تبرز الانطباعات الدقيقة العابرة من وجداننا الفكرى . وقد خالفناه ، وفصلنا رأينا مدعما بكثير من الادلة القوية وكثير من الاشياء التى قررها البحث اللغوى . وانتهينا الى أن المعنى فى نظر الدراسات اللغوية الحديثة صدى من أصداء الاعتراف باللغة كظاهرة اجتماعية ، ونتيجة لتشابك العوامل المختلفة فى اطار الثقافة الشعبية ، وأثبتنا أن الرافعى لم يلتزم بما قرره ، ولم يسر على منهج واحد .

ثم انتقلنا الى عملية تخصيص المعنى اذا كان جنسا ، وتأكيده ، ورأينا أن التخصيص عند الرافعى ليس ضربا يرتبط بكلمة واحدة كانت عامة ثم خصصت هى نفسها ، وانما يقوم على تعيين درجات المعانى ، وتفصيل أجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الاجزاء أو بصفاتها . وأومأنا الى أنواع أخرى من التخصيص لم يذكرها ، مؤكدين تميزه الذى نلاحظه فى دراســة

التخصيص ، ومخالفته غيره بما يشهد بالفطنة ،ويرتبط بنسـق شامل • ولكننا أخذنا عليه ما وقع فيه من غلو واسراف ، وخالفناه فى اعطاء الالفاظ قدرات ومستويات تجعلها فصولا علمية تدل على التمدن ، وتوحى بمستوى الكمال ، مستندين الى ما يجب مراعاته وتقديره فى الدرس اللغوى ، ومحددين ما فاته من أمور هامة ، ومرشدين الى تأثره بعبقرية الالفاظ وسحرها وجلالها ، ونظرته الى الناس نظرة واحدة ؛ وجريه على أن هناك مطابقة بين المتكلم والسامع ؛ ومؤكدين أن مراتب الحب التى أتى بها مثالا لم تمثل المستوى الذى تمثله المصطلحات العلمية المتفق عليها فى بعض العلوم ، وأن الرافعى أخذ بما قاله الثعالبى ، ولم يقم بالتحقيق الدقيق الذى عنينا به •

أما الفصل الخامس فكان نظام القرينة ، وقد قررنا فيه أنه عند الرافعى يقوم على الاتساع والتفنن،واطلاق الكلام اطلاقا غيرمقيد بنظام ، ولا متبع لطريق غيره من سائر الكلام اعتمادا على اللمحة الدالة ، والاشارة التى تقع موقع الوحى ، وعلى أضعف أثر يشير الى وجه الكلام ومذهبه • ثم بينا سبب حكم الرافعى بأنه نظـام بديع ، وسر المستوى الذى وصـل اليه فى رأيه ؛ واختلافه عـن النظامين السابقين ، وقيامه على المناسبة ، وموقف علماء العربية منه ، وسير الرافعى على نسق السيوطى فى كثير مما جاء به فى هـذا النظـام •

ورأينا أن ابن قتيبة هو صاحب الفضل فى جمع الكثير مما ذكروه من سنن العرب التى يتحقق فيها نظام القرينة ، والقيام بدراسته وتوجيهه، وأن من أتى بعده انتفع بآرائه ؛ ولم ننكر فضل سيبويه ؛ بل ذكرنا بعض السنن التى جاءت فى كتابه . وبعض الاشارات الهامة التى نفعت درس القرينة • وشرحنا بعد الاشارة الى أنواع القرينة عند الغزالى — سنن العرب التى يتحقق فيها نظام القرينة ، وتبين لنا أن الرافعى حشد فى النظام المذكور احدى عشرة سنة ، درسناها دراسة شاملة ، وقدمنا رأى البحث والتحقيق فيها ، موضـحين ما أخذناه على الرافعى . منبهين على أن القرائن تجتمع متضافرة لتقوم بمهمتها ، والقرينة الواحدة لاتقوم وحدها بتوضيح المعنى ، ثم ذاكرين أنه لابد فى الكشف عن المعنى اللغوى من مراعاة المعنى

الوظيفى ، والمعنى المعجمى ، والمعنى الاجتماعي ، ولابد من الاخذ بالقيم الخلافية ، واعتبار الانظمة التى تترابط فى مسرح الاستعمال اللغوى • وفى الرد على وصف القرينة بأنها أضعف أثر أتينا بقرينة المقام ، ووضحنا أهميتها ، ورأينا أنها تعد أقوى دليل يخالف الوصف السابق ويرفضـــه •

وأخيرا أومأنا الى أن الرافعى لم يشر فى نظام القرينة الى آراء العلماء ، ولم يقم بما يقضى به التحقيق والانصاف ، لانه اطمأن الى ما نقله ففاته الكثير مما يحتمه البحث •

و « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا
لنهتدى لولا أن هدانا الله » •

المصادر والمراجع

١ ـ الآمدى : الاحكام فى أصول الاحكام . مطبعة المعارف ١٩١٤م .

٢ ـ ابراهيم أنيس (دكتور) : دلالة الالفاظ الطبعة الثانية ١٩٦٣م.

٣ ـ ابراهيم أنيس (دكتور) : اللهجات العربية مطبعة الرسالة دار الفكر العربى .

٤ ـ ابراهيم أنيس (دكتور) : من أسرار اللغة الطبعة الثالة ١٩٦٦م. نشر مكتبة الانجلو المصرية .

٥ ـ ابراهيم السامرائى : (دكتور) : فقه اللغة المقارن دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨م .

٦ ـ ابن الاثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر طبعة بولاق ١٢٨٢هـ وطبعة المطبعة البهية بحوش قدم ١٣١٢هـ .

٧ ـ أحمد كحيل : التبيان فى تصريف الاسماء مطبعة السعادة .

٨ ـ الاشمونى : شرح الاشمونى على ابن عقيل طبع دار الكتب العربية ١٣٢٩هـ .

٩ ـ ابن أبى الاصبع المصرى : تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن . تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف القاهرة ١٩٦٣ نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

١٠ ـ أمين الخولى : مشكلات حياتنا اللغوية الطبعة الثانية ١٩٦٥ دار المعرفة .

١١ ـ أنستاس مارى الكرملى : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها القاهرة ١٩٣٨م المطبعة العصرية بالفجالة .

١٢ ـ أوتو جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ترجمة الدكتور عبد الرحمن محمد أيوب نشر الانجلو المصرية ١٩٥٤م .

١٣ـ البغدادي : خزانة الادب ولب لباب لسان العرب اشراف محمد محيى الدين عبد الحميد دار العصور .

١٤ـ تمام حسان (دكتور) : اللغة العربية معناها ومبناها ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٧٩م .

١٥ـ تمام حسان (دكتور) مناهج البحث فى اللغة مطبعة الرسالة ١٩٥٥م . نشر مكتبة الانجلو المصرية .

١٦ـ التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف ١٩٦٣م.

١٧ـ الثعالبى : فقه اللغة وسر العربية ـ مطبعة الحجر ١٢٨٤هـ .

١٨ـ الجاحظ : الحيوان تحقيق وشرح عبد السلام هارون طبع الحلبى ١٣٥٨ ـ ١٣٦٦هـ .

١٩ـ الجاربردى والسيد عبد الله وشيخ الاسلام زكريا الانصارى : شروح على الشافية طبع المطبعة العامرة ١٣١٠هـ .

٢٠ـ ابن جنى : الخصائص تحقيق محمد على النجار صدر الجزء الاول سنة ١٩٥٢م والثانى سنة ١٩٥٥م . والثالث سنة ١٩٥٦م طبع دار الكتب المصرية ـ والمنصف تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين الطبعة الاولى نشر الحلبى ١٩٥٤ ـ ١٩٦٠م .

٢١ـ جورجى زيدان : الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية الطبعة الثانية مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٤م .

٢٢ـ ابن الجوزى : نقد العلم والعلماء أوتلبيس ابليس صححه وقيد حواشيه محمد منير الدمشقى المطبعة المنيرية ١٣٦٩هـ .

٢٣ـ الجوهرى : تاج اللغة وصحاح العربية طبعة بولاق ١٢٨٢هـ وطبعة المطبعة الكبرى ١٢٩٢هـ .

٢٤ـ الجيزاوى : تحقيقات شريفة وتدقيقات منيفة مطبعة السعادة ١٣٣٢هـ .

٢٥ـ أبو حاتم الرازى : الزينة فى الالفاظ الاسلامية القاهرة ١٩٥٧ ـ ١٩٥٩م .

٢٦ـ حامد عونى : مذكرة البلاغة الطبعة الثانية ١٩٥٦ مطابع دار الكتاب العربى .

٢٧ـ ابن حزم : الاحكام فى أصول الاحكام طبع الخانجى .

٢٨ـ أبو حيان الاندلسى : البحر المحيط الطبعة الاولى مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ .

٢٩ـ الخضرى : حاشية على شرح ابن عقيل الطبعة الاولى بالمطبعة الازهرية المصرية ١٣٠٦هـ .

٣٠ـ الخطيب القزوينى : الايضاح فى علوم البلاغة شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى نشر دار الكتاب اللبنانى الطبعة الثالثة ١٩٧١م .

٣١ـ الخفاجى : سر الفصاحة تحقيق على فودة المطبعة الرحمانية ١٩٣٢م الطبعة الاولى .

٣٢ـ الخليل بن أحمد : العين تحقيق الدكتور عبد الله درويش مطبعة العانى ببغداد سنة ١٩٦٧م .

٣٣ـ ابن دريد : الاشتقاق تحقيق عبد السلام هارون نشر الخانجى القاهرة ١٩٥٨م .

٣٤ـ ابن دريد : جمهرة اللغة الطبعة الاولى . حيدر آباد الدكن ١٣٤٤ ـ ١٣٤٥هـ .

٣٥ـ الرازى : أساس التقديس فى علم الكلام طبع بمطبعة كردستان العلمية بمصر ١٣٢٨هـ .

٣٦ـ الرازى : مفاتيح الغيب : الطبعة الاولى المطبعة العامرة الشرفية ١٣٠٨هـ .

٣٧ـ الراغب : المفردات فى غريب القرآن . المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٢٤هـ .

٣٨ـ الزمخشري : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل دار الطباعة بولاق ١٢٨١هـ .

٣٩ـ الزمخشري : المفصل . الطبعة الاولى ١٣٢٣هـ مطبعة التقدم نشر محمد أمين الخانجى .

٤٠ـ سيبويه : الكتاب نشر هارنفيج درنبورج باريس ١٨٨١ والطبعة المحققة عبد السلام هارون . دار القلم .

٤١ـ السيد أحمد خليل (دكتور) اللغة بين الادب والتشريع مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٧م .

٤٢ـ ابن السيد البطليوسي : الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب طبع المطبعة الادبية بيروت سنة ١٩٠١م .

٤٣ـ ابن سيده : المخصص الطبعة الاولى بالمطبعة الكبرى ببولاق ١٣٢٠ ـ ١٣٢١هـ الاجزاء ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

٤٤ـ السيوطى : المزهر فى علوم اللغة.تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلى البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم . دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى .

٤٥ـ ابن الشجرى : الامالى الشجرية الطبعة الاولى . مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٤٩هـ .

٤٦ـ الشهاب الخفاجى : حاشية الشهاب الخفاجى المسماة بعناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى الجزء الاول طبع بولاق ١٢٨٣هـ .

٤٧ـ الصبان حاشية الصبان على شرح الاشمونى طبع دار الكتب العربية ١٣٢٩هـ .

٤٨ـ صبحى الصالح (دكتور) : دراسات فى فقه اللغة الطبعة الثالثة ١٩٦٨م بيروت دار العلم للملايين .

٤٩ـ عباس حسن : النحو الوافى . الطبعة الخامسة دار المعارف بمصر ١٩٧٥م .

٥٠ـ عبد السميع شبانة : دراسات فى النحو الطبعة الاولى ١٩٦٣م دار الانوار .

٥١ـ عبد العزيز عبد المجيد (دكتور) : اللغة العربية وأصولها النفسية وطرق تدريسها . دار المعارف الطبعة الاولى ١٩٥٢م .

٥٢ـ عبد القاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز . مطبعة المنار ١٣٣١هـ الطبعة الثانية . تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا .

٥٣ـ عبد الله العزازى : فقه اللغة نشر الجامعة الاسلامية ليبيا .

٥٤ـ عبده الراجحى (دكتور) : اللهجـات العربية فى القراءات القرآنية دار المعارف ١٩٦٨م .

٥٥ـ ابن عقيل شرح ابن عقيل دار الفكر ١٩٧٢م .

٥٦ـ على عبد الواحد واف (دكتور) : علم اللغة الطبعة الثانية نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٤م .

٥٧ـ على عبد الواحد واف (دكتور) : اللغة والمجتمع طبعة الحلبى ١٩٥١م .

٥٨ـ أبو على الفارسى : الحجة فى علل القراءات السبع تحقيق على النجدى ناصف ـ الدكتور عبد الحليم النجار ـ الدكتـور عبد الفتاح شلبى القاهرة ١٩٦٥م .

٥٩ـ الغزالى : المستصفى من علم الاصول . الطبعة الاولى المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٢٢هـ .

٦٠ـ ابن فارس : الصاحبى فى فقه اللغة . المكتبة السلفية ١٩١٠م .

٦١ـ الفيروزابادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز تحقيق محمد على النجار نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية صدر الجزء الثانى سنة ١٩٦٥ والثالث ١٩٦٨ والرابع ١٩٦٩ والخامس ١٩٧٠م .

٦٢ـ ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن شرح وتحقيق السيد أحمد صقر نشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى ١٩٥٤م .

٦٣ــ كمال بشر (دكتور) : دراسات فى علم اللغة • القسم الثانى دار المعارف ١٩٦٩م •

٦٤ــ كمال بشر (دكتور) : قضايا لغوية • دار الطباعة القومية ١٩٦٢م •

٦٥ــ كمال نشأت (دكتور) : مصطفى صادق الرافعى دار الكتاب العربى للطباعة والنشر مصر ١٩٦٨م •

٦٦ــ محمد الامير : حاشيته بهامش مغنى اللبيب الطبعة الاولى بالمطبعة الازهرية ١٣١٧هـ •

٦٧ــ محمد بدرى عبد الجليل (دكتور) : المجاز وأثره فى الدرس اللغوى نشر دار الجامعات المصرية ١٩٧٥م •

٦٨ــ محمد بدوى المختون (دكتور) : دراسة نظرية تطبيقية فى علمى الصرف والعروض • القسم الاول مكتبة الشباب مطبعة الرسالة ١٩٦٦م •

٦٩ــ محمد بن حسن الرضى : شرح الكافية •

٧٠ــ محمد سعيد العريان : حياة الرافعى • الطبعة الثانية مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٧م •

٧١ــ محمد الطنطاوى : بغية النجباء فى تصريف الاسماء • دار الصاوى للطبع والنشر الطبعة الاولى ١٩٣٩م •

٧٢ــ محمد الطنطاوى : تصريف الاسماء • الطبعة الخامسة ١٩٥٥م مطبعة وادى الملوك •

٧٣ــ محمد المبارك : فقه اللغة • مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠م •

٧٤ــ محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية • دار الفكر بيروت الطبعة الرابعة ١٩٧٠م •

٧٥ــ محمد محيى الدين عبد الحميد : منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل مع كتاب شرح ابن عقيل • دار الفكر ١٩٧٢م •

٧٦ــ محمود الالوسي : روح المعاني الطبعة الاولى بالمطبعة الكبرى الميرية ببولاق ١٣٠١هـ .

٧٧ــ محمود السعران (دكتور) : علم اللغــة مقدمة للقــارىء العربى . دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

٧٨ــ محمود السعران (دكتور) : اللغة والمجتمع رأى ومنهج المطبعة الاهلية ببنغازى ١٩٥٨ .

٧٩ــ مصطفى الشكعة (دكتور) : مصطفى صادق الرافعى كاتبا عربيا ومفكرا اسلاميا جامعة بيروت العربية ١٩٧٠م .

٨٠ــ مصطفى صادق الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبــوية الطبعة الثانية ١٩٢٦م المطبعة الرحمانية .

٨١ــ مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب طبعــة دار الاخبار بمصر سنة ١٩١١م .

٨٢ــ مصطفى صادق الرافعى : تحت راية القرآن ــ المعركة بين القديم والجديد المكتبة الاهلية بمصر الطبعة الاولى المطبعــة الرحمانية ١٩٢٦م .

٨٣ــ مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم تحقيق محمد سعيد العريان الطبعة الثالثة الجزء الثالث ــ مطبعة الاستقامة ١٩٥١م .

٨٤ــ أبو منصور الازهرى : تهذيب اللغة . نشر الــدار المصرية للتأليف والترجمة فى مجموعة تراثنا صدر فى خمسة عشر جزءا . الاول بتاريخ ١٩٦٤م والخامس عشر بتاريخ ١٩٦٧م .

٨٥ــ ابن منظور : لسان العرب : الطبعة المصورة عن طبعة بولاق فى مجموعة تراثنا : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر .

٨٦ــ ميخائيل نعيمة : الغربال . دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ١٩٥٧م .

٨٧ــ ابن هشام مغنى اللبيب : الطبعة الاولى بالمطبعة الازهرية ســنة ١٣١٧هـ .

الــــدوريات :

دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثانى العدد الخامس يونية ١٩٣٦م ٠

كتاب فى أصول اللغة أصدره مجمع اللغــة العربية وأخرجه وضبطه وعلق عليه محمد خلف الله ومحمد شوقى أمين ٠ الهيئــة العامة لشئون المطابع الاميرية ١٩٦٩ ٠

مجلة مجمع اللغة العربية الجزء السابع ١٩٥٣م ٠

مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الخامس عشر سنة ١٩٦٢م ٠

ولم نذكر بعض المراجع التى رجعنا اليها وأثبتناها فى أماكنها من البحث اكتفاء بتسجيلها فيها عن ايرادها هنا ٠

المـــــراجع الاجنبيـــــة

1 - Bloomfield (Leonard) : Language, London 1950.

2 - Ogden, Charles K. And Richards, Ivor : The Meaning of Meaning. London, 1923

3 - Rabin (Chaim) : Ancient West Arabia, London 1951.

4 - Sapir (Edward) Culture, Languageand Personality; California 1960

الفصل الثانى : (نظرية المناسبة وأسرار النظام اللغوى ص ٣٣ — ٦٢)

الفصل الثالث : (نظام الالفاظ بالمعانى ص ٦٣ — ٩٩)

الفصل الرابع : (نظام المعانى بالالفاظ ص ١٠١ — ١٥٤)

الفصل الخامس : (نظام القرينة ص ١٥٥ — ١٩٩)

تصـــويب

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصـواب
١٠	١٩	ابويه	ابويه
٢٧	١٨	حتى	حى
٣٠	١٠	وما يملك	ما يملك
٤٥	٢٥	اللغـاب	اللغـات
٥٢	١٨	امـا	امـا
٧٠	١١	والاخفش	الاخفش
٧٠	٢١	الاصيلة	الاصلية
٩٠	٧	اللبث	اللبس
١١٥	٤	منهما استدعاء	منهما من استدعاء
١١٥	(١) هامش	٦٠	١٦٠
١١٨	١٦	رود	ردود
١٢١	٢	كليتهما	كلتيهما
١٢٥	١٧	النفس ووسائل	النفس ووسائله
١٢٥	٢١	التحتيـق	التحقـق
١٢٦	١٢	النطـق	الناطـق
١٢٨	٥	وعـن	عـن
١٣٠	١٩	بنحـاح	بنجـاح
١٣٤	١٧	الكثـير	الكثـيرة
١٣٩	١٠	نسـاءل	نتسـاءل
١٤٣	٥	تجـارب	تحـارب
١٥٦	١٣	بلغـو	بلغـوا
١٥٨	١٤	اعتمـاد	اعتمـاده
١٦٠	٧	اللظـهر	الظاهـر
١٦٠	١٧	اشـارت	اشـارات
١٧١	١ هامش	بـدرى	بـدوى
١٧٩	٢	الصـحابى	الصـاحبى

مطبعـــة
يـــوم المستشـــفيات
١ شارع بستان الخشاب بالمنيرة
القصر العينى ـ القاهرة